

أُنْجِلِينَا

فتاة من النمسا

الكتاب: أنجليتا فتاة من النمسا	الطبعة: الأولى - 2019
رواية سيرة	الناشر: دار النخبة 6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادي النيل
المؤلف: مولود بن زادي	أمام سور نادى الزمالك - 01288688875
عدد الصفحات: 339	E-mail: alnokhoba@gmail.com
	جميع الحقوق محفوظة

التدقيق اللغوي: الأستاذة حسينة الحسيني

الكاتب الروائي عضو اتحاد كتاب مصر: حسام طه

أُتقدّم بخالص الشكر والتقدير للسفارة

البريطانية في النمسا لردّها ومساعدتها.

أُنْجِلِينَا

فتاة من النمسا

رواية سيرة

مولود بن زادي

النخبة

للطباعة والنشر والتوزيع

2019

إهداء

إلى روح أمين الريحاني ..

وإلى أرواح كل أدباء المهجر الذين افنوا

حياتهم في الدفاع عن المحبة والإنسانية ..

لأجل المحبة والإنسانية ..

دون مقابل ..

مولود بن زادي - لندن ٢٠١٩

«تخيّل أنّه لا توجد جنة..
فذلك سهل إن حاولت..
لا يوجد جحيم تحتنا..
ولا توجد فوقنا إلاّ سماء..
تخيّل أنّ كل البشر يعيشون لأجل اليوم..

تخيّل أنّه لا توجد دول..
ليس ذلك بالأمر العسير..
ليس ثمة ما تقتل أو تموت لأجله..
وليس ثمة دين..
وتخيّل أنّ كل البشر يحيون حياتهم في سلام..».

جون لينون

Don't grieve over the past,
It's all gone!

Don't worry about the future,
It may never come!

Live in the present,
And enjoy every moment.

(لا تحزن على الماضي، فالماضي قد فات!
ولا تقلق على المستقبل، فالمستقبل قد لا يأتي!
وعش الحاضر، واستمتع بكل لحظة)

المؤلف

It's the calm before the storm!

إنّ الهدوء الذي يسبق العاصفة! جال ذلك في خاطره، وهو يقف على عتبة مطعم النسيم في ميدان (ليستر سكوير) يتأمل أجواء السّاحة الهادئة في تلك الساعة من بعد الظهيرة.

عجيب أمر هذه الساحة! فهي، على ما يبدو، قد اعتادت نظاما خاصا لا ترغب في العدول عنه! كمن أدمن شيئا، ولم يعد في وسعه الابتعاد عنه! ساحة يحلو لها أن تخلد للنوم بالنّهار، ولا تستفيق إلّا وقد حلّ اللّيل، وتوارى الضياء خلف ستائر الظلام! وكأنّها لا تعشق إلّا اللّيل! ولا تستكنّ إلّا في حضن الظلام! ولا تستأنس إلّا بأطياف الضوضاء والصخب!

عند حلول اللّيل، يسري فيها ديب الحياة، وتعم أرجاءها الحركة والنشاط والانتعاش مع خروج الناس للسهر والتجوال والتنزّه. يتدفقون عليها تدفق الأمواج على الشاطئ الهادئ، فتعجّ بالجماهير، وتفيض صخبا وابتهاجا ومرحا. جل هؤلاء الناس الذين يملؤون الساحة هم سياح توافدوا على لندن من كل أنحاء العالم. هذه الساحة توفرّ لهؤلاء الزوار سبل الراحة والترفيه بما تحتوي عليه من مرافق مثل المطاعم والمقاهي ودور السينما والملاهي الليلية مثل (هيودروم) القريب.

صار يمرّ على هذه السّاحة السّياحيّة الشّهيرة في وسط لندن يومياً آلاف الزوار، ضمن ملايين السياح الذين يزورون عاصمة ما كان يُعرّف سابقاً باسم «الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس». ومثل ساحات عمومية أخرى بالمدينة، صارت تتردّد في أجوائها أصوات لغات من كل أرجاء المعمورة. إنّها لندن المدينة العالمية التي تحتضن كل أجناس الدّنيا ودياناتها ولغاتها وثقافتها، وتتجسّد فيها مبادئ احترام رأي الآخر، وتقبّل الآخر، والتعايش مع الآخر.. وتتجسّد في سمائها أسمى معاني المحبة والتسامح والإنسانية. أرسل نظره إلى أرجاء السّاحة. تراءى له بعض عمّال التنظيف وهم يرتدون سترات صفراء لامعة وخوذات واقية. كانوا آنذاك منهمكين في عملهم في الجهة المقابلة للسّاحة بجوار مطعم الوجبات السريعة (برجر كنج) الذي كان يجذب أعدادا كبيرة من الزبائن، ينافسه في ذلك مطعم (بيتزا هت) ومطاعم عربية، مجاورة له ومقابلة لسينما (أوديون)، بوجباتها المشرقية المثيرة للشهية كالشاورما والفلافل والكبة والكشري، إضافة إلى مأكولات إنجليزية ومكسيكية وإيطالية وعالمية أخرى مثل الطبق الإنجليزي الشهير سمك وبطاطا المعروف باسم (فיש أند تشيس) والأرز المكسيكي والبيتزا وشتى أصناف الباستا والمعكرونة وأطباق الدجاج المقلي.

لا يكاد يصدّق أنّ هذه السّاحة أمامه كانت في يوم ما منطقة سكنية أقامت فيها شخصيات شهيرة ومؤثرة في مملكة بريطانيا العظمى

من أمثال فريدريك أمير ويلز في القرن الثامن عشر، قبل أن تتطوّر إلى مركز ترفيه بإقامة مسارح في القرن التاسع عشر، تمّ تحويلها في وقت لاحق إلى دور سينما، مثل أوديون التي تمّ تأسيسها عام ١٩٣٧ بعد هدم مسرح (ألهامبرا) الشهير عام ١٩٣٦.

من عمق أجواء تلك السّاحة الفسيحة، ومطاعمها المتنوعة، وأطباقها الشهية، مدّ بصره إلى الأفق. بدت له السّماء في تلك السّاعة زرقاء لامعة، تتخلّلها هنا وهناك في أديمها، سحبٌ بيضاء ناصعة متفرّقة. سُحبٌ بدت وكأنّها نُسُج قطن مبثوثة ينعكس عليها بريق أشعة الشمس الذهبية. لوحةٌ زيتيةٌ بدّية لاحت أمام ناظره في أفق هذه المدينة السّاحرة.. لوحةٌ متمزج فيها الألوان الزاهية، وتتناثر عليها أشعة الشمس الساطعة، كأنّها ذرات لؤلؤ لامعة.

لشد ما كان يفتقد مثل هذا المشهد الجميل في سماء هذه المدينة التي غالبا ما تكون، في مثل هذا الفصل، ملبّدة بغيوم حالكة كثيفة. وكثيرا ما ترذّ السماء لساعات طويلة بغير انقطاع، وكأنّها تذرف دموعا حزينة على أحيائها. كانت هذه الغيوم والأمطار والأجواء المكفهرة تبعث في نفسه الإحباط والتشاؤم والأسى في «الإمبراطورية» التي تقلصت رقعتها لتنحصر اليوم في جزر في عرض المحيط الأطلسي، تتعرض للتيارات الهوائية الباردة، وتغيب عنها الشمس!

ها هو يوم مشرق بشوش ليس كسائر الأيام يلوح في الأجواء من حوله، يقف فيه الفتى مشدوها يتأمل هذا الفضاء الساحر من فوقه بعينين حالمتين وذهن شارد. وما زال هائما في حلمه إلى أن أيقظه نداء أحد الزبائن:

«مرحبا. ممكن قطعة بيتزا؟»

صوتٌ يسحبه من حلمه ويعيده إلى مطعمه ويذكره بعمله ومهامه. وقع نظره على فتاة معتدلة القوام، ذات بشرة فاتحة، لها عيناں واسعتان خضراوان، ينسدل شعرها الأشقر بانسياب على كتفيها. بدت، من خلال ملامحها ولكتتها، أنَّها من أوروبا الشرقية.

«مرحبا.. أي واحدة؟»

«مارجريتًا من فضلك». قالت وهي تشير بيدها إلى الرف الأعلى بالواجهة.

«أكيد! تفضلي واجلسي! دعيني أسخنها لك!»

أدخل قطعة البيتزا في المايكرويف والتفت نحوها وقال:

«نبرة جميلة! دعيني أخمن! أتصور أنك من ألمانيا؟»

هزّت رأسها سلبا.

«لا، لكنك كنتَ قريبا! أنا من النمسا».

«النمسا؟!» صاح متعجبا. «واو! تصوري أنني، في هذا المكان السياحي في

قلب لندن، ألتقي يوميا بالألمانيين والإيطاليين واليابانيين وكل الأجناس التي

تخطر ببالك، لكن لم ألتق أحدا من النمسا لسبب ما!»

«ربما لأننا بلد صغير...». ردت بتواضع. «لسنا في حجم بلد مثل ألمانيا أو بريطانيا. وربما لأننا لا نحب السفر كثيرا مثل البريطانيين!»
وضع شفيق طبق البيتزا على المائدة أمامها.

«حق ما تقولين! البريطانيون يحبون السفر كثيرا! تجدينهم في كل البلدان، ويسيرون في بلدان كثيرة! سمعتُ أن أكثر من مليون بريطاني يقيمون في دول الاتحاد الأوروبي!...».

«ويوجدون بكثرة في النمسا أيضا». قالت موافقة.

أطلق الفتى ابتسامة وقال:

«أثناء الدراسة، كنتُ شغوفاً بمادة الجغرافيا.. بل كنت، من غير مبالغة، أفضل تلميذاً في الفصل.. كانت لي معارف واسعة عن خريطة العالم وبلدانها وعواصمها حتى قبل دراسة هذه المادة.. أعرف مثلاً أن للنمسا حدود مع ألمانيا والمجر، أليس كذلك؟»
هزّت رأسها بالإيجاب.

«هذا صحيح!»

«وأعلم أن (فيينا) هي العاصمة. وأعرف أن اللغة الرسمية هي الألمانية.. وأعرف حتى بعض الكلمات الألمانية!»

اتسعت حركات عينيها تعجباً عند سماعها ذلك.

«هل هذا صحيح؟! وماذا تستطيع أن تقول بالألمانية؟»

«Wir sind Freunde» (نحن أصدقاء)

«ممتاز! تتكلم الألمانية بلكنة فرنسية جميلة! ألأنك من فرنسا؟»

«بل لأنني من مستعمرة فرنسية سابقة...». واستطرد في كلامه: «أعرف

عبارة أخرى بالألمانية: Ich liebe dich ما معنى ذلك؟»

فردت الفتاة دون تفكير:

«أحبك».

فصاح:

«هل هذا صحيح؟! تحبينني؟!»

«لا، لا، لا! ليس كذلك! لقد خدعتني بهذه العبارة!» قالت وقد علت شفيتها ابتسامة تخفي شيئاً من الحرج، لتضيف بعد ذلك وقد أدركت مزاحه: «دمك خفيف.. من أي بلد أنت يا ترى؟»
«من الجزائر».

«الجزائر؟» رددت وهي تبدو مستغرقة في التفكير.

«نعم، في شمال أفريقيا.. لها حدود مع المغرب و..».

تلاً لأت عيناها عند سماع ذلك.

«أعرف المغرب!» قالت له في إثارة. «لكني لا أعرف الجزائر».

«سبق أن زرت المغرب إذا؟»

«كلا. إحدى صديقتي فعلت وحدثني عنه وعن تجاربها فيه ومع السكان. ذكرت أنّ الشباب هناك لم يتركوها في حالها حيثما ذهبت! كان الجميع ينظر إليها ويغازلها في كل مكان لأنها شقراء وحسنة! هم، على ما يبدو، مولعون بالفتيات الشقراوات!»

«هذا صحيح!» قال موافقا. «هكذا نحن في بلدان البحر المتوسط لا نقوى على مقاومة الجمال الأشقر! والعكس صحيح. أتصور أنها سُنّة الحياة، فعادة ما يبحث الإنسان في غيره عن صفات لا يملكها. فهذا أسمر يجذب نحو شقراء، وذاك أشقر نحو سمراء.. فلا عجب نشاهد شقراوات رفيقة رجال سود في وسط لندن! المجتمع، في تصوري، لم يعد يهتم بمثل هذه الاختلافات».

فأردفت قائلة:

«لندن مدينة عالمية نرى فيها كل الأجناس. الوضع مختلف في منطقتنا المحافظة بجنوب النمسا. نادرا ما نلتقي بأجانب».

انشغل شفيق بالنظر إلى الفتاة وهي تتحدث غير آبه بما كانت تقول عن بلدها، ثم قال بمزيج من المزاح والجد:

«ذكرت إنّ المغاربة يلاحقون النساء الشقراوات.. ماذا لو طاردتك لأنك شقراء وحسنا! أنسيت أنني من هناك أنا أيضا؟!»
«ماذا؟! تلاحقني؟!» ردت ضاحكة.

«ولمّ لا!« رد بمزيج من المزاح والجد. «لكن لا تخافي! لن أفعل ذلك لمغازلتك مثلما حصل لصديقتك بل للتعرف عليك، والتعرف على بلادك، وتبادل وجهات النظر معك! أنسيت أننا من ثقافتين مختلفتين؟ ما رأيك لو دعوتك إلى فنجان قهوة في أحد المحلات القريبة من هنا، بعد العمل؟»
انفرجت شفتا الفتاة عن ابتسامة أخفت شعورا بالخرج من اقتراحه المبالغت. قالت محاولة التملص من الموقف:

«من دواعي سروري. لكنني استأجرت غرفة في منزل أسرة محافظة في (هاي بارنت) بشمال لندن، ومن قواعد هذا المنزل أن أكون في البيت قبل الساعة العاشرة».

«لكنك لن تعودى إلى البيت في وقت متأخر». قال مطمئنا، وأضاف وهو يلقي نظرة على ساعته: «أنا أنهى عملي على الساعة الخامسة، أي بعد أقل من ثلاث ساعات من الآن. سأنتظرك! لن يستغرق اللقاء أكثر من نصف ساعة! بعدها أرافقك إلى محطة ليستر سكوير أو (بيكاديلي ساركس) القريبتين من هنا، لتوديعك!«...»

حان أخيراً موعد الانصراف من العمل، فودّع شفيق زميله حسن، وهو لاجئ من إريتريا وأحد أقدم الموظفين في هذا المطعم. وقد كان يتقن عدة لغات مثل التغرينية والأمهرية إضافة إلى العربية التي كان يتواصل بها مع شفيق وأصحاب المطعم.

كانت الشمس آنذاك قد غربت وتلاشى في الأفق الشفق الأحمر، وأسدل الليل ستاره على أرجاء المدينة، فاكتمت الأضواء العمومية أرجاء ساحة ليستر سكوير. لكن هذه الأضواء الكثيرة والمتعددة الأشكال والألوان التي أبدع الإنسان في تصميمها لن تعوّض أبداً نور الشمس الطبيعي الذي كان قبيل ساعات ساطعاً أمامه في الأفق. لشد ما صار يفتقد شمس الأوطان في هذه الجزر البعيدة الباردة. فبعد سنوات طويلة في ديار الغربة، صار حنينه إلى الشمس داءً أليماً يثخنه يوماً بعد يوم، لا يضاهيه قساوة إلاّ الحنين إلى الأهل والوطن.

كان يشاهد توقعات الأحوال الجوية بانتظام في شاشة (البي بي سي) متطلعا إلى خبر بزوغ هذه الشمس في سماء المدينة.. هذه الشمس التي لا تطل على هذه الجزر إلاّ قليلاً كما لو كانت تخجل من البروز في سمائها، أو لعلها كانت تبخل عليها بضياءها ودفئها. لشدّ ما كان يسرّ بزيارتها، ويشجن لغيابها الذي كان أحياناً يمتد لأيام طويلة، بل ولأسابيع - في أحيان كثيرة - يشعر فيها كما لو كان مقيّداً في سجن مظلم. لكنه الليلة على غير العادة، لن يشتاق إلى تلك الشمس! ولأول مرة، لن يفكر في تلك الشمس! لقد أدرك

الآن أن تلك الشمس لا تستحق كل هذا الاهتمام، فهي ليست كل شيء في الكون، ولا أعظم شيء في الوجود، مثلما كان يتوهم. لو كانت الشمس عظيمة لما استطاعت أن تحجبها عنه الغيوم! ولو كانت قوية لما أخفى نورها الظلام! لا، لا، ليست هذه هي الشمس التي تستحق المباركة والتقديس، وهل يستحق التعظيم والإجلال ما كان ضعيفا في الكون؟! ها هي شمس أخرى لا يقوى على مقاومتها غيمٌ، ولا ظلام، ولا شيء آخر تطل عليه في تلك الليلة الباردة فتبعث الدفء في جسده، والراحة في نفسه! شمس تشعُ ضياءً وبهاءً تلوح أمامه، فيقف أمامها متسمرا، مشدوها، منبها، لا يدري إن كان في حلم أم واقع! ها هي الفتاة النمساوية تعود للقاءه مع أنها بدت في المساء حائرة مترددة غير متحمسة لذلك! وكانت قد ودعته بعد الأكل وانصرفت ولم تعده بشيء!

سارا في ساحة ليستر سكوير التي كانت في تلك الساعة تعج بالمارة، وتنبض بالحياة كعادتها في الليل. وكانت ألعاب الملاهي المتنقلة، التي اعتادت أن تزور هذه المدينة في شهر ديسمبر من كل عام بمناسبة أعياد نهاية السنة، تحتل جانبا من هذه الساحة، بمُعدَّاتها العملاقة. وكانت تفتح أبوابها في المساء لاستقبال أعداد غفيرة من الجماهير، وتستمر إلى ما يقارب منتصف الليل.

التفت نحوها وهما يبتعدان عن المطعم وقال مقترحا:

«ما رأيك لو ذهبنا إلى مقهى بالقرب من ميدان بيكاديلي ساركس؟»

فردت وطيء من الارتياح يغمر ملامحها:

«أوكي، لستُ أمانع».

فاستدرك قائلاً:

«لكن قبل ذلك تعالي نجرب لعبة! لدي بعض التذاكر المجانية! إنها فرصة جميلة!»

سار بها نحو الألعاب، وسألها وهو يشير بيده إلى الأرجوحة المثيرة التي كانت تتأرجح في الهواء كالسفينة الهائمة بين الأمواج العاتية في غمرة العاصفة الهوجاء:

«ما رأيك؟»

فردت مترددة:

«هل نحتاج حقاً إلى الركوب؟!..».

وسحبها بلطف من ذراعها وقال بحزم محاولاً تبديد مخاوفها:

«تعالي معي ولا تخافي! ثقي بي! هذه مجرد لعبة للمتعة! انظري إلى كل هؤلاء الناس! لا أحد أفضل منا!»

جلست في الأخير إلى جانبه وهي تبدو مترددة وفي ضيق من أمرها، نادمة على قرارها. ولما رأت في عينيه نظرة تعجب واستغراب، قبيل انطلاق الأرجوحة بلحظات قليلة، قالت مطلقة ابتسامة، محاولة التظاهر بضبط النفس واللامبالاة:

«آخر مرة ركبت فيها أرجوحة كهذه كانت قبل نحو سنتين في حديقة براتر للملاهي بفيينا رفقة صديقتي.. ولم تكن أرجوحة صغيرة كهذه.. ربما ضعف حجم هذه الأرجوحة.. كانت لحظات مثيرة لا تنسى حقاً استمتعنا بها جميعاً، ولم نشعر فيها بالخوف!»

وانطلقت الأرجوحة واعتلت في سماء الساحة، وتعالّت معها صيحات
الإثارة والذعر من ركبائها. وراح شفيق يرسل بصره إلى الأسفل متأملاً
الأجواء الليلية الساحرة حيناً، وإلى الفتاة النمساوية أحياناً متطلّعا، من باب
الفضول، إلى مشاهدة ردّة فعلها واختبار شجاعته وهي على متن هذه الآلة
العظيمة المتحركة في الهواء.

كان آنذاك يبدو هادئاً رزيناً غير متأثرٍ بالدورات الحلزونية المفزعة التي
كانت تملأ الأجواء من حوله صراخاً وصخباً. يستمتع بتلك اللحظات كما
تستمتع الطيور المتحررة من الأسر وهي ترفرف بأجنحتها الطليقة محلقة
عالياً في الفضاء بعيداً عن دنيا البشر.

كان متعوداً على هذه الألعاب، وهذه اللعبة بالذات، وفي هذا المكان
بالذات. فقد كان أحد موظفي هذه الحديقة، من أصل اسكتلندي، زبونا دائماً
يتردد على مطعمه بانتظام. وهكذا، نمت صداقة طيبة بينهما. صار يُحضر له
تذاكر ألعاب مجانية، ولردّ الجميل، كان شفيق من حين إلى آخر يتكرّم عليه
بفنجان قهوة أو كابتشينو، ليس من جيبه وإنما على حساب المحل وأصحابه.
كان يستخدم هذه التذاكر غالباً بعد أوقات العمل حيث كان يتوقف في
الحديقة في طريقه إلى البيت، فيركب وحيداً لا يقاسمه الإثارة والمتعة إلاّ
ركابٌ غرباء، وها هو الليلة على غير العادة يستمتع بها رفقة فتاة من النمسا.

نظر إليها بينما كانت الأرجوحة تهتز بقوة وتدور بأقصى سرعة في
الهواء، فراها منكمشة على نفسها، مطأطئة الرأس، مغمضة العينين، وأشباح
الذعر تطاردها، منتظرة على أحر من الجمر نهاية هذه المغامرة القاسية التي
أوقعها فيها!

كانت ألعاب الملاهي المتنقلة في ميدان ليستر سكوير تثير كل الأنظار بأصواتها الملونة المترافقة، وأصوات عرباتها المتحركة، وأصوات المتنزهين المتعالية وصيحاتهم المدوية في الأجواء. فكانت تحجب صوتاً جميلاً ينبعث من الجهة المقابلة للساحة بالقرب من مطعم (هاجن داز) المتخصص في الثلجات والحلويات، على بعد أمتار من حديقة الملاهي هذه.

اقترب شفيق والفتاة من المكان، فشهدا شابة سوداء تقف أمام المكروفون تردد أنغام المغنية الأمريكية (ويتني هيوستن) بصوت هادر مؤثر، يحتشد حولها جموع من المارة، وتحفُّ بها الأنظار. وتتعالى كلمات أغنية I Will Always Love You

(سأحبك دائماً)

«إذا بقيتُ،

فإنني سأعرض فقط طريقك.

لذلك سأرحل ولكني أعلم،

أني سأفكر فيك في كل خطوة في الطريق،

وأني سأحبك دومًا،

سأحبك دائمًا،

أنت، حبيبي..

ذكريات حلوة ومرة،

هذا كل ما أخذه معي.

إذا إلى اللقاء.

فأرجوك لا تبكي،

كلانا يعلم أنني لا أُلبي حاجتك».

على تلك الأنغام الجميلة، اختلس نظرة إلى الفتاة الغريبة الواقفة بجانبه، وإذا ببصره يعلق بها وبحسنها، ويعجز عن مفارقتها. كان آنذاك وجهها الرقيق يبدو تائها بين أمواج الأنغام المتعالية في الأجواء، وشعرها الناعم الطويل يتلألأ تحت نور المصابيح المحيطة بها.

وسرعان ما شعرت به. التفتت نحوه، فالتقت عيناها الخضراوان اللامعان بعينيه البنيتين. صاحت وقد أشرقت بين شفتيها ابتسامة أضفت على وجهها مزيدا من البهاء والسحر:

«أغنية جميلة! تذكرني بفيلم The Bodyguard الذي شاهدته السنة الماضية. أنا معجبة بشخصية المغنية (ويتني هيوستن) القوية. ويتني امرأة متعددة المواهب، تتألق في الغناء وتحسن التمثيل!»

«ومعروفة بصوتها المميز!» قال موافقا. «لا أتصور ثمة صوت آخر في العالم بهذه القوة والعذوبة. الفيلم! أنا أيضا شاهدته! فيلم ممتاز بطولة الممثل الرائع كيفين كوستنر!»
وصاح مطلقاً ابتسامة:

«أنا في الواقع معجب بكيفين كوستنر أكثر من ويني! تعجبني كثيرا شخصيته الرزينة، الهادئة!»
«لكن، كلمات الأغنية حزينة جدا!»

«أجل! لأنها عن الفراق! أنا لا أحب أن أقول وداعا! ولا أفهم لماذا يجمعنا القدر بأشخاص ثم يبعدنا عنهم!»
فقال بالفرنسية:

«أتصور إنها الحياة c'est la vie»

«إنها الحياة!» مثلما قالت الفتاة النمساوية. وهذه الحياة هي التي شاءت اليوم أن يتعرّف عليها، ويقف في هذا المكان بجانبها يتابع هذه الكلمات المعبرة، والأنغام الساحرة بصوت عذب مؤثر يتردد صداه في كامل أرجاء ساحة ليستر سكوير.

ها هما الآن ينصرفان من الميدان ويمضيان في طريقهما باتجاه حي شافتسبري أفنيو المجاور ويدخلان مقهى (راين فوريسست).
ضحك وقال لها وهو يرتشف قهوة إسبريسو:

«لا أصدق أنني بعد كل هذا الوقت الذي أمضيته معك اليوم، لم أشرف بعد بمعرفة اسمك!»

فضحكت وقالت وهي تمسك فنجان قهوة من نوع لاتيه عريض بين يديها:

«هذا صحيح! لم انتبه! أعتقد أننا انشغلنا عن ذلك باللعب والاستمتاع بالموسيقى! اسمي (أنجلينا)».

«اسم جميل!»

«شكرا!»

«وأنا شفيق».

جلّى ببصره في أنحاء المقهى الأنيق المزدهم بالزبائن وأضاف مبتسما:
«المقهى مزدهم مثلما ترين لأنه يقع في أحد أفخم الأحياء وأكثرها حركة في المدينة. لكن، أرجو أن يكون قد أعجبك رغم ازدحامه!»
«أكيد! لا بد أن أقول إن المكان في منتهى الأناقة!» قالت دون تردد.
«لكن، بصراحة لم تعجبني القهوة!»

«آسف لسماع ذلك!» قال لها وهو يبدو منشغل البال. «لماذا لا تطلبين كابوتشينو أو شيئا آخر، بدلا من ذلك؟!»
«لا، شكرا.. كل ما في الأمر أنني لا أشرب القهوة كثيرا.. وهذه القهوة بالذات أجدها قوية للغاية.. أفضل الشاي..».

«سأطلب لك الشاي! الشاي باللبن على الطريقة الإنجليزية؟»
«أبدا! جربت ذلك بعد وصولي إلى إنجلترا، وبالضبط في المنزل الذي أقيم فيه في شمال لندن، فشعرت بالغثيان!»
«آسف لسماع ذلك! وهل جربت الطريقة الجزائرية؟»
«الطريقة الجزائرية؟!»
«أجل، أقصد الشاي بالنعناع؟»

«لا أبدا! لكن أعتقد أنني شاهدت شيئا مماثلا في التلفزيون.. في برنامج رحلات.. ربما عن المغرب أو تركيا.. لست متأكدة. لكن، يسعدني طبعاً أن أجربه إن كان متوفراً».

«للأسف ليس متوفراً في مقهى من هذا الطراز. جل الزبائن هنا كما تشاهدون أوروبيون...»

وأضاف:

«نحتاج إلى الذهاب إلى محل عربي. لدي فكرة جيدة أرجو أن تعجبك! ما رأيك لو دعوتك إلى شرب فنجان شاي بالنعناع في مكان آخر في الطريق قبل أن نفترق؟ لن يأخذ كثيراً من وقتك! كم بقي لديك من وقت؟».

وخرجنا من المقهى بعد أن أقنعها باقتراحه، وسارا باتجاه محطة مترو بيكاديلي ساركس. قال لها وهما يدخلان المحطة وسط زحام كبير في هذه الساعة:

«المكان قريب.. مجرد محطتين.. لا تقلقي فيما يخص رجوعك إلى البيت، فأنا سأرافقك إلى المحطة من هناك».

وحين خرجنا من محطة (بيكر ستريت)، سار بها إلى شارع (يورك تارس) القريب من حديقة (ريجننت بارك)، على بعد خمس دقائق من المحطة. وأخذها إلى إحدى العمارات الفخمة في ذلك الحي، وصعد بها إلى الأعلى. سألتها بحيرة وهو يخرج المفاتيح من جيبه:

«أين نحن؟!»

فتح الباب والتفت نحوها وقال مبتسماً:

«هذه شقتي. إنها مفاجأتي لك. تفضلي، مرحبا بك في بيتك.. نشرب الشاي ثم أصبحك إلى المحطة».

جلست أنجلينا في الصالون ومضى شفيق إلى المطبخ ليعود بعد ذلك يحمل بين يديه صينية عليها إبريق نحاسي وسكرية وفنجانين ورزمة نعناع وصحن عليه حلوى قلب اللوز.

قالت له وهي ترتشف المشروب:

«طعم جميل! ألد مما كنت أتوقع!»

«جربيه مرتين أو ثلاث وسترين!» قال لها بثقة. «ستدمنين شربه لا محالة!»

«أفضل بكثير من قهوة اللاتي التي حاولت أن أرغم نفسي على شربها في المقهى».

ونظرت حولها بإعجاب ثم تابعت:

«شقة جميلة! وفي مكان فخم في لندن!»

فرد مؤكداً وهو يضع الفنجان على الطاولة:

«حق ما قلت.. فهذا الحي، مثلما شاهدت، قريب من محطة بيكر ستريت المعروفة في لندن، وعلى بعد أمتار قليلة من متحف الشمع (مدام توسو) الشهير».

وقام من مجلسه واقترب من النافذة العريضة وأزاح ستائرهما السمكية قائلاً:

«أروع ما في هذا المكان أنه يجمع بين عالمين متناقضين. فهو يقع

بين شوارع مزدحمة وصاخبة من جهة، وحديقة خلابة وهادئة من جهة

أخرى، تطل عليها هذه الشقة.. إنها حديقة ريجنت بارك الشهيرة. وهي

خلف المباني المقابلة مباشرة!»

التحقت به الفتاة ووقفت بجانبه ومدت بصرها إلى الخارج والفضول يغمر عينيها.

«الحديقة خلف تلك المباني مباشرة. للأسف لا يمكنك مشاهدتها في هذه الساعة بسبب الظلام. المشهد مختلف تماما في النهار».

وانصرف بصره عن ظلمة الحديقة المقابلة إلى النور الساطع في وجه هذه الفتاة الواقفة بجانبه.

اعتلت شفيتها ابتسامة ملتوية خفيفة عندما التفتت نحوه فرأته ينظر إليها نظرة إعجاب أشعرتها بشيء من الحرج. وسرعان ما ازداد شعورها بالحرج حينما مدّ يده ولمس شعرها الطويل الناعم المناسب على كتفها وقال بصوت خافت:

«ما أجملك أنجلينا!»

«ماذا؟!» صاحت الفتاة متعجبة.

شفيق، الهائم في فيفاء جمالها وسحرها، لم ينبس هذه المرة. أمسكها من ذراعيها وجذبها نحوه وطبع قبلة على شفيتها دون اعتراض منها كما لو أنّ قبلته شلّت حركتها. ومن ثم، نطقت عيناها بالدهشة من سلوكه.

«لماذا قبلتني هكذا؟!» سأله بصوت متهدج. فردّ وهو يفك نفسه عنها قليلا:

«لست أدري! أنا آسف! ربما لأنني لم أستطع مقاومتك!»

ورمقها ببصره ثم تابع وهو يمد يديه فيلمس وجنتيها برقة ولطف:

«كم أنت جميلة أنجلينا! كم أنت ساحرة! كيف لرجل مثلي أن يقاوم مثل

هذا الجمال والسحر؟!»

لم تنبس بكلمة هذه المرة. لاحت في عينيها نظرة تنم عن حيرة وارتباك، وعجز لسانها عن النطق. فدنا منها وعانقها وانقضت شفتاه على شفيتها الرقيقتين بلهفة، فشعر باستلامها وتجاوبها مع قبالاته هذه المرة. وكأنّ بركانا ماء، ظلّ في سبات منذ الأزل، انفجر بغتة في أعماقه، تتقاذف من فوهته بشرارة حمم الحرارة والإثارة بغير انقطاع، تضرم ألسنتها الملتهبة محركات جسده، وتبثّ في نفسه قوة و طاقة وبأسا. حملها بين ذراعيه وأجلسها برفق على طرف الطاولة غير آبه بما عليها من أوان، ولا بالضجيج الذي كان يحدثه دفع هذه الأواني ووقوع بعضها على الأرض. ومدّ يديه إلى أسفل الفستان وسحب بهدوء نحو الأعلى، وفتح رجليها برفق متسللا بينهما وشفثاه ملتصقتان بشفتيها. ثم نزلتا فلمستا رقبتهما، ثم نزلتا إلى أخدود صدرها، فراح يداعب ثدييها الناهدين ويقبلهما. ومدّ يديه إلى فخذيهما المليئين متحسسا ما بينهما، فازدادت حرارته لهما، وقلبه خفقانا.

في تلك اللحظة الساخنة، كما لو كان في غير وعيه، فكّ مشبك حزامه منزلا سرواله بيده اليمنى، وأزاح لباسها الداخلي المرن جانبا، فالتحم جسده بجسدها الفاتن بقوة وحرارة وانصهر معه في حلم عذب مثير، لم يكن يرغب في الاستفاقة منه أبدا. لكنّ حلمه هذا لم يدم طويلا. فقد صحا بغتة وفكّ نفسه من الفتاة كما لو كان قد استعاد فجأة وعيه المفقود، وأيقظها هي أيضا من غفوتها وغفلتها. آنذاك، رمقته ببصرها وهي تبدو مرتبكة، حائرة، تحاول جمع خيوط أفكارها المبعثرة.

«ماذا فعلنا الآن؟!» صاحت وهي تحاول التقاط أنفاسها.

«لا أدري! لكنه كان جميلاً!» ردّ في شيء من الارتباك حاول إخفاءه بمزاح، وهو يعجلّ بترتيب ثيابه:

«أنا لست أمزح! لا أصدق أننا...».

«ولا أنا!» قال مقاطعاً. «لكنني آسف! آسف حقاً! لم أقو على ضبط نفسي أمام جمالك!»

رمقته ببصرها وهي تبدو حائرة، ثم ألقت نظرة سريعة على ساعتها، وقالت باستياء:

«حسناً، لابد أن أنصرف الآن!»

وارتدت معطفها وحملت محفظتها واتجهت نحو الباب. فالتقط سترته وركض خلفها وهو يصيح:

«انتظري قليلاً سأخرج معك! وعدتك بمرافقتك إلى المحطة! أنسيّت؟!»

سار معها في اتجاه محطة بيكر ستريت في صمت وأمارات الضيق والتوتر بادية عليهما كما لو كانا قد خرجا من شجار. وحدجها بنظرة شفقة وهما يقتربان من المحطة وقال في صوت خافت متأثر:

«آسف أنجلينا! لقد حصل ما حصل بسرعة فائقة وفي لحظة لا وعي! وكأنه حلم وليس حقيقة! أعترف أنني أخطأت لأنني لم أسيطر على نفسي! وأعلم أنني أخطأت قبل ذلك لأنني أخذتك إلى شقتي! لكنني حقيقة آسف!»

«ليس خطأك وحدك!» ردت في صوت حزين. «لا بد لي أن أعاتب نفسي أنا أيضا! أنا لست صبية! لست أدري كيف سمحت لنفسي بمرافقتك إلى بيتك في المقام الأول! لكن نتعلم من الأخطاء.. لا أتصور أنني سأرتكب خطأ مماثلا ثانية في حياتي!»

فقال لها متوسلا:

«لكن أرجوك! لا تدعي ما حصل يدمر كل شيء بيننا! كنتُ سألتبس صداقتك! أحتاج صداقتك! مجرد صداقة، أنجلينا! أرجوك!»
وأمسكها من ذراعها وهي تتأهب للمغادرة في صمت والاستياء بادٍ عليها:
«أرجوك أنجلينا! متى أراك ثانية؟!»

التفتت نحوه وقد لاحت في عينيها الشاردتين نظرة حيرة.
«أتصور قد فات الأوان. سأعود إلى النمسا غدا مساءً.»
«أرجوك أنجلينا! لا أريد أكثر من صداقتك! ولو من بعيد!»
«قد أعود إلى لندن بعد أعياد نهاية السنة.. لكن لست متأكدة.. أعطيني رقم هاتفك!»

سجلت أنجلينا رقمه في دفترها. ثم مزقت من دفترها وريقة قدمتها له قائلة:
«وهذا رقمي. لا بد أن انصرف الآن! فقد تأخرت!»
تلاّأت عينا شفيق وهو يشاهد رقمها.
«أترقب اتصالك قريبا أنجلينا! لا تتأخري، أرجوك!»
فردت دون أن تلتفت خلفها:

«لا أعدك بشيء! ليلة سعيدة!...»

وما لبثت أن توارت خلف بوابات المحطة.

قفّل إلى البيت، بعد ذلك، وقد لاح أمامه في الأفق الأسود الحالِك
بريق أملٍ وتفاؤلٍ بتجدد الاتصال مع هذه الفتاة التي جذبت انتباهه، وأثارت
غريزته، وحرّكت إلى هذه الدرجة مشاعره.

رحلت أنجلينا وبقي أثر اللقاء عالقا في وجدانه مع أن لقاءها لم يدم في الواقع إلا ساعات قليلة. لم تكن أنجلينا أول فتاة التقى بها في هذا المطعم الواقع في ميدانٍ يُعَدُّ قِبْلَةً للسياح من شتى أنحاء العالم، ولا أول فتاة سار معها في شوارع المدينة المزدهمة الصاخبة أو في حدائقها الرحبة الهادئة، ولا أول فتاة دخلت بيته.

آخر تجربة له في هذه المدينة، وفي هذا الميدان بالذات، وهذا المطعم الذي يشتغل فيه، حصلت قبل أقل من خمسة أشهر مع فتاة إنجليزية اسمها (شارون). كانت هذه الفتاة تعمل في سينما أوديون المجاورة لكن أسرتها كانت تعيش في مدينة (برايتون) جنوب إنجلترا. فكانت تقيم في بيت عمته في لندن أيام العمل، وتساfer إلى برايتون لقضاء نهاية الأسبوع رفقة أهلها. وكانت تختلف إلى المطعم الذي يشتغل فيه شقيق تقريبا يوميا، للغداء، ما سمح له بالتعرف عليها.

و ذات يوم، أتت للقاءه وهي تبدو متوترة، وأبلغته بخلاف نشب بينها وبين عمته، وأبلغته بعدم رغبتها في العودة إلى ذلك البيت الذي صارت تشعر فيه بضيق وضغط شديدين. فوقف شقيق بجانبها وفتح لها بيته وألح عليها من باب الضيافة وحسن الكرم كي تنعم بالنوم في

سريره الكبير الوثير بينما ينام هو في فراش صغير غير مريح على الأرض بجوار سريره الكبير. واتفقا على ذلك في آخر الأمر. ولم يدم اتفاق الهدنة هذا طويلا، فبعد دقائق من إطفاء النور وبينما كان مستلقيا على ظهره مستغرقا في التفكير والحلم، شعر بها تنزل من السرير ببطء وتدنو من مكانه في صمت وتتسلل إلى فراشه. حينئذ خطر بباله أن يدعي أنه نائم ليرى ما كانت ترغب في فعله. فكانت المفاجأة كبيرة. قامت الفتاة بسحب سرواله بحذر، وراحت تقبله وتمصّه برفق وهدوء في بداية الأمر، وبعدها بحرارة ونهم. وراحت بعد ذلك تجلس فوقه بجسد عارٍ ناعم يحترق ظلماً لجسده.

منذ تلك الليلة، صارا يتقاسمان ذلك السرير، يصرفان فيه شطرا من الليل في الحديث واللعب والمتعة، إلى أن رحلت عنه يوما، بعد أن عثرت على عمل أعلى أجرا في مرفق سياحي بالقرب من أسرتها في برايتون.

كانت نقطة ضعفه عدم قدرته على مقاومة الجنس اللطيف. والأسوأ من ذلك، بل والأخطر من ذلك، عدم قدرته على استعمال عوازل ذكرية، أو ربما عدم رغبته في ذلك، مع أنه كان مطلعا على الأمراض المنقولة جنسيا وفي مقدمتها مرض فقدان المناعة (الإيدز) الذي حصده ملايين البشر في بريطانيا والعالم ومنهم المغني الشهير (فريدي ميركوري) نجم فرقة الروك الإنجليزية (كوين) الذي ودع الحياة في شهر نوفمبر ١٩٩١، وهي السنة التي وصل فيها شفيق إلى بريطانيا.

شفيق وقع في حب أغاني فرقة كوين بعد وصوله إلى إنجلترا وإصغائه
بإمعان إلى كلماتها وفهم معانيها. ولشدّ ما تأثّر بأغنية (بوهيميان رابسودي)
وكلماتها المعبرة التي كتبها فريدي ميركوري نفسه وهو مريض، قبل وفاته:

«هل هذه هي الحياة الحقيقية؟

أم هذا مجرد خيال؟

علقت في الطمي

لا مجال للهروب من الواقع

افتح عينيك

انظر إلى السموات ورّ

أنا مجرد صبي مسكين، لست في حاجة إلى تعاطفك

لأنني لا أكرث بأي شيء

مرتفع قليلا، منخفض قليلا...

على أي حال لقد هبت الرياح، حقيقة لا شيء يهمني!

ماما، لقد قتلت رجلا

وضعت مسدسي برأسه

وسحبت الزناد، فمات

ماما، حياتي بدأت لتوها

ولكنني رميت كل شيء أدراج الرياح

ماما، آآه

لم أقصد أن أبكيك

إذا لم أعد مجددا في مثل هذا الوقت غدا

أكملي، أكملني وكأن شيئا لم يكن!

لقد فات الأوان، حان وقتي

بدأ يشعّر أسفل عمودي الفقري

جسدي يؤلمني

وداعا جميعا، علي أن أرحل

عليّ أن أترككم جميعا وأواجه الحقيقة

ماما آآآه

لا أريد أن أموت

يا ليتني لم أولد أصلا!

أرى بقايا رجل

سكاراموش سكاراموش ألا تؤدي رقصة الفاندانغو

صواعق وبرق يخيفني جدا جدا...».

شفيق تابع بحزن مأساة فريدي ميركوري إلى آخر يوم من عمره حتى أنه بقي يذكر اليوم الذي فارق فيه الحياة! كان ذلك في لندن في يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٩١. وكم كان ذلك اليوم تعيسا! تابع فيه بتأثر - رفقة عشرات الملايين

من البريطانيين - مراسيم جنازته على أمواج المحطات الإذاعية الإنجليزية وشاشة (البي بي سي).

فريدي ميركوري لم يكن يرغب في الموت، مثلما قال في قصيدته - قصيدة الوداع التي عبّر من خلالها عن أفكاره وعواطفه قبيل وفاته - لكنه كان يدرك أنّ الأمر أقوى من إرادته. ولما رأى أنه محكوم عليه بالرحيل عن الحياة، تمنى لو أنه لم يولد ولم يأتِ إلى هذه الحياة! تجربة فريدي ميركوري الشجاع علّمت شفيق أنّ الإنسان بطبيعته لا يملك القدرة على اختيار وجوده ومصيره، لكنّه مع ذلك قادر بفضل عقله وإرادته وشجاعته على مواجهة الواقع والصمود إلى آخر لحظة في عمره!

الإنسان، هذا الكائن الضعيف بجسده والقوي بعقله، وجد نفسه وحيدا في الطبيعة، على سطح كوكب لم يختره. ومع ذلك استطاع بفضل عقله وحكمته وإرادته وشجاعته وصبره، أن يصمد في وجه الطبيعة والعواصف والأعاصير ليواصل رحلته الشاقة الخطيرة الطويلة التي بدأها قبل نحو مائتي ألف سنة!

رحل فريدي ميركوري بعد أن واجه واقعه المؤلم بشجاعة وصمود إلى آخر نبض في عروقه، داعيا أحببته إلى مواصلة المشوار من غيره، وكأن شيئا لم يكن، مثلما قال!

رحيل فريدي ميركوري وكثير من الأشقياء المصابين بهذا الداء الخطير، في مثل هذه الظروف القاسية، دفعه إلى اتخاذ ما أمكنه من احتياطات للوقاية منه. فلم يكن يتأخّر عن شراء علب العوازل والاحتفاظ بها في بيته. لكنه،

قلما كان يستخدمها في علاقاته الجنسية! دخل يوما بيته رفقة فتاة بولندية وقد عقد العزم على عدم ارتكاب خطأ هذه المرة. فعجل بارتداء عازل منذ البداية، لكنّه في وقت من الأوقات، في غمرة الحرارة والإثارة، سحبه وقذفه في أي اتجاه مستغرقا في متعته كما لو كان مخمورا. وفي وقت لاحق، وبعد مغادرة الفتاة، أدرك حجم خطئه وشعر بالندم.

كان يشعر أن الإنسان لن يحسن التعبير عن أفكاره إلاّ إذا تحرّر من الحواجز الاجتماعية المحيطة به. ولن يحسن التعبير عن قدراته الجنسية إلاّ إذا تحرّر من كل العوازل والموانع، فيحلّق في سماء المتعة الواسعة كما تحلق الطيور الطليقة في الهواء. كان ينظر إلى تلك العوازل كما لو كانت حواجزا تمنعه من تفجير كل طاقاته الغريزية وكشف مهاراته الجنسية وبلوغ أقصى درجات المتعة. وإن كان يرى ذلك بمشاعره وغرائزه، كان عقله يصوّر له واقعا مختلفا مريعا وينذره بالعواقب ويعاتبه على الذنوب. فبعد كل تجربة، كان يشعر بتأنيب الضمير والقلق والخوف من الإصابة بهذا المرض الذي لا دواء له. فهذه الفتاة التي استسلمت له في أول لقاء من غير مقاومة ولم تمنع عندما نزع الواقي الذكري، كما لو لم يكن يعينها، تكون قد فعلت مثل ذلك مع رجال قبله وستفعل ذلك مع غيره! وما الذي يمنعها عن ذلك؟! فالخطر بذلك وارد! كانت مثل هذه الهواجس تتناه وتطير النوم من عينه. وتظل حاله كذلك حتى يجري تحاليل الكشف عن فيروس الإيدز في أحد المخابر اللندنية، وتكون نتيجة التحليل سلبية، فيطمئن خاطره. أجرى آخر هذه الاختبارات بعد رحيل شارون عن بيته وعودتها إلى برايتون.

ومع كل ذلك، لم يكن يتعلم من أخطائه الماضية المتكررة. فما قد ارتكب خطأ آخر مع فتاة من النمسا تزور لندن، لا يعرف عنها وعن حياتها الخاصة وعلاقاتها الماضية شيئاً!

رحلت أنجلينا وتركت خلفها وحيداً حائراً تائها تتلاطم أمواج الهواجس في مخيلته فتعكر صفو حياته. لكنه شيئاً فشيئاً انشغل بالتفكير في موعد زيارة شخص عزيز عليه يصل إلى لندن خلال أيام قليلة. إنها والدته الحنون التي لم يرها منذ خمس سنوات.

لشد ما تعذب في الأشهر الأولى له في المملكة المتحدة بعيداً عن أهله ووطنه. كان فؤاده يتمزق حيناً إلى أسرته لا سيما والدته التي كانت تعدّه فلذة كبدها وكم تعذبت هي الأخرى لرحيله عنها.

وكانت نفسه تتقطع حسرة وألماً لما ألمَّ بوطنه بعد رحيله. لم يكد يغادر الجزائر حتى انجرف هذا الوطن المجيد في أحوال حرب أهلية رهيبة أتت على الأخضر واليابس، وزجت بالشعب في نفق مظلم دامس، لا يُعرف آخره.. حرب دموية فرقت أفراد الأسرة الواحدة، وحملت آلاف المواطنين على مغادرة الوطن، لا لأجل حياة أفضل وإنما لأجل الحياة نفسها، بعدما انتابت أرض بلادهم أشباح الموت وعاثت فيها فساداً. تدفق هؤلاء النازحون، كالأمواج، على الضفة المقابلة للبحر المتوسط، ومنها توافدوا على بلدان أخرى بعيدة، ومنها الجزر البريطانية.

وبعدما كانت شوارع لندن تبدو خالية من بني جلدته، صار يشاهد بعضهم في أزقتها وأحيائها، تلو وجههم أمارات الألم والحزن والضياع.

كانوا كالأشجار التي تُقتلع من بيئة وتنقل إلى بيئة جديدة بعيدة، فيكون مصيرها الذبول وتساقط الأوراق بأسا ويأسا. تصارع هذه الأشجار لأجل الحياة وقد لا تقوى على البقاء في تراب غير ترابها، ومناخ غير مناخها. لقد أدرك الآن في غمرة ألمه وحزنه أنّ الفرار عن الأوطان في وقت المحنة واللجوء إلى أوطان أخرى لأجل الأمن لا يقينا بالضرورة شرّ هذه المحنة التي يتخبط فيها أهلنا، فنحن سنعود لا محالة إلى أوطاننا بوجداننا، وسنعيش مأساتها بقلوبنا وعقولنا، وسنفزع ونتعذّب ونحزن مثل أهلنا، فما يلمّ بهم يلمّ بنا، حتى وإن كانوا بعيدين عنا، فنحن منهم وهم منا. ونحن في ذلك أشبه بهذه الطيور التي ترحل عن أوكارها عندما تنقطع سبل الحياة فيها، وتقطع مسافات بعيدة لأجل الحياة. ثم تعود إلى تلك الديار عندما تعود إليها الحياة ثانية.

تألم الفتى طويلا لفراق أهله ووطنه، فصار ينظر إلى هذا الألم الذي يمزق كيانه كما لو كان ورما خبيثا ما برح ينمو في ذاته ويتطوّر ويستفحل شرّه ويقتله مثلما يقتل السرطان ملايين البشر إن لم يكتشفه الإنسان مبكرا ولم يقيم بعلاجه.

كان عليه أن يقطع هذا الورم قبل أن يكبر ويتطوّر، مثلما يقطع الجراح ورم السرطان قبل استفحاله. ولما أدرك، لسوء حظه، أن هذا الورم قد استشرى في خاطره، وأتلف قسما كبيرا من مشاعره، كان عليه أن يقوى على قتلها جميعا! ولما أدرك أنّ المشاعر تُقتل بحقنة النسيان واللامبالاة، أخذ من

ذلك جرعة مفرطة، فكفّ عن مشاهدة ما يحصل في بلاده، والاتصال بأهله
مثلما كان يفعل من قبل، وانشغل بعمله وبناء ذاته، وانجرف في سبيل الحياة
السريعة في بريطانيا، والتهى بعلاقات قصيرة مع فتيات من أجناس مختلفة.
واليوم وبعد سنوات طويلة، ها قد وصلت والدته إلى لندن لزيارته بعد
فراق بارد قاسٍ قساوة مناخ الجزر البريطانية، تجمّدت في ظلّه على مرّ الأيام
عواطفه.

لكنّ مشاهدة وجه والدته في المحطة الجوية ٢ لمطار (هيثرو) الدولي
بعد هذا الغياب الطويل أذاب شيئاً من هذا الجليد المتراكم في نفسه منذ
سنوات طويلة، وحرّك مشاعره لأول مرة منذ أمد طويل.

لم يكد يلمح وجه والدته بين المسافرين حتى قفز فوق الحزام الأمني
المحيط بالممر المخصص لخروج المسافرين دون تفكير وجرى نحوها
وارتمى في حضنها كما اعتاد أن يفعل يوم كان صبياً واهنا ظمآن إلى عطفها
وحنانها، وراح يعانقها بكل حرارة تحت أنظار جماهير معجبة متأثرة.

ها قد ثار بركان نفسه الخامد منذ أزمنة غابرة يتصاعد منه لهيب المشاعر
المتأثرة. لم يتمالك نفسه وهو يرى الدموع تنهمر على وجنتي والدته وهي
تقبله بحرارة وتردد «كم اشتقت إليك يا بني!»، فترقق الدمع في عينه،
واختنق صوته، وضاق صدره، ولم يقو على الكلام، فضمها إليه، ووارى
وجهه المتأثر في كتفها حتى لا ترى عبراته.

مع أنّ الشقة المستأجرة في بيكر ستريت كانت مجدّدة وبها مصابيح
آخر طراز وأضواء كاشفة ونوافذ عريضة يطلّ بعضها على الشارع
والحديقة يدخل منها ضوء النهار، إلّا أنّها لم تراء له أبداً بهذا القدر من

الضياء والبهاء، بحضور والدته فيها. وقف بالقرب منها في الصالون، وكانت آنذاك محاطة بأمتعتها، وأغمض عينيه وأنشأ يتنشق الرائحة بعمق والتأثر بادٍ على وجهه:

«الله! ما أجمل هذه الرائحة يا أمي! لقد جلبت لي رائحة البلاد يا أمي!»
وامتلاً صوته بالشجن والإثارة:

«لقد عدت بي سنوات إلى الوراء! كم أفقد هذه الرائحة! وكم أفقد تلك الأيام يا أمي! ليتني بقيت معكم ولم أرحل!»

أثار كلامه عاطفة والدته، فاقتربت منه والدمع يملأ عينيها وأخذته في حضنها مثلما كانت تفعل وهو صبي تتقد نفسه شوقاً إلى عطفها وحنانها:

«لا تقل ذلك يا ابني! لم ترحل للنزهة وإنما لكسب لقمة العيش! لقد شاهدت كيف عانى والدك المعوّق لإعالة الأسرة! والوضع اليوم أصعب من أي وقت مضى يا ابني! فحتى الشباب المتعلم والحاصل على شهادات لا يجد عملاً ويحاول الهروب إلى الخارج!»

شقيقك الطاهر هو أيضاً يعاني! إنه يعمل لساعات طويلة في ورشة البناء مقابل أجر زهيد لا يسدّ الرمق! عمله صعب وخطير، فكل يوم، لا يطمئن خاطري إلاّ بعد عودته من الشغل معافى. تصوّر أنه قبل أسابيع وقع أحد زملائه من السقالة على قضيب حديدي في أسفل المبنى، فأخترق جسده، رحمه الله وألهم أهله الصبر! فاعمل يا ابني وأمّن مستقبلك لكن لا تنس إعانة إخوتك المساكين!»

أيقظ كلامُ الوالدة المؤثر في نفس شفيق ذكريات من الماضي الذي حاول أن يوصل أبوابه للأبد، وخيّل إليه في وقت ما أنه أفلح في غلقها. وحتى لا يجرؤ على فتحها ثانية في لحظة عاطفة وضعف، فقد ألقى بمفاتيحها في نهر (التايمز) القريب منه من أحد الجسور العالقة فوقه. وهو من كان دوما يتساءل: ما جدوى هذا الماضي الذي يذكره بوطن بعيد عبثت به أشباح الحرب؟! ويذكره بأسرة لا يستطيع أن يراها، وأم حنون لا يستطيع أن يعانقها؟! تتردد أصواتهم وضحكاتهم جميعا في خياله وهو في ديجور الوحدة في هذه الديار، فينجرف في بركة الكرب والمرارة والدمار!

هذا الماضي صار يُقرَن في نفسه بالألم والعذاب! وهذا الماضي صار يتراءى له كما لو كان سجنا رهيبا! ومن ذا الذي يرضى بالعيش حبيسا خلف قضبانه وفي زنزائته إذا كان في وسعه أن يتحرر من أغلاله ويحيا حرا طليقا في دنيا الحاضر! حتى المستقبل لم يعد يعني له شيئا. فهو عالم مبهم لا يعلم عنه شيئا، يسير باتجاهه، وقد يتعثر وينهار في أية لحظة في مشواره، قبل لقائه! ثار في تصوراتهِ على الماضي والمستقبل، ولم يعد يؤمن في حياته إلاّ بهذا الحاضر الذي يعيشه، تتردد في وجدانه عبارة:

«أنا الماضي» قد مات..

لكنّ «أنا الحاضر» ما زال ماضيا في مشوار الحياة..

وأما «أنا المستقبل» فلستُ أعرفه، وقد لا ألتقيه أبدا في حياتي».

هكذا صار يفكر إلى أن أتت والدته من «الماضي» تحمل له ذكريات من «الماضي».

لقد استطاعت والدته الآن، بحديثها البريء عن الأسرة والأحباب والأوطان وبذكرها أحداث ماضية، أن تفتح هذه الأبواب على مصراعيها أمام عينيه. لقد نسي أن أمه تملك نسخة أخرى لتلك المفاتيح التي ألقى بها في مياه التاييمز يوما! وكيف لا وهي قادمة إليه من هذا الماضي.. وهي جزء لا يتجزأ من الماضي.. بل هي الماضي نفسه الذي انتفض عليه وطرده من حياته، وها هو اليوم يعود إليه!

جلست بالقرب من الأمّعة وفتحت بعضها فأخرجت منها كيسا بلاستيكيًا وقالت وهي تفتحه:

«هذه يا بني (براج) بالتمر صنعتها لك بيدي».

وتابعت بصوت متأثر:

«أنا أعلم أنها حلوياتك المفضلة.. كنت أعرض عليك (الرفيس) و(المقروط) وحلويات أخرى، لكنك كنت عنيذا، دائما تفضّل البراج! وبعد رحيلك، كلما صنعتها لإخوتك تذكرتك وبكيت!»

ومدت يديها إلى كيس آخر، ففتحته وبسطت أمامه فروة خروف كثيفة
الصوف:

«هذه يا بني 'هيدورة' كيش العيد من بقايا عيد الأضحى السابق احتفظت
بها لأقدمها لك هدية تذكرك بنا وبأعيادنا وتقاليدينا!»

جثا على ركبتيه وأمسك فروة الخروف بيديه ونظر إليها بتأثر، ثم انحنى
وأغمض عينيه وراح يشمها بمتعة كما لو كان يستنشق عبق أجمل ورود في
الدنيا، محلّقًا بخياله بعيدا عن شقته ومدينته إلى وطنه وبيت أهله، وإلى آخر
عيد أضحى قبل رحيله عن كنف أسرته. فرأى والده منشغلا بنحر الأضحية،
ووالدته وبعض شقيقاته منهمكات في تدبير شؤون البيت. ورأى نفسه واقفا
رفقة بعض إخوته وأخواته يشاهدون نحر الأضحية من بعيد يغمر محياهم
مزيج من الفضول والأسف على موت الخروف الذي أفعم حياتهم مرحا
وفرحا لأيام، وها هو اليوم يفارقهم رفقة ملايين الخرفان الأخرى التي لا
تربى إلا لأجل أن ينعم بها البشر».

فجأة تعالى صوت والدته فأيقظه من حلمه وأعادته إلى عالمه:

«وهذا يا بني زيت زيتون صاف أحضرته لي (وزنة) حماة أحتك سعاد
من بلاد القبائل! لم نعد نثق بهؤلاء الباعة في المدينة الذين يمزجون زيت
الزيتون بزيت المائدة المضّر ولا يخشون الله!»

شعر شفيق بالحزن لسماع ذلك. ها هي بلاده التي لا تخلو جبالها
وتلالها وأريافها من أشجار الزيتون وتعدّ من أكبر مصدري زيت الزيتون

في العالم لا تستطيع أن توفر الزيت لمواطنيها، ولا تستطيع أن تشدّد الرقابة على هؤلاء التجار الذين يملؤون المحلات والأسواق والشوارع بزيت مغشوش!

وهل يعقل أن يقطع المواطن البسيط مسافات شاسعة للوصول إلى الأرياف البعيدة وإلى آخر الدنيا للحصول على قنينة زيت أصلي غير مغشوش في بلد يوجد في أعلى قائمة الدول المنتجة لزيت الزيتون في العالم؟!

جلس شفيق على الهيدورة يصغي إلى والدته بعناية، ويرى الماضي ينكشف شيئاً فشيئاً أمام عينيه المتأثرتين. هذا الماضي الذي فرّ منه طويلاً يتألف من وطنين: وطن صغير تمثّله أمه، هذا الحضن الدافئ الذي يفيض حبّاً وحناناً وعطاء وتضحية وليس له بين سائر الخلق مثيل.. ووطن كبير تجسّده بلاده، هذا الحضن الدافئ المجيد الذي ليس له في أنحاء الدنيا بديل. فزيارة والدته هذه بثت الحياة في حواسه الميتة وأيقظت ضميره من سباته العميق، وسمحت له بالاطلاع على أحوال أسرته، وأوضاع وطنه، من خلال حديثها وعبر شاشة (قناة الجزائر) التي لم يكن يشاهدها لكنّ أمه التمسّت منه في مساء أول يوم أن يفتحها لها لمتابعة نشرة أخبار الثامنة التي اعتادت مشاهدتها في الجزائر رفقة والده.

«تعودتُ، يا ابني، على مجالسة والدك في هذه الساعة لمتابعة أخبار الوطن وكلنا أمل في أن تتغلب الحكمة على منطق العنف ويعم الأمن والسلام بلادنا الحبيبة!» قالت له في صوت تغلب عليه الحسرة.

لكنّ هذا الأمل في توقف أعمال العنف وعودة الأمن والسلام إلى ربوع هذا الوطن، الذي كانت تنشده والدته، بدا له حلما بعيد المنال وهو يشاهد الأخبار على الشاشة أمامه والتي كانت تتحدث عن الانتخابات الرئاسية الأخيرة التي جرت قبل أيام فقط والتي فاز بها العسكري السياسي القوي والحكيم الجنرال اليمين زروال في ١٦ نوفمبر ١٩٩٥ مع استمرار حالة الطوارئ وتواصل مسلسل العنف في أنحاء التراب الوطني وتضاؤل فرص حل الأزمة وإنهاء الحرب الأهلية الدامية المتّقدة بين الحكومة والإسلاميين منذ ١٩٩١.

هذه المشاهد الكئيبة المرعبة المتتالية أمامه على الشاشة رسمت له صورة عن وطنه مختلفة اختلافا عظيما عن تلك الصورة المشرقة الجميلة التي احتفظ بها في أعماق ذاكرته من آخر أيامه في الجزائر، وهو ما أكدته له والدته التي جلست بجانبه على الأريكة الوثيرة، تحت أضواء خافتة تتابع آخر أخبار الوطن:

«الجزائر اليوم يا بني ليست جزائر الأمس التي رحلت عنها! شوارع المدينة التي كانت تضج بالجماهير إلى ساعة متأخرة من الليل صارت خالية من البشر بعد غروب الشمس، مسرحا لتبادل إطلاق النار بين العسكر والإسلاميين. لقد صارت الأجواء هناك مشحونة بالتوتر والحقد، وغابت النية الحسنة والبراءة والرحمة عن قلوب الناس، وانعدمت الثقة حتى بين أفراد العائلة الواحدة!»

وأمسكت عن الحديث هنيهة لتشرب قليلا من الماء ثم تابعت:

«العام الفائت، خرج أخوك حليم من العمل كعادته، وفي طريق عودته إلى البيت وبينما كان يسير بالقرب من سوق (بومعطي) في (الحراش)، وقع إطلاقاً للنار هناك، ففر مبتعداً عن المكان، ليقع - لسوء حظه - في قبضة قوات الأمن. فالمسكين وجد نفسه في المكان الخطأ وفي الوقت الخطأ وكان عليه أن يدفع الثمن غالياً! ظلّ المسكين في الحبس على ذمة التحقيق ما يقارب الشهر ليخرج منه بعد ذلك وقد أصيب بانهيار عصبي لم يتعاف منه إلا بعد أشهر طويلة صرفناها في الجري به مثل المجانين من مستشفى إلى آخر ومن راق إلى آخر! وما زال في الواقع يعاني من نوبات هلع كلما سمع إطلاقاً للنار أو صوت سيارة شرطة أو سيارة إسعاف، ونحن الآن نحيا على وقع إطلاق النار وأصوات سيارات الأمن والإسعاف يومياً في هذه الحرب الوحشية.. أخوك يشعر بالهلع أيضاً إن وجد نفسه في أماكن مغلقة مثل المصعد أو عند دخول القطار في نفق، ونحن كثيراً ما نسافر إلى (سطيف) لزيارة أحوالك والأنفاق المظلمة كثيرة أثناء الرحلة الطويلة كما تعلم!»

أصغى شفيق بنزع إلى والدته وهي تحدّثه عما ألمّ ببلاده وأثر في أسرته. «هذه الحرب، يا بني، فرّقت شمل الأسرة الواحدة». تابعت الوالدة في صوت كئيب. «وهذا ما حصل لأسرة جارنا دحمان المسيلي. ابنه الأصغر (يزيد) في سنك وزميلك في الدراسة رحل عن أسرته وصعد إلى الجبل للالتحاق بالمقاتلين، بينما انخرط ابنه الأكبر (جلول) في

الجيش وصار بعد ذلك ضابطاً! هذه الحرب لا ترحم أحداً، يقتل فيها الأخ أخاه ببرودة دم!»

«لم أكن أتصور أن يصل الوضع إلى هذا الحد يا أمي!» صاح شفيق وأمارات الصدمة بادية على وجهه.

«بل أكثر من ذلك يا بني! كثير من الشباب قوّطوا في أسرهم وحملوا السلاح وراحوا يقتلون إخوانهم الجنود الملتحقين بالخدمة العسكرية، وهي واجب وطني إلزامي لكل الشباب! وتراهم يستهدفون شرطة المرور ورجال الأمن الساهرين على سلامة المواطن والوطن! ويعتدون على المرافق العمومية ويقطعون أسلاك الكهرباء والهاتف!

لقد نزلت عليهم فجأة صحوة دينية وهم لا يفقهون شيئاً! منهم من كان عاطلاً عن العمل، متسكعاً في الشوارع، يصرف وقته في القيل والقال ومعاكسة بنات الناس! ومنهم من كان مدمناً على الكحول والمخدرات! ومنهم من خرج من السجون! في مجتمعنا اليوم، يا بني، الرجل يتعرض للذبح، والمرأة للاغتصاب، والطفل للخطف، والوطن للتخريب!»

ومدت يدها نحوه فربتت على كتفه برفق مبتسمة ابتسامة حزينة:

«سعيدة لأجلك يا بني لأنك بفضل الله تعالى وحمده بعيدٌ عن هذه الأجواء المرعبة التي حملت الرجال والنساء والأطفال والشيوخ على الفرار.. لكنني حزينة كل الحزن لحالنا ولما حلّ ببلادنا.. فنحن اليوم يا ابني نعيش في رعب دائم، وما في وسعنا إلا أن نصبر وندعو الله تعالى أن

يسترنا ويفرّج همنا وهو الرحمن الرحيم. ولسنا في الواقع نعاني من ويلات الحرب فحسب، بل أيضا من غلاء المعيشة وتفشي الفقر وانتشار الأوساخ والأمراض. ويبقى العنف أكبر خطر!

لا يكمن الدين في العصيان وحرق الأوطان وقتل البشر، وإنما في القلوب الطاهرة والسلوك الحسن وتقبل الآخر. وقد شاهدت ذلك اليوم فقط في هذه الديار. شاهدته في ابتسامة الموظفين وحسن الضيافة والخدمة في المطار، وفي انضباط الناس واحترامهم الطوابير في محطة القطار.. وشاهدته في نظافة هذه المدينة. لا تتصوّر مقدار الأوساخ المتراكمة في أحيائنا هذه الأيام يا ابني! لقد تعودّ الناس عندنا على الوسخ مع أنه من الشيطان! نراهم يقذفون الفضلات من نوافذ وشرفات العمارات إلى الشارع! ونراهم يفرغون القمامة على حافة الطريق وفي الأماكن العمومية بكل أنانية، فكلّ واحد يفكر في نفسه وفي منزله، ولا أحد يهتم بالوسط والبشر من حوله! فلا عجب كثير منا يعاني من الأمراض التنفسية والحساسية وغيرها».

وتابعت وهي تضع يدها على فيها متثابثة وقد بدا على نبرة صوتها أثر الجهد والعياء من السفر والسهرة:

«ندعو الله أن يهديهم وأن يحفظنا جميعا من كل شر ومكر يا ابني».

نال منها التعب وران في عينيها النعاس، فرافقها ابنها إلى غرفته المجاورة ودعاها إلى النوم في سريره الكبير والوثير بينما ينام هو في الصالون، فصاحت به متعجبة:

«ماذا تقول يا ابني؟! لا، لا! والله لن أدعك تنام في الصالون بسببي! احتفظ بغرفتك واسترح ولا تحمل هما! فأني على ما يرام ولا ينقصني شيء بجوارك!»

وطلبت من ابنها فراشا وغطاء ثم أضافت:

«والدتك التي عانت من الجوع والحرمان والبرد وقت الاستعمار، وأمضت سنوات طويلة من عمرها في منزل قديم مشقوق الجدران معرّض للانهيار كاد أن يقع على رؤوسنا أثناء الهزات الأرضية التي ضربت بلادنا، تعتبر بيتك هذا قصرا! كل ما أرجوه هنا هو قربك! فذلك يغنيني عن كل شيء في الدنيا! لا يمكنك أن تتصور مقدار غبطتي اليوم وأنت بالقرب مني بعد طول غياب!»

وبسطت الفراش بجانب الأريكة الكبيرة في الصالون واندست تحت البطانيات الناعمة الدافئة، وسرعان ما استسلمت للنوم.

دخل شفيق غرفة نومه يتوالى في ذهنه مسلسل شهادة والدته المؤثر ومشاهد أخبار قناة الجزائر الدرامية التي لم يكن متعودا عليها بعد انقطاعه عن الماضي وتوقفه عن متابعة أخبار وطنه.

وتزاحمت في صدره انفعالات متناقضة. يطفح قلبه سرورا للقاء أمه بعد سنوات من الغياب، ويدمى لحالها وحال أهله وبلاده التي مزقتها الخلاف، وهدّأ العنف، واستشرى فيها الخوف، وامتزجت فيها دماء الأشقاء في حرب طاحنة متقدة منذ سنوات، أحرقت بلاده، وأحرقت معها خاطره، وألهبت مشاعره، وشغلت باله. لم يتمالك نفسه، فذرف دمعا سخينا تحت

أستار الظلام المحيط بغرفته قبل نومه حزنا على أسرته ووطنه. لم يكن في وسعه التحرر من مخالب هذه المشاهد، ولا من أسر هذه المشاعر، ولا حتى من عذاب أغغام أنشودة هامات المجد 'من أجلك عشنا يا وطني' التي تردّد صداها في أعماق ذاته، فزاد جلده اقشعرارا، ودمعه غزارة، وقلبه حرقه، ونفسه شوقا إلى وطنه المنكسر البعيد:

نفدي بالروح أراضينا	«من أجلك عشنا يا وطني
في الحرب نذل أعادينا	قد كنا أمس عمالقة
في السلم حماة مبادينا	وإننا اليوم عمالقة
غير الأمجاد تحيينا	أبطالا كنا لا نرضى
والحاضر يعلو ماضينا	نزهو بالماضي في ثقة
سجل يا دهر معالينا	فجرنا الثورة من أزل
مجدا من صنع أيادينا	والنصر الأكبر كان لنا
كانا ضوأين بداجينا	جيش التحرير وجهته
والشعب يسود هنا فينا	قالا: في البدء كرامتنا
فينا بالعدل موازيننا	خيرات الشعب نقسمها
للشعب الرافض تدجيننا	والدعم المطلق نبذله
دين الإسلام يواخيننا	يا سائل.. عرب منبتنا
والله الحافظ يحميننا	هامات المجد مرابعنا
نفدي بالروح أراضينا.	من أجلك عشنا يا وطني

كان للبيئة الجديدة بالغ الأثر في صقل تفكيره وتغيير مجرى حياته. ساقه القدر في بداية مشواره إلى (جريت يارموث)، مدينة صغيرة مطلة على بحر الشمال.. مدينة غريبة في نمط حياتها.. مدينة متكاسلة، تظل غارقة في سبات عميق طيلة السنة، لا تستفيق منه إلا في مطلع فصل الصيف على وقع ضجيج أعداد غفيرة من الزوار يتوافدون عليها من بقاع مختلفة لا سيما من المدن والقرى المجاورة، لقضاء العطلة وبحثا عن المرح والاستجمام. فتضجُّ الأحياء، وتزدحم الطرقات بالسيارات، وتضيق الأرصفة والممرات بالجماهير، وتمتلئ الفنادق والمطاعم والمحلات، ويتنعم قطاع السياحة والخدمات، فيعود بالفائدة على المتاجر المتنافسة على الزبائن، والتي غالبا ما توظف يدا عاملة رخيصة مؤقتة لأجل الموسم، أجنبية بالدرجة الأولى. ومع نهاية العطلة الصيفية، يخيم السكون على أحيائها، ويضمحل النشاط التجاري فيها، وتعود المدينة إلى سباتها الطويل. فتصرف كثير من المتاجر عمالها، وتقف أبوابها في مطلع شهر أكتوبر. فالعمل في هذه المدينة موسمي مؤقت، ينتهي بنهاية موسم الاصطياف وحلول فصل الخريف.

في هذه المدينة، اشتغل شفيق في مطعم متخصص في الأكل اليوناني. وكان يدرك أن عمله هذا سينتهي قريباً ولم يكن يدري أين يذهب بعد ذلك لطلب لقمة العيش والحياة. وكان مجرد التفكير في ذلك يملأ نفسه حيرة وفزعاً وغماً. ولحسن حظه، لم يدم ذلك طويلاً. ففي أحد أيام شهر يوليو عرض عليه صاحب المطعم فرصة العمل في مطعم شقيقته في منطقة (رومفورد) شرق لندن. ولحسن حظه أيضاً، لما حان موعد الرحيل، تكّرم صاحب المطعم بنقله إلى ذلك المكان في سيارته الخاصة.

وفي رومفورد، صار يصرف وقته بين العمل في المطعم نهاراً ومشاهدة البرامج التلفزيونية البريطانية ومطالعة الكتب الإنجليزية التي كان يستعيرها من المكتبة المحلية، في غرفته ليلاً. وكان خلال هذه الفترة في اتصال مباشر ومستمر مع الإنجليز وبلغتهم الإنجليزية. وشيئاً فشيئاً، أنشأ يفكر مثل هؤلاء الناس من حوله باللغة الإنجليزية.. ومثلهم جميعاً، بات يحلم باللغة الإنجليزية. وما زال كذلك عندما انتقل الى وسط لندن للعمل في المطعم العربي ب ليستر سكوير وإلى غاية زيارة أمه.

استشرى فيروس البيئة الجديدة هذا في ذاته، مكتسحاً كلّ دفاعاته. فلم تعد تنفع فيه إلا مضادات حيوية خاصة، لا أثر لها في صيدليات الجزر البريطانية، ولا تستطيع أن تتكرر مثلها أكبر المخابر الغربية، شاء القدر أن تصله من خلف السهول والجبال والبحار، ومن على بعد ألفين كلم، متمثلة في والدته.. هذه المرأة العظيمة، بما تملكه من نفس زكية، وإرادة قوية، استطاعت في لمح البصر أن تبعث الحياة في مشاعره الميتة، وأن تعيد ترميم ما تبقى من جسور منهارة عالقة بينه وبين بلاده وتراثه وثقافته وماضيهِ.

حتى نظام غذائه كان لا بد أن يتكيف مع زيارتها التي أضفت عليه نكهة جزائرية مفقودة.

رفعت والدته حاجبيها دهشة وصاحت متعجبة لما فتح لها باب الثلاجة لأول مرة ودعاها إلى تناول ما تشتهييه من مواد غذائية مكدسة على رفوفها: «الله! الله! لم أر مثل هذه الخيرات في حياتي! ما شاء الله يا ابني! سعيدة كل السعادة بهذا!»

وعادت بفكرها إلى بيت الأسرة في الجزائر فتابعت وقد لاحت ملامح الانشغال في وجهها:

«ليت والدك وإخوتك معنا اليوم للاستمتاع بقسط من هذا! إذا فتحت ثلاجتنا لن ترى فيها شيئاً يذكر! عدا ربما بعض الماء والحليب وشيئاً مما تبقى من وجبة أمس إضافة إلى الأدوية التي لم تعد تفارق بيتنا. الأسعار عندنا ملتهبة والقدرة الشرائية منخفضة، والحياة تزداد صعوبة مع استمرار هذه الحرب التي لا فائدة منها».

والتفتت نحوه وأضافت وظلال الحيرة تغمر عينيها:

«لكن، لا تقل لي، أرجوك، هذا هو طعامك اليومي؟!»

«هذا طعامي في أغلب الأوقات!» ردّ مطلقاً ابتسامة. «لكن لا تقلقي! فهذه

الأكلات تحتوي على كل البروتينات والفيتامينات التي يحتاجها جسمي!»

فصاحت مستغربة وهي تحرك رأسها يمينا وشمالا:

«لا، لا يا ابني! ولا فيتامينات ولا هذا الذي لا أستطيع حتى نطقه! هذا الأكل البارد لا يليق إلا في أوقات! انظر يا ابني إلى الطقس! تحتاج إلى كسكس ورشته ولوبيا وطاجين الزيتون وبورك يملأ بطنك! سأطبخ لك هذه الأطباق وكل ما تريد! فقط قل لي ما تشتهي وأنا أطبخه لك يا بني!»

وهكذا بعدما كان يكتفي بأكل أجبان وتونة ومأكولات معلبة وأطعمة الميكرويف، ها هي روائح الأكلات الجزائرية بكل أشكالها تغمر بيته، وتثير شهيته، وتوقظ في نفسه ذكريات جميلة من جزائر الأمس حينما كان يجالس أفراد أسرته لتناول العشاء. آنذاك، رغم قلة الإمكانيات ويسر الحال وتواضع المكان وبساطة الأكل، كان لذلك الطعام ولتلك الأجواء مذاق خاص لا مثيل له في الجزر البريطانية وسائر أنحاء الدنيا! وكأنّ للأوطان قدرة عجيبة على إضفاء مزيد من الحلاوة والعذوبة والجمال على الطعام الذي نتناوله! ومن المطبخ وإعداد الطعام، امتد تأثير والدته إلى الصالون وقنوات التلفزيون.

بينما هو يتابع أحد البرامج الفكاهية المفضّلة لديه على قناة (أي تي في) إذ جلست والدته بجانبه، وسرعان ما اعتراها من الملل ما ضاق صدرها به، فرفعت صوتها قائلة:

«ما هذا الذي تشاهده يا بني! هلاً غيّرت لنا قليلا هذه القناة التي لا نفهمها!»
انفجر ضاحكا بصورة تلقائية عندما سمع ذلك مقدرا براءتها وصراحتها، ممتثلا لأمرها. فتحول إلى الفضائية التي تفهمها وتحبها:

Canal Algérie (قناة الجزائر). وهكذا حلت القناة الجزائرية محل (البي بي سي) و(أي تي في) وبقية القنوات الإنجليزية في بيته. وها هو لأول مرة يشاهد معها أفلاما وأشرطة وثائقية جزائرية، بعضها بالأبيض والأسود وبعضها رديء الصورة أو الصوت، كأنه من أزمنة غابرة.. برامج قديمة لم يشاهدها منذ عهد طويل، تذكره بحياته الماضية في كنف أسرته وبأمجاد ثورة التحرير التي أعادت للجزائر حريتها وكرامتها ومكانتها بين الأمم، فراحت تخطو خطواتها الأولى نحو التقدم قبل أن تعترض طريقها هذه الحرب الأهلية المدمرة وتحكم عليها بالعودة سنوات إلى الوراء. وها هو لأول مرة منذ سنوات يستمع بتأثر وحزن شديدين إلى صوت (الشاب حسني) الذي اغتاله الإرهاب قبل نحو سنة في ٢٩ سبتمبر ١٩٩٤، في حرب اتجهت لا محالة نحو التصعيد.. حرب تعددت أطرافها، وتنوعت أساليبها، وزادت رقعتها، واتسعت أهدافها لتشمل رجل الأمن والشاب المجبر على أداء واجب الخدمة العسكرية والفنان والطبيب والأستاذ.. حرب خبط عشواء لا تميز بين مواطن أعزل ومقاتل، ولا بين بريء ومذنب.. حرب لا ترحم امرأة ولا طفلا ولا عجوزا ولا أحدا من أفراد المجتمع.. حرب راحت تسجل وقائعها وترسم مشاهدها في لوح التاريخ بدماء الأبرياء وأرواح الشهداء.

ما أصعب هذا الواقع الذي يعيشه وطنه اليوم والذي بات هو أيضا مقيدا بين أسواره، بروحه وجوارحه، رغم بعده عنه. صار هذا الواقع له شبحا رهيبا يطارده في نفسه الألم والغم والتوتر. وإن كان من الواجب

مواجهة هذا الواقع لأننا إذا أغفلنا عنه سنحمل بلا ريب نتائجه، ألا يحق للإنسان، في غمرة الضيق والألم مما يصحب الواقع المرير، أن يفرّ منه في بعض الأوقات ولو للحظات قليلة للاستراحة من أعبائه؟ فهذا الواقع أشبه بالعمل الذي يمارسه الإنسان في حياته. فإن كان المرء في حاجة إلى انقطاع عن العمل أحيانا لأجل الاستراحة وتجديد الطاقة قبل استئنافه بنفسٍ جديد ونفس جديدة، فهو أيضا حتما في حاجة إلى انقطاع عن الواقع أحيانا لأجل الراحة وتجديد الطاقة قبل العودة إليه ومواجهته بروح جديدة وطاقة مجدّدة.

ونحن، في الحقيقة، لسنا بصدد الفرار من الواقع لمجرد الفرار، وإنما لأجل اجتناب التعثر والانهيال. ومن سبل التخلص من قبضة الواقع السهو واللهو والحلم والفانتازيا. صدقت الكاتبة والمدرسة الأمريكية (ليندا باري) حينما قالت: «نحن لا نصنع عالم الفانتازيا لأجل الهروب من الواقع، وإنما نصنعه لكي نستطيع البقاء».

ولأجل هذا البقاء، خلا بنفسه في غرفته. تمدّد في فراشه وأغمض عينيه محلّقا بعيدا في دنيا الخيال، متملّصا من تلك المشاهد المؤلمة القاتمة التي ألقت بظلالها على ذهنه، مفتّشا عن هذه الفانتازيا. لكن ما الذي سيصنع له هذه الفانتازيا أو بالأحرى مَنْ سيجسّد له هذه الفانتازيا في هذه الساعة؟ لا يسعه إلا أن يستحضر إلى مخيلته ذكريات لقائه المثير مع فتاة من النمسا التي قادتها الصدفة إلى مكان عمله، ومنه إلى بيته، ومنه

إلى حضنه. ولا يجد بدا، في غمرة حلمه، من التساؤل عن سبب تأخرها أو ربما امتناعها عن الاتصال به مثلما وعدته. وما لبث أن تذكر رقمها الذي حصل عليه قبيل رحيلها.

كانت والدته في الصالون تشاهد نشرة أخبار الثامنة عندما اتصل بالرقم من غرفته حيث كانت تتردد من حوله أنغام موسيقية إنجليزية متنوعة خافتة. ردت عليه امرأة باللغة الألمانية ومن بعد ذلك سمع صوت أنجلينا الذي بث المسرة في نفسه. أنجلينا من جهتها لم تتأخر عن معاتبته مجددا على ما فعله معها في بيته:

«إلى حد الساعة لم أستطع فهم ما فعلته معك وأنا في وعي تام!..».

«ولا أنا في الواقع!» قال وهو يهزّ برأسه. «لكن، لا فائدة من التحسّر على ما فات أنجلينا! أعدك أنه لن يتكرر ذلك! سأضبط نفسي المرة المقبلة!»

فردت ضاحكة:

«تقول «المرة المقبلة»! آسفة! لا أتصور أنني سأدخل بيتك مرة أخرى وإن كنتُ أنوي العودة إلى لندن في مطلع السنة الجديدة».

فصاح معاتبا:

«أنتِ هكذا تشعرينني بالذنب كثيرا! اعترفت لك أنه كان خطأ ولن يتكرر.. وإنني أعتذر مرة أخرى. آسف لما تشعرين به!»

توقّفت الفتاة عن الحديث فجأة كما لو أنها استاءت من كلامه. فسألها:

«ما بك أنجلينا؟ هل أزعجتك بكلامي؟»

فصاحت:

«لا، أبدا! شدّت انتباهي أنغام الأغنية القادمة من بيتك! أظنني سمعتها من قبل!»

«إنه المطرب الأمريكي (لاينل ريتشي)!» قال لها ضاحكا. «وهذه إحدى روائعه وإحدى الأغاني المفضلة عندي! دعيني أسمعك هذه الأغنية من بدايتها! لحظة فقط!»

رفع شفيق صوت المشغل الموسيقي قليلا وقرب السماعه إليه، فتعالت منه كلمات وأنغام أغنية Hello (مرحبا).

«لقد كنتُ وحيدا وعقلي مشغول بك،
وفي أحلامي، قبلتُ شفّيتك ألف مرة.
في بعض الأحيان، أراك تمرين خارج بابي.
مرحبا!

هل هو أنا الذي كنتِ تبحثين عنه؟
إنني أرى ذلك في عينيك..
إنني أرى ذلك في ابتسامتك..
أنت كل ما كنت أريده في حياتي..».

ورفع السماعه مجددا.

«مرحبا، ما زلت على الخط؟»

«مرحبا! نعم! كم هي جميلة هذه الأغنية!»

«سأحتفظ لك بالشريط. أعدك! أخبريني أرجوك: أين تنوين الإقامة في لندن؟»

ترددت قليلا ثم قالت:

«كنتُ سألتمس مساعدتك على إيجاد شقة أستوديو في مكان ما غير بعيد عن وسط لندن. مستعدة لدفع مقدم الإيجار والتأمين ريثما أجد عملا».

«جميل! لكن البحث عن مسكن ملائم وآمن، في مكان مناسب وقريب من وسط المدينة وبسعر مقبول يحتاج بكل تأكيد إلى دراسة وتفكير ومتسع من الوقت. أقترح منزلي في بداية الأمر».

فصاحت متعجبة:

«ماذا قلتَ؟! منزلك! مرة ثانية!»

فقال:

«أرجوك لا تسيئي فهمي! ليس الأمر كما تتصورين.. أنا الآن لستُ وحدي في البيت. لقد وصلت والدتي من الجزائر بعد مغادرتك لندن وستبقى معي فترة نستغلها لترتيب أمر الشقة الأستوديو. وهي فرصة لك أيضا لإيجاد عملٍ، ما يسمح لك بكل تأكيد بتوفير التكاليف في هذه المدينة المكلفة! ستحلين ضيفة عندنا ولن ينقصك شيء، ريثما تهيئين أمورك».

فقالت:

«لا أدري ما أقول! أنت بهذا تضعني في موقف عسير للغاية!»

«بل سهل! وفي مصلحتك! أنا أسعى لمساعدتك فقط!»

«حسنًا، حسنًا! وماذا عن والدتك؟ وكيف سيكون شعورها؟ هل أنت

واثق أنها لن تنزعج من حضور فتاة غريبة في منزل ابنها؟»

«أفهم ما تقولين. هي من مجتمع محافظ بالتأكيد. لكن دعي لي هذا

الموضوع الآن ولا تشغلي بالك. سأفكر في حل ما يرضي الجميع وسأتدبر

الأمر. أعدك أنني سأرتب كل شيء قبل مجيئك إلى لندن. فاطمني واستمتعي

بأعياد نهاية السنة رفقة أهلك. متى تأتين إلى لندن إذا؟»

كانت السماء في مساء ذلك اليوم من أيام شهر يناير ١٩٩٥ ملبدة بغيوم داكنة كثيفة، وكانت تردّ بغير انقطاع منذ ساعات طويلة، عندما خرج شفيق من بيته متجها نحو مطار هيثرو لاستقبال أنجلينا. كان قد شاهد نشرة الأحوال الجوية في الصباح الباكر على قناة (البي بي سي) وكانت مخيبة لأمله مثل الأيام الماضية. فبعد أيام طويلة مغيمة وممطرة، ها هي محطات الأرصاد الجوية تتوقع مرة أخرى استمرار الضغط المنخفض فوق الجزر البريطانية وما يصحبه من غيوم كثيفة وأمطار وبرد. ومرة أخرى ستغيب الشمس عن سماء لندن ليس لساعات ولا ليوم واحد وإنما لأيام طويلة. هذا الجو القاتم ما برح يملأ نفسه غما واكتئابا. لكنه ليس الوحيد الذي يشعر بمثل هذا الضيق والضغط من مثل هذا الطقس الذي لا يكاد يفارق هذه الجزر. كثير من أصدقائه العرب والأجانب القادمين من المشرق العربي وإفريقيا وأمريكا اللاتينية يتذمرون من هذا الجو القاتم ويتطلعون إلى مشاهدة الشمس والاستمتاع ولو قليلا بأشعتها ودفئها. وكيف لا يشعرون بذلك وهم الذين رأوا نور الحياة في بيئة لا تغيب عنها الشمس؟! وكيف لا يعانون وهم لا يحتاجون إلى ارتداء معاطف وقبعات صوفية، ولا إلى حمل مظلات طيلة أيام السنة؟!

حتى الإنجليزي نفسه، الذي رأى نور الحياة في هذه البيئة الممطرة، صار يضيق به ذرعا فتراه يسافر إلى بلدان بعيدة في الجنوب بحثا عن هذه الشمس الغائبة عن بلاده. والبحث عن الشمس هو الذي دفع عشرات الآلاف من البريطانيين إلى بيع منازلهم والهجرة إلى خارج بريطانيا. اشترى كثير من هؤلاء عقارات على طول السواحل الإسبانية والفرنسية والإيطالية، حتى إنَّ البريطاني صار المستثمر العقاري الأول في إسبانيا وصارت بعض المدن الساحلية تعج بالمهاجرين الإنجليز. تراهم يملؤون شواطئها وساحاتها العمومية ومحلاتها ومطاعمها. تراهم يتخاطبون فيها بلغتهم الإنجليزية ولا تشعر أنهم يحتاجون إلى لغة أخرى سواها. حتى أقرب الناس إليه والدته التي عبرت له أكثر من مرة عن انبهارها ببريطانيا، هذا البلد المتقدم وهذا الشعب المنظم، عبرت له عن ضيقها من هذا المناخ. سألتها قبل أيام من باب المزاح: «ما رأيك لو دعوتك يوما للإقامة معي في هذا البلد وإني أعدك أنك ستزورين الجزائر مرة أو مرتين في السنة؟»

عندئذ صاحت ضاحكة وهي تلوح برأسها:

«لا! لا يمكنني احتمال هذا الطقس طويلا يا ابني! أنا أساسا أعاني من آلام الروماتيزم وأحتاج الشمس. لقد صرت أكره الخروج من البيت بسبب البرد والمطر!»

حتى الفتاة النمساوية أنجلينا لا تحب هذا الطقس. قالت له في آخر مكالمة قبل يومين عندما اتصلت لتبلغه بتفاصيل رحلتها اليوم إلى لندن إنها تفضل الثلج على الغيوم والأمطار.

وتحت غيوم لندن الكثيفة وأمطارها الغزيرة، أدرك أنّ الحياة أبعد ما تكون عن العدل. فما أقسى هذه السماء من فوقه، تبخل بمائها على شعوب، إلى حد استشرَاء المجاعة والأوبئة بين أفرادها، بل وإلى حد تَوَقُّفِ نبض الحياة فيها! وتجدد بمائها على شعوب أخرى بما يفوق حاجتها، وإلى حد إغراقها بالفيضانات!

وفي هذه البيئة الممطرة والمعرضة للفيضانات، أدرك أنّ هذه الشعوب الغربية تعلم منذ الأزل أنها في صراع دائم مع الطبيعة وأن هذه السماء المتقلبة فوقها لا يمكن أن تكون صديقة. فجذّت وكذّت لمقاومة تقلباتها، واتخذت ما أمكنها من إجراءات لمنع فيضاناتها. ومن هذه الشعوب، التي تعلمت ألا تترك شيئا للحظ، بريطانيا التي أقامت حاجز نهر التايمز سنة ١٩٨٤ بعلو يفوق عشرين مترا لغرض حماية مدينة لندن من الفيضانات. وتقوم بريطانيا بنصب موانع اصطناعية في السواحل المعرضة للفيضانات. وما زالت بريطانيا وأمم غربية أخرى في صراع دائم مع هذه الطبيعة التي لا ترحم. كلما كادت الطبيعة، اتخذت هذه الشعوب التدابير اللازمة، وابتكرت بفضل العلوم والتكنولوجيا وسائل وأجهزة متطورة لمقاومتها، لتؤكد لها أنها رغم كل العراقيل والقيود، لن تتركع، وستبقى في الوجود.

وغير بعيد عن هذه الأمم، وعلى عكس ذلك تماما، ثمة شعوب ما انفكت تأتمن هذه الطبيعة رغم كيدها المتكرر، وتنظر إلى ما يصيبها منها على أنه امتحان من السماء. وأي اختبار هذا الذي لا تتعلّم منه هذه الأمم!

هذه الشعوب حتى اليوم لم تستخلص عبرة من تجاربها الماضية مع الطبيعة القاسية! ولم تدرك بعد أن الطبيعة خصم وليست صديقاً! وأي صديق هذا الذي يبخل على مزرعتك بقطرة ماء؟! وأي صديق هذا الذي يهلك أهلك عطشاً؟! وأي صديق هذا الذي يغرق شوارع مدينتك بمطاره، ويهدّ عمرانك بأعاصيره؟! وأي صديق هذا الذي يحكم على أطفال إفريقيا بالموت جوعاً؟!...!

لشد ما شعر بالإحباط والألم وهو يشاهد هذه الأمم من حوله تستجدي السماء ماء في زمن العلوم والتكنولوجيا، بدلاً من الاجتهاد لاستغلال موارد مائية جوفية وافرة تجري تحت أقدامها على بعد أمتار منها! وما الذي يمنع هذه الشعوب من استغلال تقنيات من تصميم العقل البشري مثل تحلية مياه المحيطات واستغلال موارد مائية بحرية محيطة بها لا تنضب، مثلما فعلت أمم أخرى فحولت أراضيها القاحلة إلى جنات عدن؟! وهل ذلك بالأمر المستحيل؟!

وفي غمرة إحباطه وحسرتة، تعالت صرخة ساخرة من أعماق ذاته:

عَجِبْتُ مِنْ قَوْمٍ يَسْتَجِدُّونَ اللَّهَ الْأُمْطَارَ،
فِي أَوْطَانٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ،
وَتُحِيطُ بِهَا الْمُحِيطَاتُ وَالْبَحَارُ!

وفي رحلة الفرار من صخب المدينة وثرثرة البشر إلى الطبيعة والتأمل، لم يجد بداً من التفكير في هذه الصحاري القاحلة البعيدة الممتدة على مساحات

شاسعة في أعماق قارات إفريقيا وآسيا وأمريكا والتي لا تصلها الأمطار أبداً. هل يتوقع الإنسان الذي يحيا في هذه الطبيعة القاسية حقاً أن تستجيب له السماء فجأة، إن دعاها، فتغيّر أنظمة الطبيعة لأجله ولأجل إرضائه؟! وإن رغبت في الاستجابة لندائه، فمن أين يا ترى سيصدر هذا الماء العجيب في هذه السماء الجافة حتى تتكرم به على عباد الله! ألم يدرك هذا الإنسان بعد أن فأقد الشيء لا يعطيه؟! فما جدوى النداء والبكاء؟!

وأدرك في وحدته وتأمله أن نظرة الإنسان إلى عناصر الطبيعة لا تتأثر بمشاعره فحسب، بل أيضاً وإلى حد كبير بالبيئة التي يحيا فيها. وما البيئة، في واقع الأمر، إلاّ منظر يشاهد الإنسان من خلال عدساته العالم من حوله. فلا عجب إن اشترك أفراد المجتمع الواحد في نظرتهم إلى الطبيعة بحكم اشتراكهم في الحياة في بيئة واحدة. حتى هذه الأمطار التي تتساقط هنا وهناك في أرجاء الدنيا بنسب متفاوتة وغير عادلة، للبيئة عظيم الأثر في تحديد نظرة البشر إليها. والبيئة بذلك فان يرسم للإنسان صورتها بألوان زاهية تارة، وقاتمة تارة أخرى. فالبيئة الظمآنة ماءً لندرة الأمطار فيها ستجعل الإنسان الذي يحيا فيها يرى ما ينزل من السماء خيراً ونعمة. أما البيئة التي ينتابها طيف الأمطار ليلاً ونهاراً ولا يفارقها، وتعبث الفيضانات بمدنها وقرها، فإنّها ستؤثر في معنوياته وتجعله ينظر إليها كما لو كانت لعنة ونقمة! تلك هي حال المجتمع البريطاني الذي صارت فيه كلمات «ارحلي أيتها الأمطار» عنواناً لأنشودة يرددها الأطفال في كامل أنحاء المملكة المتحدة. ونظرة شفيق إلى المطر كان لابد أن تتغير

هي الأخرى بعد أن استقرّ في بيئة أخرى مغايرة تماما للبيئة القديمة. لم يكن يملك نفسه من الطرب وهو يشاهد زخات المطر تنهال من السماء، وهو بين أهله وذويه في وطنه المتعطش إلى المطر. كان إخوته آنذاك يهللون لمشاهدة هذه الأمطار التي عادة ما يطلق عليها الناس اسم «شتا» بمعنى (شتاء) لأنهم لا يشاهدونها عادة إلا في فصل الشتاء. كان أشقاؤه وبقية الأطفال يستقبلون هذه الأمطار بصناعة زوارق من ورق يلعبون بها في جداول المياه التي تشكّلها الأمطار في طرقات الأحياء التي كانت تتخللها حفراً وصدوع، وكانوا ينشدون بأصواتهم البريئة أغنية «يا شتا صبي صبي». (أهطلي أيتها الأمطار)، وهي أنشودة مناقضة تماما للأنشودة البريطانية المعارضة للأمطار! ومع انقطاع الماء المتكرر في أنحاء المدينة - أحيانا لساعات وأحيانا أخرى لأيام، كانت أمه تهرع إلى راحة المنزل فتضع فيها دلاء وقصاعا لملئها بما تجود به السماء من ماء عزيز، يُستخدم بعضه لغسل الثياب والأواني ويُحفظ بعضه الآخر لريّ بستان البيت الذي كان يزرع فيه والده قليلا من البصل والثوم والطماطم واليقطين وبعض الأعشاب مثل الكزبرة والبقدونس والنعنع، عشب والدته المفضل والذي كانت تستخدمه في صناعة الشاي. وما أكثر ما كان والده في مثل هذه المناسبات السعيدة يرفع يديه إلى السماء بخشوع، شاكرا المولى تعالى على بركته ونعمته، مؤكدا لأسرته على أهمية الأمطار لتجنب الجفاف الذي عانت منه أوطان أخرى في أفريقيا. كان يتابع ذلك في أخبار الثامنة وفي صفحات جريدة (الشعب) الوطنية، صحيفته

المفضلة التي كان يشتريها كل يوم. ولم يكن باستطاعته نسيان صور مأساة المجاعة التي ضربت الصومال سنة ١٩٩١ وأدت إلى هلاك ثلاثمائة ألف شخص، وما زالت تعاني من آثارها حتى الساعة.

ها قد تغيرّ شفيق اليوم بانتقاله من بيئة جافة إلى بيئة لا تبرحها الأمطار في أي فصل من فصول السنة. فقد صار اليوم نسخة لهؤلاء الإنجليز من حوله ممن ضاقوا ذرعا بهذه المياه المتساقطة من غير توقُّف. وصار يتعاطف مع هؤلاء الصبية الأبرياء الذين يدعون الأمطار إلى الرحيل عن سماء مدينتهم ليتأتى لهم الخروج والمرح والاستمتاع بالحياة قليلا.

تحت هذه الأمطار المتساقطة بغير انقطاع، وصل إلى مطار هيثرو الدولي. فاجأته شاشات الوصول في مدخل المحطة الثانية بنبا تأخر الرحلة الجوية القادمة من مدينة فيينا بسبب سوء الأحوال الجوية والثلوج الكثيفة التي اكتسحت شرق أوروبا ووسطها، والتي قطعت أسلاك الكهرباء وطرق المواصلات وألغت رحلات جوية كثيرة في عدد من الدول، مثلما طالعت عناوين الأخبار في الصباح.

اليوم، ولحسن حظّه وحظّ صديقته الجديدة أنجلينا، فعلى الأقل لم تُلغ رحلتها مثل عشرات الرحلات الأخرى من العاصمة النمساوية ومدن أوروبية أخرى!

قالت له بعد وصولها أخيرا، بينما كانا يسيران في اتجاه محطة قطار مطار

هيثرو:

«كنتُ أخشى أن تلغى الرحلة مثلما ألغيت رحلات أخرى كانت معروضة أمامنا على الشاشة نتيجة الثلوج المتساقطة بكثافة على أرضية مطار فيينا. وبعد انتظار طويل، سمحوا لنا أخيراً بالركوب. وتحركت الطائرة من مكانها لتتوقف من جديد بسبب الجليد. وانتظرنا طويلاً انتهاء عمليات الرش وتذويب الجليد على الجناحين. كان الأمر في منتهى الصعوبة!»

كان شفيق يشعر بما واجهته أنجلينا اليوم من صعوبة. لكن تأخرها أرحم من إلغاء رحلتها وعودتها إلى أسرتها. وها هي الفتاة النمساوية الآن تركب معه قطار خط بيكاديلي الواصل بين هيثرو في غرب لندن ووالشمستو في شمالها. وفي هذه الرحلة الطويلة سألته بشيء من الانشغال:

«لم تبلغني بعد إلى أين نذهب الآن؟»

«إلى البيت». ردّ عليها مبتسماً.

«بيتك! لكن!...». قالت وهي تنظر إليه مرتبكة.

«لكن ماذا!» قال لها متعجباً. «أين هي المشكلة أنجلينا؟! قلتُ لك لن يتكرر ما حدث من قبل!»

«أنا لا أفكر في ذلك الآن!» قالت له مدافعة عن موقفها. «أنا أفكر في والدتك وكيف سيكون ردها!»

فقال مقاطعاً في صوت وقور:

«قلتُ لك إنَّ والدتي عندي في البيت.. لكني أيضاً قلتُ لك إنني سأرتب الأمور معها وسيكون كل شيء على ما يرام عند عودتك».

و ألقى نظرة حوله ثم تابع مبتسما في صوت خفيت:

« سيكون كل شيء على ما يرام، أنجلينا. فلا تقلقي. القطار مزدحم والمكان غير مناسب للحديث عن ذلك. سأوافيك بالتفاصيل بعد الخروج من المحطة».

كانت الساعة السادسة والنصف تقريبا عندما خرجا من محطة بيكر ستريت التي كانت في تلك الساعة تغصّ بالزوار والعمال المنصرفين من أماكن عملهم بالمدينة. سارت أنجلينا بجانبه في تلك الطريق التي سلكتها معه مرة من قبل مع اختلاف معتبر هذه المرة. فهو الآن لن يأخذها إلى شقة موحشة قد لا تقوى على مقاومته فيها، بل إلى مكان مأهول بات اليوم يتقاسمه مع والدته ويحيا فيه تحت مراقبتها، ما بعث في نفسها شعورا بالطمأنينة والأمن. والآن وهي تقترب من بيته، لم تعد تقوى على تحمل الانتظار لمعرفة ما وقع في غيابها و ما ينتظرها بعد وصولها. توقفت فجأة وصاحت به بنبرة حازمة:

«هلا أخبرتني الآن عما سيحصل في بيتك! أعتقد أنني انتظرت بما فيه الكفاية!»

نظر إليها مفكرا ثم قال في صوت هادئ:

«حسنا أنجلينا.. أعترف لك أنني في البداية وجدت صعوبة وأنا أفكر في الصفة التي أعرضك بها على والدتي. الثقافة مختلفة. والدتي من مجتمع محافظ لا يقبل الاختلاط وينظر بارتياح إلى علاقة امرأة برجل خارج الزواج. ما كان في وسعي أن أقول لها: «هذه فتاة من النمسا تزورني في منزلي!»

«أكيد! فماذا قلت لها إذا؟!»

«قلتُ لها ببساطة: إنك زوجتي».

اتسعت عينا أنجلينا دهشة لما سمعته.

«ماذا؟!» صاحت متعجبة. «زوجتك! كيف هذا؟! لا أفهم شيئاً!»

«آسف أنجلينا! لكني لم أجد عذراً آخر تقبله والدتي البريئة التي نشأت

في وسط مختلف لا يقبل علاقة كهذه».

صمت هنيهة ثم تابع وعيناه لا تفارقان هذه الفتاة التي بدت في حيرة من

أمره وأمرها:

«أريدك أن تطمئني أنجلينا! فهذا مجرد عذر ولا يعني شيئاً في الواقع.

سترين أن الأمر بسيط ولا يستدعي كل هذا القلق».

استقبلت والدته شقيق أنجلينا كما لو كانت إحدى بناتها تماما بمعانقتها
وتقبلها على خديها متحدثه إليها بالعربية كما لو كانت تخاطب فتاة وصلت
من الجزائر أو بلاد عربية أخرى:

«تفضلي! مرحبا بك يا ابنتي! زارتنا بركة! دعيني أحمل حبيبتك!»
شيء من الخجل والارتباك تراءى من خلف نظرتها البريئة الدافئة وهي
تشاهد مثل هذا الاستقبال غير المعتاد بحفاوة وبعناق وقلبات حميمة وبلغة
غريبة لا تعرف عنها وعن قواعدها ومفرداتها شيئا.

بعد العشاء، بينما كانت والدته منهمكة في جمع الأواني وترتيب الصالون،
دنت منه أنجلينا وسألته في صوت خافت:

«فاتني أن أسألك عن ترتيبات النوم.. أين أنام الليلة؟»
«مع والدتي طبعاً في غرفة نومي أو في الصالون!» قال ذلك دون تفكير،
ثم التفت نحو والدته يسألها إذا كانت غرفة نومه جاهزة لها وللفتاة. فردت
عليه دون أن تلتفت إليه:

«هذا هو مكاني يا ابني ولن أتحرك منه إلى أن يحين موعد عودتي إلى
الجزائر عن قريب إن شاء الله!»

فقال:

«إذا ستنام معك هنا إذا كنتِ تصرين على عدم النوم في غرفتي».

تركت الوالدة ما كان بين يديها والتفتت نحوه وصاحت متعجبة:

«أبعد الله الشر يا ابني! ما هذا الكلام الساذج الذي اسمعه؟! أنت هكذا تشعرني أنني حمل ثقیل عليك! هذه زوجتك يا ابني! كيف تريدها أن تنام خارج غرفة نومها؟! لا، لن أسمح لك بحرمانها من النوم في الغرفة لأجلي.. هذه ليست أول ليلة أنام فيها هنا لوحدي. خذ زوجتك لتستريح فهي تبدو متعبة من السفر ولا تهتم لأمرى فأنا هنا في أحسن حال!»

كانت أنجلينا تراقب المحادثة بانشغال محاولة استيعاب شيء منها دون جدوى. وما لبث أن التفت الفتى نحوها ليوضح لها ما دار بينهما من حديث وهو يبدو قلقاً:

«ثمة مشكلة يا أنجلينا!»

«شعرت بذلك من نبرة والدتك. ماذا حصل؟!»

«والدتي تلح على أننا ننام معا في غرفتي!»

فصاحت أنجلينا دون تفكير وظلال الحيرة تغمر وجهها:

«ماذا؟! هل جننت؟!»

«أخبرتكَ في الطريق أنني أبلغت والدتي بأنك زوجتي! لكن لم أكن أتوقع

أن تطلب مني أن أنام مع زوجتي في غرفتي!»

«الآن تذكرت! كدت أنسى دور الزوجة الذي أردتني أن أعبه في هذا

البيت! حتى أنا لم أفكر في ترتيبات النوم عندئذ! وما الحل؟ ماذا نفعل إذا؟!»

«وماذا في وسعنا أن نفعل في مثل هذا الوقت المتأخر! أتصور اننا نساير الأمور ونمثل دور الزوجين إلى أن نعثر لك على مكان.. أرجو أن تصبري معنا قليلا، ولا تقلقي فالغرفة كبيرة تتسع لأكثر من شخصين. تنامين في السرير وأنا على الأرض. أعدك أنه لن ينقصك شيء. أريدك أن شعري براحة وحرية.. تماما كما لو كنت في بيتك».

ذهبت أنجلينا إلى الحمام للاستحمام بعدما وافقت على اقتراحه ولم تكن تشعر أن لها خيار آخر.

من جهته، دخل شفيق الغرفة واستلقى على فراش من الإسفنج الاصطناعي سميك بسطه في الجهة المقابلة للسرير، واندس تحت الغطاء في هذه الليلة الباردة. عادت أنجلينا بعد ذلك إلى الغرفة وهي ترتدي فوطة استحمام ملفوفة حول جسدها الفاتن، تنبعث منها رائحة سائل الاستحمام من نوع (دوف) العذبة فتبعث في نفسه حمى الفتنة والإثارة. وسرعان ما انطفأت الأنوار لتغرق الغرفة في العتمة. لكنّ هذا الظلام الحالك المخيم في الأجواء لم يحجب عنه تماما صورة هذه الفتاة الساحرة وهي تدخل عليه الغرفة ملفوفة من أعلى ثدييها الممتلئين إلى أعلى فخذيهما المثيرتين في مجرد منشفة استحمام. كان شعرها مبلا ومسترسلا. كان يدرك أنه مطالب بإخماد نيران الغريزة المتأججة في نفسه وأنه لا سبيل إلى ضبط الغرائز من غير عقل حكيم. وها هو ذهنه يذكره برواية (مدرسة المغفلين) لتوفيق الحكيم وبالتحديد قصة «ليلة الزفاف» التي رآها مفعمة بالعبرة والحكمة والفائدة، وتفيض بأنبل المشاعر وأطهرها وأصدقها. ولما كانت

شبيهة بهذا الموقف الذي وجد نفسه فيه هذه الليلة، خطر بباله أن يتقاسمها مع أنجلينا قبل نومها ليعرفها على جانب من الأدب العربي من جهة، وليؤكد لها على قدرة المرء في مثل هذه المواقف الصعبة إن وجد نفسه في غرفة مغلقة مع الجنس الآخر، على ضبط نفسه والتحكم في غرائزه. فأخذ يحدثها عن تلك العروس التي كشفت لعريسها في ليلة زفافها عن تعلّقها بشاب آخر وموافقتها الزواج منه إرضاء لوالدتها التي كان حلمها أن ترى ابنتها متزوجة برجل في مقامه، وكيف أن الخبر نزل عليه كالصاعقة، فملأ نفسه مرارة وعذاباً.

أبدت أنجلينا اهتماماً بهذه القصة فاق توقعه. راحت تصغي إلى تفاصيلها وتترقب ما يلي بعناية كما لو كان يقص عليها إحدى روائع الليالي العربية. لم يكن يصرف انتباهها ويقطع حبل تركيزها إلا صوت شخير والدته العالي القادم من الغرفة المجاورة عبر باب الغرفة المفتوح.

قام شفيق من فراشه فأوصد الباب للتخفيف من حدته. ثم اقترب من النافذة ومدّ يده فسحب الستائر السميكة قليلاً، فتسللت إلى الغرفة عبر زجاج النافذة المطلة على الحديقة خيوط ضوء خافت، انعكس بريقه على شفتي أنجلينا ووجنتيها وعينيها.

كان كل منهما آنذاك التعرف على أطوار القصة وما عسى أن يصنع هذا الرجل بزوجه بعدما أدرك أنها متعلقة برجل آخر. فأضاف شفيق أن هذا الزوج وإن تمزّق قلبه، وغلي جوفه، لم يسئ معاملته عروسه ولم يطردها، بل اجتهد بما وُهب من عقل وحكمة وسعة خاطر، لضبط نفسه. فكظم غيظه،

وأصغى إليها، ففتهم أمرها، وقدّر مشاعرهما، وأشفق عليها في وقت كان قلبه
يَنْزُ دماً، ويتقدّ ألماً. فناولها مندبله لتتمخط فيه بدلاً من طرف ثوبها، ليبقى
ثوب العرس نظيفاً، ترتديه في ليلة قرانها المقبل!

لشدّ ما انبهرت أنجلينا بتصرف هذا الزوج القوي المثالي الذي استطاع
في ساعة خيبة وغيظ وألم أن يملك نفسه. وربما أكثر من ذلك كله، استطاع
أن يسيطر على غرائزه وشهواته بفضل حكمته وإرادته. فتقاسم غرفة نومه مع
امرأة فاتنة، نائمة في سريريه، مستيقظة في ذاته، تثير نفسه، وتطير نومّه، وتطيل
ليله، دون أن يلمسها!

لكن، ما احتمال أن يتصرف الرجال مثل هذا التصرف في هذا العصر
وفي مثل هذه المواقف الصعبة والمثيرة؟ وفي هذه الليلة بالذات، وقد أُلّفى
شفيق نفسه بجوار هذه الفتاة الساحرة في غرفته، وفي سريريه، أيستطيع أن
يحذو حذو بطل «ليلة الزفاف» فيضبط هو الآخر نفسه؟ كان يشعر في
أعماق نفسه أن هذه الأدوار التي يوزعها الكاتب على أبطال روايته -
وهو ربهم الأعلى الذي يستطيع أن يملي عليهم أقوالهم ويحدد قراراتهم
ويرسم حركاتهم، وهو من يرأف على من يشاء ويقسو على من يشاء،
ويطيل أعمار من يشاء ويمسح من الوجود من يشاء - تختلف عن أدوار
«قصص الواقع». وكان يشعر أن المواقف البطولية والمثالية النادرة التي
نراها هنا وهناك في المؤلفات والأفلام وفي مسرح الحياة، حتى وإن لم
تكن من نسج الخيال، ليست في الواقع قاعدة وإنما شذوذاً عن القاعدة لا

يستطيع القيام بها - أو ربما لا يرغب في القيام بها - إلا قليل من البشر. ثم، لماذا يرغب الإنسان نفسه على قتل أحلامه، وكبت رغباته، وتقييد نفسه وتقليد غيره وهو في الحياة مستقل بذاته عن غيره؟! صار يؤمن أكثر من أي وقت مضى بحرية الفرد وحقه في التصرف بتلقائية وبصورة طبيعية بعيدا عن ضغوطات المجتمع وبعيدا عن هذه الأحكام والقيود المتوارثة من الماضي. لقد علمه المهجر أن الحقيقة التي يؤمن بها البشر - وهي في الواقع جملة من الأحكام تصنعها عقول البشر، لها أوجه ومقاييس مختلفة ومتغيرة. وحقائق الأمس قد تكون في خلاف مع حقائق اليوم. وأخطر من ذلك، قد تجعل البشر في خلاف مع الواقع ومع أنفسهم. وقد تقطع طريق الانفتاح والتقدم والتعايش أمام الأجيال الحاضرة. وصار اليوم يتساءل، بشيء من الإحباط والحزن، لم تتوقع هذه المجتمعات دائما أن يكون تصرفنا مطابقا لتصرفات السابقين، أو أن نكون نسخا لشخصيات الآخرين. حتى والدته الحنون كانت تحثه ببراءتها المعهودة على دراسة القانون ليكون يوما محاميا أو قاضيا يحظى بمنزلة ونفوذ ويكون فخرا للعائلة أمام الجميع، مثل أحد أقاربه. ولم يكن له آنذاك ميل إلى دراسة القانون، ولا رغبة في تقليد غيره أو اعتلاء منصب لن يكون سعيدا فيه حتى وإن كان الوظيفة الأعلى مرتبة والأكثر فائدة في المجتمع. لم يكن يرغب في شيء عدا أن يكون نفسه مرددا باللغة الإنجليزية:

«Be yourself, And take control of your own destiny.

There is nothing more disgraceful in life,

Than living someone else's life.'

(كنْ نفسك، وتحكّم في مصيرك. فلا شيء في الدنيا أكثر شئنا من أن

تحيا حياة شخصٍ آخر)

لا، لن يحيد شفيق عن سبيل تصوراته ومعتقداته. فهو لن يكون في هذه
الليلة وفي كل ليلة وكل يوم من أيام حياته إلّا نفسه. ولن يؤمن إلّا بما يقتنع به
عقله. ولن يفعل إلّا ما تمليه عليه ذاته. وتتردد في خياله أنغام No Matter
(مهما كان):

«مهما يقولون لنا،

مهما يفعلون،

مهما يعلموننا،

فإنّ ما نؤمن به صحيح.

مهما يسموننا،

كيفما يهاجمون،

وأيّما يأخذوننا،

فإنّنا سنعرف طريق الرجوع.

لا يمكنني أن أنكر ما أؤمن به،
لا يمكنني أن أكون ما لست عليه،
أعلم أن حبي أبدي،
وأعلم مهما كان.
لو أن الدمع كان ضحكا،
لو أن الليل كان نهارا،
لو أن الدعاء كان مستجابا،
لسمعنا الله يقول:

مهما يقولون لك،
مهما يفعلون،
مهما يعلمونك،
فإن ما تؤمن به صحيح».

ما أجمل أن يكون المرء نفسه، فيتصرف بعفوية، ويدع الأمور تأخذ
مسارها الطبيعي في الحاضر دون تدخل الماضي أو المستقبل في تصرفاته
أو التأثير في قراراته.

وما أروع أن تسبح روحه حرّةً طليقةً في فضاء مستقل عن المكان والزمان،
محلقة فوق كل الخطوط والحدود، لا تحدّ سيرها طابوهات ولا أغلال ولا

قيود، ولو للحظات قليلة من عمره. أوليس العمر أقصر مما يتصور! هكذا
بات يفكر. وهذا ما عبّر عنه بلغة المجتمع الذي يحيا فيه:

Don't grieve over the past,

It's all gone!

Don't worry about the future,

It may never come!

Live in the present,

And enjoy every moment.

(لا تحزن على الماضي، فالماضي قد فات!

ولا تقلق على المستقبل، فالمستقبل قد لا يأتي!

وعش الحاضر، واستمتع بكل لحظة.)

ها قد أوصد أبواب ذهنه في وجه رياح الأزمنة وعواصف الخلفيات
والتأثيرات، فزحف برفق نحو الفتاة وكانت آنذاك ما تزال مستلقية على
ظهرها، ومدّ يده نحوها فلمس يدها:

«يدك دافئة بشكل رائع!»

فردت ضاحكة:

«ويدك أنت مجمدة للغاية! ربما لأنك خارج الغطاء».

فقال مازحا وهو يندس بجانبها تحت الغطاء الدافئ:

«كل ذلك بسبب! فقد تحملت ما تحملت من قساوة البرد هذه الليلة لأجلك».

وتابع وهو ينحني فوقها برفق ويمدّ يديه فيمسك كلتا يديها على جانبي مخدتها أعلى السرير كما لو كانت الآن تحت أسره وسلطانه:

«والآن أحتاج إلى قليل من دفئك.. بموافقتك أو بغير موافقتك!»

أطلقت أنجلينا ضحكة عالية وقالت:

«كم تحسن التمثيل! دمك يبدو...».

وخمد صوتها بغتة تحت تأثير قبلة طويلة مفاجئة.

قالت له بصوت لاهث بعدما تحررت شفتاها من وقعها ويدها ما زالتا في قبضته، وجسدها في أسره:

«ماذا تفعل؟!»

«أقبلك».

«لماذا؟!»

«أنسيت أنك زوجتي!»

«زوجتك! لا تقل ذلك ثانية!» قالت وهي تحاول أن تحرر جسدها منه دون جدوى.

«أسألي أمي إن كان لك شك في ذلك!» قال لها ذلك مازحا بصوت هادئ، فلم تجد الفتاة بدا من الانفجار ضحكا مرة أخرى:

«أعتقد أنني صادقت مجنوننا وأنا لا أدري!»

«أنت على حق! أنسيت إذاً أنني كاتب! وقد يتتابني الجنون في أي لحظة، فيبث نور الإلهام في مخيلتي، ويفجّر طاقتي، ويضرم نار الإبداع في ذاتي. ليس كل الجنون سلبياً يا صديقتي. فبعض الجنون لابد أن يرافق الإنسان في رحلة الكتابة والإبداع والعبقرية. ولولا هذا الجنون لما أتى بعض الأدباء والمفكرين بما أتوا به من أدب وفكر مميزين نادرين ليسا في متناول كل البشر. لكن مع ذلك، أعترف أنّ للجنون عيوب لا تحصى. ومن ذلك أنه قد يعطل قدرة الإنسان على التفكير السليم ويطلق العنان للعواطف والرغبات والطيش. وإنّي أعترف لك أنّي، في هذه اللحظة وأنا على هذا السرير الدافئ رفقتك، لا أشعر بجنون الأدب والإبداع، وإنما بجنون الرغبات والطيش مثلاً تشاهدين، لسوء حظك!»

ودفع جسده فوقها وراح يقبّلها ثانية على شفّتها بكل حرارة، فشعر هذه المرة باسترخائها وتجاوبها مع قبلاته. ولأول مرة تلامس شفّته شفّتها، ولسانه لسانها بلهفة ومتعة، وفي انسجام وتآلف عظيمين. ونزلت شفّته من شفّتها المثيرتين إلى رقبتها تداعبانها وتقبلانها.

«ماذا تفعل؟ توقف!» قالت له بصوت يرتجف من فيض الإثارة، لكن لغة جسدها المستسلم أوحّت إليه بغير ذلك وأشعرته برغبتها في البقاء بين ذراعيه، والخضوع لإرادته، والانصهار في ذاته. بدا ذلك واضحاً من خلال أصوات لذة متقطعة متعددة الأنغام كانت تطلقها وهو يقبّل ثدييها ويمصهما بنهم الجائع منذ الأزل. ومدّ يده إلى أسفل جسدها المتوهج، فراحت أنامله تداعب فخذيها ثم ترتقي نحو الأعلى لتستقر بينهما. وأنزل رأسه فراح

يقبل ما بين ثدييها إلى سرتها. وفي لحظة حرارة وإثارة وجنون، فتح رجلها بقوة وأنزل رأسه ليستقر بين فخذيها، وراح يمصها بنهم الظمآن اليأس التائه في صحراء لحظة العثور على ماء ثجاج عذب لا يعرف الارتواء منه. ومن ثم، ارتقى بكل جسده فوقها وحضنها، فلقت ذراعيها حول عنقه، وساقها حول وسطه مستسلمة. وشعر بتزايد سرعة أنفاسها، ونبضات قلبها، والتهاب حرارة جسدها، وذوبانها في بحر الدعة والمتعة. وشعر هو من جهته كما لو أن وحشا عظيما ساكنا في أدغال ذاته، عنّ فجأة وامتلكه وراح يسير سلوكه، لا قدرة له على مقاومته، ولا مفرّ له من سلطته. وانتابه بغتة شعور غريب، وهو بين مخالب الوحش، أنه لا يرغب في التحرر من قبضته ولا يرضى برحيله.

لكن هذه الوحوش التي ترددت حكاياتها على ألسنة البشر منذ قديم الزمان، والتي تُعرّف في معجم (كامبريدج) الإنجليزي على أنها «مخلوقات خيالية مخيفة لا سيما الكبيرة والغريبة منها»، هل هي كلها سيئة ومرعبة مثلما صوّرتها لنا الأساطير؟ لا، لن يكون مثل هذا التعريف صحيحا في قاموسه بعد الآن! ها هو الآن بين يدي وحش غريزته، لا يلحقه منه ضرر ولا ألم.. وحش، مختلف عن كل وحوش الكون، يستكين في حضنه، ويستأنس بقربه، ولا يقوى على فراقه.. وعكس وحوش الأساطير المرعبة، ها هو الوحش المسالم الصديق يرفعه إلى السماء ويخلق به بعيداً إلى أعلى قمم السكينة والمتعة والسعادة!

استفاق شفيق في صباح اليوم التالي لتلك الليلة المثيرة المضنية منهار
القوى، واني الحركة، كالجندي العائد من المعارك الطاحنة خائر القوى،
متغير اللون.

لكن هذا الجندي وإن تبينَ فيه أثرُ الجرح والألم والعناء، فنفسه ما
برحت تطفح دعة وابتهاجا، كيف لا وقد خرج من المعركة ظافرا بقلب فتاة
فاتنة باتت في حضنه، وهي الآن بجانبه، غارقة في عالم النوم والحلم، يشعّ
وجهها الناصع نورا وبهاء، فيضئ أرجاء غرفته والدنيا من حوله!

فتحت أنجلينا عينيها فرأته مستلقيا على جنبه، ملتفتا نحوها، مسندا
رأسه على ساعده ونظره عالق بها. صاحت متنهدة وقد أشرقت في وجهها
ابتسامة واهنة.

«يا إلهي! أشعر بتعب شديد!» صاحت متنهدة، ثم حدجته ببصرها
وتابعت بنبرة تنم عن عتاب. «ماذا أصابك الليلة الماضية! كلما حاولت أن
أنام أيقظتني؟!»

انفجر شفيق ضاحكا وقال في صوت هادئ وهو يتحسس وجهها
بأصابعه:

«ماذا أفعل! لم أقو على امتلاك نفسي أمام فتاة بهذا الحسن والسحر!»

وتابع مازحا:

«ثم ماذا تتوقع العروس في ليلة زفافها! أن يقبلها العريس على جبينها ثم يلتفت إلى الجهة المقابلة وينام!»

ضحكت أنجلينا عند سماعها ذلك وقالت:

«بصراحة من يشاهدك في هذه الهيئة وهذا الهدوء واللفظ، لا يتوقع أبدا أنك تملك كل تلك الطاقة والإثارة!»

«أعترف لك، يا عزيزتي، أن نقطة ضعفي غريزتي! هكذا أنا دائما واهن في أوقات المتعة! كلما استيقظت أشباح غريزتي، غفا عقلي، وشلت إرادتي، وفقدت السيطرة على ذاتي. أعترف لك أنني، وقتئذ، أشعر كما لو أن وحشا عظيما بداخلي استيقظ بغتة من سباته وانقض عليّ من الأعماق، فاستحوذ على جسدي وامتلك نفسي. لكن لا تخافي! فهذا الوحش مجرد «وحش متعة»، لا يبحث إلا عن اللذة. وما إن يطفئ نار ظمئه حتى تسكن نفسه، ويعود أدراجه إلى الأعماق ويستغرق فيما كان عليه من قبل من سبات».

«لكن هذا «الوحش» الذي تتحدث عنه على ما يبدو لا يعرف السكون والنوم!» صاحت متعجبة. «ينام دقائق قليلة ثم يستيقظ ويوقظني! أنا لست آلة!»

«هذا يا أنجلينا في تقديري ما يجعله يستحق اسم «وحش» أي أنه قوي شديد يملك طاقة عجيبة، ما يجعله يتفوق في ذلك على الإنسان! وليس بالضرورة لأنه فظ، بشع، مرعب مثلما يتصوره كثيرون لا يعرفونه إلا من الحكايات

والأساطير! هذا الوحش، يا أنجلينا، يفجر طاقتي، ويلهب لذتي، ويرفعني إلى أعلى قمم النشوة والسعادة، ولا يؤذيني ولا يؤذي أحدا حولي بأي حال من الأحوال. فلا تتعجبي إن قلتُ لك إنِّي أصبحت أستأنس به وأحن إلى لقائه.

لقد اختار الإنسان منذ قديم الزمان أن يصور الوحوش والشياطين في أبشع صورة وبألوان قاتمة. وراح يقرنها بالشر والعدوان، ويحملها مسؤولية ذنوب يقتربها البشر، ولا صلة لها بها. وهذه الكائنات، يا أنجلينا، لا تملك القدرة على الدفاع عن نفسها وإيصال رسالتها إلى البشر، لأنها بكل بساطة ليست بكائنات ناطقة! فهل من العدل الإصغاء إلى طرف دون الآخر! وهل من العدل إصدار أحكام من جانب واحد! وهل تتلخص الحقيقة فيما يشاهده الإنسان من زاوية واحدة!

لقد علمتني الحياة، يا أنجلينا، أن:

«فِي كُلِّ مَوْضُوعٍ قَوْلَانِ،
وَفِي كُلِّ قَضِيَّةٍ رَأْيَانِ،
وَفِي كُلِّ قِصَّةٍ وَجْهَانِ،
وَلَيْسَ فِي الْكَوْنِ لَوْ أَنَّ بَلَّ أَلْوَانِ،
فَالْحَقِيقَةُ شَيْءٌ لَا يَمْلِكُهُ الْإِنْسَانُ».

لقد تناسى هذا الإنسان الوحوش والشياطين البشرية، وما أكثرها في هذا العالم، يملأ نفوسها الحقد والمكر والجشع والنزعة الجامحة إلى السيطرة

والإثم والعدوان، لا تثنيها عقولها عن اقتراف أبشع الجرائم وإلحاق أشنع الأضرار والدمار بأبنائها وبيئتها معا تحقيقاً لأغراضها وحماية لمصالحها.

لقد علمتني الحياة، يا أنجلينا، ألاّ أحكم على الأشياء من خلال أشكالها، أو أحجامها، أو ألوانها، أو أصولها، أو ما قاله الأولون واللاحقون عنها، بما في ذلك الوحوش التي نتحدث عنها. ففي تصوري، الوحش المسالم البريء، وإن كان لا يؤنسنا، فهو خير من ألف إنس دنيء، نعاشره ونثق به فينقلب علينا ويفترسنا.

أصغت أنجلينا إلى ما كان يقوله لها شقيق بتعجب. لأول مرة في حياتها تسمع أحداً يتحدث عن وحش يسكن نفسه، ويتقاسم سريره، وحتى جسدها معه! ولأول مرة أيضاً ترى رجلاً يدافع عن الوحوش والشياطين بكل شغف وثقة كما لو كان قد اختلط عقله. وكم كانت دهشتها كبيرة عندما تتحى عنها قليلاً كأنما ليتترك مكاناً في الفراش بينها وبينه وقال لها ويده تلامس ذلك المكان بلطف:

«ستتعجبين أكثر بلا شك إذا قلت لك لقد أصبح يتقاسم فراشنا هذا وحياتنا، إضافة إلى الوحش الذي حدثك عنه، صبي في الساعات الأولى من عمره. إن لم يكن لديك مانع أسميناه «ملاك» لهذا النور الذي أراه ساطعاً في وجهه!»
بدت أنجلينا تأهتة:

«ماذا! عن أي صبي نتحدث الآن؟! وحوش وشياطين ثم صبي غير مرئي! ماذا جرى لعقلك؟! هل أنت على ما يرام؟! أعتقد أن خيالك هذا تعدّي كل الحدود!»

«قد تستغربين كلامي، وإنني أقدر ذلك! لكنني حقيقة أشعر كما لو أننا أنجبنا صبيا في أول ليلة لنا معا. وهذا الصبي يمثل هذا الرباط الذي صار يجمعنا منذ الليلة الماضية والذي أريده أن يكون وثيقا. وإنني لا أجد بدا من مشاهدته مجسدا في صورة صبي من لحم ودم هو الآن هنا بيننا. وهذا الصبي من الآن فصاعدا يحتاج إلى أن ينهل من ينبوع حناننا وعطفنا وإرادتنا وثقتنا بأنفسنا حتى يقوى ويكبر ويبقى على قيد الحياة. ملاك هو اسم هذا الصبي يا أنجلينا!»

شعرت أنجلينا، في وقت من الأوقات، كما لو كانت مستغرقة في متابعة مشهد من مشاهد روايات الخيال العلمي المثيرة شاءت الصدف أن تشترك هي نفسها في بطولتها مع هذا الفتى الغريب والمختلف عن كل الذين التقت بهم من قبل! وفي حلقات المسلسل الأولى المعروضة أمامها، شاهدت كيف أن الأقدار سارت بها إلى محل عمله، ومن ثم إلى بيته، وإلى غرفته. وكيف أن الأقدار قذفتها في حضنه وجعلتها تمضي ليلة متوحشة معه في فراشه لم تشهد مثلها من قبل. فقد انهار الآن ما كان بينهما من حواجز ولم يبق ربما إلاَّ عقبة واحدة متمثلة في شخصيته الغامضة وأفكاره الغريبة التي أثارت دهشتها، وأثارت أيضا، اهتمامها وفضولها وأفعمت نفسها رغبةً في ولوج عالمه، والاطلاع على شخصيته، وفهم طريقة تفكيره، وفك عقدة الألغاز المحيطة به. كانت أنجلينا تدرك أن ذلك يُعدُّ تحديا صعبا يتطلب وقتا وجهدا لكنه بلا ريب يستحق المحاولة.

وفي لحظة انصرافه إلى العمل في ذلك اليوم، شعرت بتحدٍ آخر عاجل متمثل في الحاجة إلى الاجتهاد للتواصل مع والدته التي ستصرف الآن

أوقاتاً طويلة رفقتها في هذا البيت. فكلتاها تتحدث لغة مختلفة، وتفكر بثقافة مختلفة لا تعرف عنها الأخرى شيئاً. فلن تجد بداً من اللجوء إلى لغة الإشارات للتواصل معها وقد حان الآن موعد اختبار قدرتها ومهارتها في ذلك ورد فعل الطرف الآخر.

عاد شفيق في آخر النهار فوجد أنجلينا جالسة في الصالون وحدها غارقة في قراءة إحدى روايات الدراما القانونية لكاتبتها المفضل الروائي الأمريكي جون ري غريشام. كان السكون يخيم على أرجاء الغرفة لا يقطعه إلا صوت الأواني القادم من المطبخ حيث كانت والدته.

لم يكن مرهقا بدنيا بقدر ما كان مرهقا نتيجة متاعب بدأ يواجهها مع أرباب العمل في الآونة الأخيرة.

«تبدو حزينا! هل أنت على ما يرام؟!» سألته بجدية وعلامات الانشغال بادية عليها.

«أنا على ما يرام. فقط العمل..». قال في صوت حزين. «لم أعد أحتمل صراحة!»

«الشغل في المطاعم متعب بلا شك! لا سيما في مدينة مزدحمة مثل لندن». «صحيح. لكن ليس هذا السبب.. لو كان لهذا، لاحتملت لمدة أطول». قال ذلك في صوت يائس أثار حيرة أنجلينا التي راحت تسأله: «وماذا إذا؟!»

«أصحاب العمل.. أصحاب العمل يستغلونني.. يدفعون لي ربع ما يقبضه عمال مطاعم مثل «بيتزا هات» أو «ماكدونالد»!»
«ولماذا وافقت على العمل بمثل هذا الأجر؟!» سأله متعجبة.

«كنت جديدا في مدينة لندن. والحياة هنا غالية. كنت في حاجة ماسة إلى العمل للحياة.. فلم يكن لدي خيار. لكن أصحاب المطعم في البداية، وعدوني برفع الراتب خلال أسابيع قليلة بمجرد الاطمئنان أنني أقوم بواجباتي كما ينبغي. وعبروا لي عن رضاهم عن عملي وإعجابهم بطريقة تعاملتي مع الزبائن. كنت آنذاك أعمل معهم في محل آخر في قلب شارع (أكسفورد ستريت) السياحي. بعد ذلك فتحوا هذا المطعم في ليستر سكوير، ولأنهم كانوا يثقون بي، رفعوني إلى منصب مدير لهذا المحل وأثقلوني بحمل المسؤوليات ورفعوا عدد ساعات عملي دون أن يرفعوا راتبي!»

«يا إلهي! ليس ذلك عادلا على الإطلاق!»

«وليس عادلا استغلال الزبائن أيضا!»

«وماذا عن الزبائن؟!»

«هؤلاء التجار لا ينظرون إلى زبائنهم بقدر ما ينظرون إلى مصالحهم. ولا يهتمون بمشاعر البشر وصحتهم بقدر ما يهتمون بملء جيوبهم وحساباتهم بما يبتزون منهم من أموال. تصوري أنه عندنا تبقى قطع بيتزا في آخر النهار، بدلا من التخلص منها مثلما تفعل المطاعم المحترمة ثم إعداد أصناف جديدة في اليوم التالي - وصناعة البيتزا لا تكلفهم شيئا يذكر، فهي مجرد طحين وصلصة - كانوا يأمروني بجمعها وحفظها لليوم التالي ثم وضعها

خلف صوان البيتزا الجديدة المعروضة أمام الزبائن، وعندما يختار الزبون قطعة ما جديدة، أقدم له قطعة قديمة بدلا منها وهو لا يعلم!

«ماذا؟! يا إلهي! هذا غش شنيع!»

«أجل وغير إنساني! وهذا الغش لا يتوقف عند هذا الحد».

«ماذا؟!» سألته أنجلينا وقد لاح الذهول في وجهها، فرد وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة خفيفة تنم عن خيبة أمل وتحسّر:

«لعلك لاحظت عدم وجود أسعار على بعض الأطباق؟»

«لم انتبه بصراحة. أنا عادة ما أطلب الأكل الذي يعجبني ثم أدفع وانتهى الأمر...».

ابتسم شفيق ابتسامة صفراء وامتلاً صوته بالشجن وهو يرد قائلا:

«هكذا يتصرف جل السياح.. هذه هي نقطة ضعفهم التي يستغلها مثل هؤلاء التجار. تصوري أنهم يأمروني بالتعامل مع الزبون الذي يدخل المحل حسب هيئته ونطقه! فالقاعدة بسيطة: إذا اتضح من خلال الهيئة والنطق أن الزبون من الشركات والمكاتب المجاورة أطلب منه السعر العادي، وإن اتضح أنه سائح، أطلب منه سعرا أعلى من ذلك بكثير!»

«ولماذا يدفع السائح سعرا أعلى؟! لا أفهم!»

«لأن السائح حينما يحل في المدينة لا يعرف الأسعار، ولا يجذب الجدل. فهو يسافر طلبا للراحة والمتعة. ولأجل ذلك يدفع ما تطلبه منه المحلات حتى وإن بدت له مرتفعة. فيسهل بذلك استغلاله! أما الموظف القادم من

المكاتب والمتاجر المجاورة، فهم يريدونه أن يصبح زبونا دائما يتردد على محلهم بانتظام، فهم في حاجة إلى الاعتناء به لكسبه!»
«لا أستطيع أن أصدق ذلك!» صاحت أنجلينا وهي تحديق في وجهه مندهشة من كلامه.

«ولا أنا استطعت أن أصدق ذلك أول مرة!» رد شفيق مقطّبا حاجبيه.
«والأغرب في الأمر، يا أنجلينا، أن هؤلاء المحتالين لا يتوقفون أبدا عن الوعظ والإرشاد والدعوة إلى الدين والأخلاق والتقوى والأمانة، ولا عن ذكر عذاب القبر والآخرة، مستشهدين بآيات قرآنية وأحاديث نبوية يحفظونها! ويحذروننا من عواقب السرقة والنهب يوم الحساب، وهم منشغلون بنهب زبائنهم بغير حساب! إنه مبدأ العصا والجزرة! وتصرفاتهم تناقض أقوالهم. يأمرونا بالإصغاء إليهم وإلى الزبائن، وهم ولا يصغون إلا إلى غرائزهم وأهوائهم!

تصوري، يا أنجلينا، أنه في ليلة رأس السنة حيث تزدهم الساحات العمومية وسط المدينة وتزدهم معها المحلات والمطاعم، أمروني بالعمل إلى الساعات الأولى من الصباح ثم العودة إلى المحل على الساعة العاشرة صباحا، ما كان فعلا فوق طاقتي. وصلت إلى البيت مرهقا، ولم أتمكن من النوم بسرعة. ولشدة الإرهاق ظللت أتقلب في فراشي وظلت درويي مغلقة أمام النوم. ولما نمت في آخر الأمر مثقلا بالعناء والألم، لم يكن في وسعي أن استيقظ في الموعد. جسدي لم يعد لي من شدة الإنهاك. وحينما وصلت إلى المحل، استقبلني أصحاب العمل بالصراخ والتوبيخ والإهانة

أمام الزبائن كما لو كنت ارتكبت أبشع ذنب في الدنيا، مع أنها كانت أول مرة أصل فيها متأخرا!

لقد نسي هؤلاء أنهم كثيرا ما يصلون إلى العمل متأخرين يجرون خلفهم أطنانا من الذرائع، ولا يحاسبهم أحد! والأغرب أنّ هؤلاء الناس وإن كانوا يصلون إلى العمل متأخرين، فإنهم لا يتأخرون أبدا عن أداء صلاة الجمعة، ولا عن أداء الصلوات الخمس جماعة في المساجد! فمواعيد العمل لآخرتهم أهم من مواعيد العمل لديناهم! وحياة الآخرة عندهم أولى من حياة الدنيا التي يصرفون شطرا منها في العبادة وشطرا آخر في استغلال الزبائن والنهب، وجمع الأموال بالاحتيال والنصب، والكيل والقال، والتدخل في شؤون الآخرين وثقافتهم ومعتقداتهم! لم أعد أحتمل مشاهدة وسماع ذلك!

«مم! أنا الآن أفهم ما تقصد! وما العمل إذا؟! إن تركت الشغل، كيف لك أن تتحمل أعباء المصاريف؟!»

«لا تقلقي! لن أترك هذا العمل حتى أجد بديلا.. أنا متخرج من معهد ترجمة وحلمي أن أعمل في هذا الاختصاص. وقد أرسلت مؤخرا سيرتي الذاتية إلى وزارة الداخلية ومصلحة الهجرة والمحاكم ومصلحة الصحة، وإني أنتظر.. فمن يدري؟ وإن تعذر العمل في هذا الاختصاص الآن، بحثت عن عمل آخر في المطاعم الكثيرة في هذه المدينة الكبيرة. العمل هنا متوفر لمن أراد أن يعمل، والفرص متكافئة، وهذا ما يفسر بالتأكيد توافد مواطني

دول السوق الأوروبية المشتركة، التي تعاني من البطالة مثل إيطاليا وإسبانيا وفرنسا، على هذا البلد وهذه المدينة بالذات لأجل العمل».

انقطع عن الحديث فجأة وهو يشاهد والدته تقبل رويدا نحوه، مرحبةً به بأصدق ما في خاطر من إحساس، وأعذب ما على اللسان من كلام وقد أشرقت على محياها ابتسامة دافئة لطّفت قليلا تلك الأجواء المضطربة داخل نفسه. فقام ومضى نحوها يعانقها ويقبلها تماما كما كان يفعل عند عودته إلى البيت أيام دراسته الجامعية.

الأم أعظم معلّم في الوجود حتى وإن لم تتح لها الحياة فرصة التعلم. فأقل ما يتعلمه الطفل من هذه الأم العطف والحنان والحب والاحترام والتقدير والشجاعة والصمود والاعتماد على الذات...

وتمرّ السنون، ويكبر الطفل، وقد تتغير طبيعته وسلوكه. وتبقى الأم هذا الصدر الحنون الذي يستطيع أن يعود إليه، ويرتمي فيه، ويستقي من ينابيع الراحة والعاطفة والأمان الكامنة في أعماقه.

كانت هذه حال شفيق. فبعد مرور سنوات على رحيله عن أهله، ما فتئ يتتابه إحساس قوي بالراحة والسكينة والأمان وهو في حضن هذه المرأة العظيمة. لقد أيقن الآن أنه ليس ثمة مُسكّن للألم في الدنيا يعادل حضن الأم، ولا يوجد حضن في كامل أرجاء الدنيا يضاهي حضن الأم دفئا وحنانا!

بالأمس البعيد، لم تحظ أمه الحنون، الواقفة أمامه الآن، بفرصة الالتحاق بالمدرسة والتعلم، وهو مصير مشؤوم تقاسمته مع ملايين من نساء الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي الذي ميّزه، فضلا عن سياسة القهر والبطش والعدوان، است شراء الفقر والحرمان والأوبئة والأمية في أوساط المجتمع. لكن هذه الأمية، وإن حُكِم عليها أن تحيا بين قضبانها بقية عمرها، لم تستطع

أن تنال من عزيمتها، ولا من قدرتها على إنجاب أطفال أذكاء متفوقين في الدراسة، نالوا قسطا وافرا من العلوم والمعارف. وإن كان من النتائج الحتمية لهذه الأمية حرمانها من فرصة تعلم لغات أجنبية، بل وحتى لغتها الأم، العربية، لم يمنعها ذلك اليوم من تجاوز حاجز اللغة الفاصل بينها وبين الفتاة النمساوية. فقد تمكنت، بفضل حدسها وملاحظتها وبراعتها ومثابرتها، من التواصل معها بأعلى قدر من الدقة والانسجام والتآلف. فلم تكن في حاجة إلى لغة الكلام، ولا إلى لغة الجسد لإدراك حاجة الفتاة إلى الأكل، أو رغبتها في المزيد من الطعام والشراب..

وبعد الغداء، لم تكن في حاجة إلى كلمات، ولا أصوات، ولا حتى إشارات لتقاسم الأعمال المنزلية معها. إذ قامت إحدهما بجمع الأواني وغسلها، وقامت الأخرى بتنظيف الصالون وترتيب غرفة النوم من غير كلمات ولا إشارات! فمن قال إذا إنّ اللغة مجرد أصوات ورموز؟! كلا، فاللغة أوسع من أن تحصر في مثل ذلك. فالإنسان الذي يستطيع أن يتواصل مع الآخرين بالأصوات والاشارات، يستطيع أيضا أن يتواصل معهم بقلبه وحدسه وعواطفه، وهو ما فعلته والدته اليوم!

ازدادت الألفة بينهما على مرّ الأيام وترسّخت وتطورت إلى ما يشبه الشعور المتبادل بين الأم وابنتها. فأنجلينا، في غياب أمها وأسررتها البعيدتين عنها، وجدت كلّ الاهتمام والرعاية والعطف في هذه المرأة الغريبة، فأحست رفقتها كما لو كانت بجوار أقرب البشر إليها، والدتها،

وهو ما قالت له شفيق بعد أسابيع قليلة من وصولها إلى لندن. وكانت والدته تقاسمها هذا الشعور وتنظر إليها كما لو كانت إحدى بناتها، فلم تكن تدعوها باسمها «أنجلينا» الذي لم تكن تحسن نطقه، ولا تستطيع حتى تذكره، وإنما «يا ابنتي». لقد أدرك شفيق من خلال هذه الصورة المتألفة الجميلة الحية أمامه أن ما يجمع البشر في الواقع ليس أصولاً عرقية، ولا أمجاداً تاريخية، ولا انتماءات وطنية، ولا عناصر ثقافية، وإنما مشاعر إنسانية. وأدرك أنه لا مفرّ للإنسان من احترام الفوارق الموجودة بين البشر، وتقبل الآخر.

صارت «ابنتها» الجديدة هذه تنفق جلّ وقتها برفقتها في البيت. وفي وقت لاحق، مع بداية تحسن الأحوال الجوية باقتراب انجلاء فصل الشتاء وحلول فصل الربيع، أخذت تخرج معها للاستجمام في حديقة ريجنت بارك المجاورة. ولم تكن أنجلينا تخرج من البيت وحدها إلاّ في أوقات قليلة بحثاً عن العمل.

مرّ شفيق بالحديقة بعد خروجه من عمله مبكراً مساء أحد الأيام المشمسة في منتصف شهر آذار، فرآهما جالستين بالقرب من بحيرة القوارب، محاطتين بأشجار صفصاف هرمة تلقي ظلالها عليهما، تأوي جذوعها الضخمة المتآكلة أشكالاً مختلفة من الطيور والخفافيش في هذه الحديقة التي يلتقي فيها نحو مئتي صنف من الطيور المحلية والمهاجرة. تمتزج أصوات العصافير فيها لتعزف على أوتار أشعة الشمس الساطعة أعذب سيمفونية، مرحبةً بحلول فصل الربيع الدافئ بعد رحيل فصل

الشتاء القارس. تتراقص الطيور فرحا ومرحا في الأجواء، فتملأ الدنيا طربا وانتعاشا.

بدت والدته آنذاك غارقة في تأمل الطبيعة الساحرة المحيطة بها. تنحني أغصان الأشجار والشجيرات الخضراء بكسل على ضفاف البحيرة القريبة وتنحدر خُضرُتها نحو مياه البحيرة، فتنصهر في لون طبقات الفطريات المنتشرة فوق سطحها، وتمتزج ولون السماء الصافية، فتضفي على سطحها مزيجا من الأخضر الداكن والأزرق.

وبينما كانت والدته مستغرقة في الاستمتاع بالمناظر البديعة المحيطة بها، غير قادرة على تخليص بصرها من سحرها، كانت أنجلينا غارقة في القراءة كعادتها، بعيدا عن تلك الحديقة وأجوائها المرحّة، محلّقة في أجواء عالم بعيد مختلف مثير، هو عالم (ستيفن كينغ) وروايات الرعب. قالت له والدته عنها متعجبة من أمرها:

«في حياتي لم أرفاة تحب القراءة مثل هذه البنت يا ابني! انظر إليها! هي هكذا منذ أن وصلنا إلى الحديقة، لا تكل ولا تمل! وهي هكذا في البيت في معظم الأوقات! ألا تتعب من القراءة؟!»

«إنها ثقافة هذه المجتمعات يا أمي. كلهم هكذا هنا. هؤلاء الناس يا أمي يصرفون أوقاتا طويلة في المطالعة. ويتعلمون حب القراءة في سن مبكرة. الطفل هنا لا ينام إلا وقد قرأ شيئا! فلا عجب نراهم يقرأون في الحافلة والقطار والشارع وفي كل مكان عندما يكبرون!»

وأضاف مشيرا برأسه إلى أنجلينا وقد لاحت على شفثيه ابتسامة باهتة:
«هذه الفتاة أمامك، لا تمرض من القراءة، بل تمرض حتماً لعدم القراءة!
هذه الفتاة، إن لم تقرأ شيئاً يوماً، شعرت بنقص واضطراب واختناق وأكبر
تعاسة تماماً مثلما نشعر نحن بالنقص والاضطراب والتعاسة إن لم نتكلم!
هؤلاء البشر يدمنون القراءة إدمان بعض البشر التدخين، مع اختلاف كبير: إن
كان التدخين يقتلنا فإن القراءة تحيينا، وتبعث الانتعاش والرفي في مجتمعاتنا!»
«معك حق يا ابني! والله رأيت ذلك بأمر عيني! ما إن وطئت قدمي هذا
البلد حتى رأيتهم يقرأون. كان ذلك في أول قطار ركبته معك في محطة
المطار. عندنا، لا أحد يهتم! ترى الناس يدرسون بغير انقطاع في القطارات
والأتوبيسات والشوارع والمقاهي. والفتاة عندنا، بعدما تفرغ من واجباتها
المنزلية، تنصرف لمشاهدة المسلسلات والأفلام التي لا تنتهي أبداً!
وتصرف وقتها أيضاً في القيل والقال، بلا فائدة!»

لم يكن شغف أفراد هذه المجتمعات بالقراءة والمعرفة هو كل ما أثار
اهتمامها وإعجابها في هذا المجتمع الغريب، بل أيضاً هدوء المواطن
البريطاني والتزامه بالنظام.

لم تصدق عينيها عندما أخذها ابنها إلى موقف الأتوبيسات المحلي،
فشاهدت الناس يقفون في صف واحد في هدوء مذهل. ورأتهم بعد ذلك
يركبون الحافلة تباعاً في هدوء عجيب وانسجام وثيق، الواحد تلو الآخر،
ولا أحد منهم يحاول أن يسبق الآخر. وبمجرد أن يمتلئ الأتوبيس، ينتظر

البقية قدوم الأوتوبيس التالي في طابورهم هذا المنظم، الواحد خلف الآخر. فتساءلت إذا كان هذا الذي تراه حقيقة أم حلما. وإن كان واقعا - وهي الآن في كامل وعيها، لا تشك فيما تراه بعينها - فهل هؤلاء بشر من لحم ودم أم ملائكة منزلون من السماء؟! فالبشر الذين تعرفهم لا يتصرفون كهؤلاء. فهم أساسا لا يعرفون الوقوف في صف واحد منظم كهذا، ولا يستطيعون الانتظار دون حركة، ودردشة، وقيل وقال، وتشككي من هذا أو ذاك، وجدل وفوضى! وعند وصول الأوتوبيس، تسقط قاعدة الأولوية لمن سبق، وتغيب الحكمة والرحمة، وتسود الفوضى، ويتحول الموقف إلى ساحة معركة. فتراهم يتدافعون ويتسابقون من غير مراعاة للضعفاء من الأطفال الصغار والعجزة والنساء! ويتبادلون التهم والشتائم! وتعالى الأصوات والاحتجاجات! وينشب الجدل والخصام! وتعالى نداءات من هنا وهناك داعية إلى التعقل واتقاء الله وخشيته ورحمة من في الأرض ليرحمهم من في السماء، دون طائل! إنه مبدأ البقاء للأقوى أو ما كانت تشير إليه أمه دوما بعبارة «الكبير يأكل الصغير». وإن نسي هؤلاء «اتقاء الله وخشيته» في زحمة المواصلات الخانقة والأسواق المكتظة والحياة اليومية المجهدة، يتداركون ذلك في المساجد التي يلتقي فيها الرجل والمرأة، والقوي والضعيف، والكبير والصغير، والتي كثيرا ما تكون مكتظة بعباد الله.

حتى وسائل النقل، وفي مقدمتها هذه الأتوبيسات الإنجليزية العملاقة، المكوّنة من طابقين والمعروفة بلونها المميز الأحمر، والتي تُعدُّ أحد رموز هذه المدينة وتاريخها والحضارة البريطانية ككل، هي الأخرى أثارت

إعجابها مثلما تثير يومياً إعجاب هؤلاء السياح الذين يحلون بالملايين في هذه المدينة. تراهم يتوافدون على محلات بيع الهدايا حيث يقتنون نماذج مصغرة لـ «باص لندن» الشهير.

باصات حمراء، لا تحصى، تجوب طرقات هذه المدينة الكبيرة، في اتجاهات مختلفة، أضفت بلونها الأحمر رتوشات جميلة على مشهدها. فبدت الشوارع، بكثافتها، كأنها حقول فسيحة تكسوها أزهار الخشخاش الحمراء، تتراقص بتلاتها ونسيم أواخر شهر آذار العليل، وترنح طرباً لحلول فصل الربيع الجميل.

حافلات لها مسار خاص بها في جل طرقات المدينة، تمنع السيارات الخاصة من استخدامه، ما يسمح للأوتوبيسات بتجنب ازدحام حركة المرور. فتراها تنطلق من محطاتها في المواعيد، وتصل إلى اتجاهاتها في المواعيد المحددة، في أغلب الأوقات.

شعرت هذه المرأة بالبهجة والإثارة وهي لأول مرة تركب أوتوبيس رقم ١١٣ في محطة بيكر ستريت في اتجاه شارع أكسفورد ستريت التجاري السياحي وسط لندن حيث ساعدها ابنها وأنجلينا على الارتقاء إلى الطابق العلوي. قالت لابنها وهي تنظر بإعجاب إلى الأسفل، نحو الشارع، عبر زجاج النافذة المضرب:

«أشعر كما لو كنت راكبة على ظهر فيل!»

«هل تصدقين أنه انتابني أنا أيضاً هذا الشعور وأنا أركب هذا الباص العملاق أول مرة!» رد شفيق بشيء من الإثارة، مشاطراً رأي والدته وهو يدرك أنّ أضخم الفيلة في العالم يناهز هذه الباصات علواً.

ومضت الحافلة الشامخة في سيرها في أبهة وعظمة عبر شوارع المدينة المفعمة بالحركة والنشاط والحياة إلى أن دخلت أخيرا شارع أكسفورد ستريت، هذا الشارع الكبير الممتد بشكل مستقيم من محطة مترو (توتنهام كورت راود) إلى محطة (ماربل أرتش) مروراً بمحطتي (أكسفورد سيركس) و(بوند ستريت).

كانت دهشة أم شفيق كبيرة وهي تنزل من الباص فتجد نفسها بغتة وسط أعداد غفيرة من المارة من مختلف الألوان والأجناس العرقية، لا يكاد يسعها الرصيف، تندفق حولها كالأمواج المتتالية بغير انقطاع.

مضى شفيق رفقة أمه وأنجلينا إلى محل (جون لويس) الشهير في قلب الشارع. وعند المرور بقسم العطور، توقفت أنجلينا لاختبار أحد الأصناف الجديدة كانت قد رآته في إشهار. عندئذ، اقتربت منه والدته وقالت:

«أنت تعرف جارنا الحاج حفيظ؟»

«صاحب الفيلا المجاورة لبيتنا؟»

«أجل!»

«ما به؟»

«منزله كبير يا ابني! وبه مرائب تكفي لإيواء عدد من السيارات. ونحن، عندما يزورنا ضيوف مثل أخوالك الذين يقطعون مسافة كبيرة من مدينة سطيف، يضطرون إلى إيقاف سياراتهم في الشارع، وهو حي شعبي غير آمن. زارنا خالك مسعود قبل مجيئي بأسابيع قليلة وترك سيارته في الشارع. تصور يا ابني أنه في ظرف نصف ساعة وفي وضوح النهار وعلى مرأى من الجيران،

سُرقت مصابيح السيارة الأمامية والخلفية معا! والأطفال الذين كانوا حاضرين في الشارع أنكروا مشاهدة أي شيء! نزعها المجرمون، أعداء الله، بسرعة وبمهارة وهربوا ولم يتركوا أثرا!

«طبعاً وجدوا فيها تجارة رابحة! يسرقون قطع الغيار، وبعد ذلك يعيدون بيعها في السوق السوداء!»

«هؤلاء الأشرار، يا ابني، يعيشون من مال حرام، لكنهم لن يفلتوا من عقاب الله!»

على كل حال، بعد هذه الحادثة، يا ابني، تكرم جارنا حفيظ بالسماح لنا بإيداع سيارات الضيوف عنده مؤقتاً. فضله علينا عظيم يا ابني. لهذا فكرت في أن أقتني له هدية بسيطة من هنا.

«هدية بسيطة؟! من هنا؟! مثل ماذا؟» سألتها بنبرة تنم عن دهشة.

«ربما زجاجة عطر صغيرة من هذا المحل. اختر له ما شئت يا ابني، فأنت أدري بعطور الرجال! المهم هدية بسيطة ورخيصة لا تكلف الكثير، لنقوم بالواجب والسلام!» قالت له ذلك وهي تشير بيدها إلى الرفوف المليئة بعطور من مختلف الأصناف والألوان.

«حسناً، حسناً، لم لا يا أمي!» قالها مبتسماً، ثم مديده وتناول واحدة دون أن ينظر إلى صنفها أو سعرها وعرضها على والدته:

«ما رأيك في هذه!»

هزّت والدته رأسها بارتياح.

«لا بأس! العطر الذي تختار! المهم أن يكون سعره مقبولا. كم سعر هذا يا ابني؟»

نظر إلى سعر العطر وكان من نوع (غابرييل شانيل) ثم التفت نحوها وقال وهو ينظر إليها بفضول مترقبا رد فعلها:

« ٥٦ جنيها فقط ».

«بعملتنا يا ابني؟!» صاحت بشيء من الدهشة.

«لا، بالعملة المحلية. يعني حوالي ٧٠٠٠ دج». قال متكلّفا البراءة.

«ماذا قلت؟! يا إلهي!» صاحت مذهولة ثم ألقت بعلبة العطر على أقرب رف بغير عناية وسحبت ابنها من ذراعه وتابعت وعلامات الصدمة تغمر وجهها:

«هل فقدت صوابك يا ابني! هيا، هيا نخرج من هذا المكان! والله لن أبقى هنا دقيقة!»

فصاح شفيق مازحا متكلّفا الجدية:

«وماذا عن جارنا حفيظ؟! وماذا عن فضله وكرمه?!»

«قلت لك دعنا نخرج من هذا المكان الذي لا يليق بنا فورا! والله لن يضع حفيظ هذا العطر الغالي على جسده ما دمت حية!» صاحت وهي تسحبه من ذراعه وهي لا تدري حتى طريق الخروج من هذا المتجر الضخم، متعدد الطوابق والأبواب. وتبعتهما أنجلينا وهي تنظر ببراءة، لا تدري ما يحصل حولها!

وما لبث أن شعر بذلك شفيق، فشرح لها في الطريق ما وقع بتفصيل.
فضحكا معا حتى دمعت أعينهما.

سار شفيق بوالدته إلى الحي العربي المعروف باسم (إيدوار راود) حيث
اكتشفت رفقة الفتاة النمساوية الشاورما والفلافل وأطباق مشرقية أخرى
لأول مرة.

كان لحلول والدته في لندن أثر بديع في نفسه. كأنها شمس تطلُّ عليه فتبدّد تلك السحب القاتمة التي كانت تغشى بصره وتملاً خاطره، أو كأنها نبراس منير يبدد الظلام من حوله، ويبعث الدفء فيه، أو كأنها ملاك نزل عليه من السماء، فأفعمه راحة وهناء، وملأ بيته ضياء وبهاء.

يسبح بذاكرته إلى الماضي القريب. لطالما انقبضت نفسه وهو يسير بخطى مثاقلة مترددة نحو بيته بعد خروجه من عمله. كان آنذاك يشعر كما لو أطلق سراحه من سجن العمل فراح يزج بنفسه في سجن آخر مماثل، هو سجن منزله، بمحض إرادته. وخلف جدران ذلك البيت، كان يجلس وحيدا مكتئبا، لا يستأنس إلاً بأنفاسه وهمساته وظلال الأشياء المحيطة به المنعكسة على الجدران عبر الأضواء الخافتة. كان بعض هذه الظلال يترأى له في هيئة أشباح. كان في البداية يرتاع منها كلما شاهدها. ومع مرور الزمن، تعايش معها، وتعوّد عليها، فلم يعد يقوى على الجلوس في عتبة بيته دون مشاهدتها، والاستئناس بها.

وها قد امتلأ بيته الموحش حياة وانتعاشا بزيارة والدته. لم يعد يقوى الآن على الانتظار والصبر للانصراف من العمل والعودة إلى كنف بيته

وحضن والدته. لقد تحوّل المنزل إلى روضة ساحرة يرتوي فيها من ماء الحب والحنان العذب المتدفق من حضنها بغير انقطاع.

صار يسابق الزمن لملاقاتها ومجالستها والحديث معها في البيت، أو الخروج معها إلى المطاعم أو الأسواق أو الحدائق الكثيرة في هذه المدينة، في أوقات. لكنّ الأوقات الجميلة الممتعة في الحياة أحيانا تفلت من أيدينا في لمح البصر ودون أن نشعر بها، تماما كما يفلت الرمل بين أصابع اليد. فها هي والدته اليوم تذكره بقرب موعد رحيلها عنه وعودتها إلى أرض الوطن.

«لابد أن أنزل إلى الجزائر! الأمر أقوى مني يا ابني. لم أكن أتصوّر أن أمضي كل هذا الوقت بعيدا عن إخوتك وأخواتك. هم جميعا في أمس الحاجة إلي. وكلما تحدثت معهم بالهاتف، سألوني عن موعد الرجوع». قالت له في صوت حزين انعكس أثره على الأجواء المحيطة به.

ورمقته ببصرها المتأثر فترأت لها ملامح الأسف في وجهه. فتابعت في صوت متأثر حاولت إخفاءه بابتسامة باهتة:

«لكني على كل حال أمضيت ما فيه قدر الكفاية معكما. ولا شيء يمنعني من العودة لزيارتك يا ابني! المسافة قصيرة بالطائرة كما تعلم...».

كان شفيق يعلم أنّ المسافة الفاصلة بين الجزائر ولندن أقل من ثلاث ساعات جوا. لكن أحيانا في الحياة، قد تكون فرصة لقاء أشخاص يسافرون إلينا من أماكن بعيدة، ولا تربطنا بهم علاقات حميمة، أكبر من لقاء أشخاص

أقرب إلينا مسافة وفكرا وإحساسا، أبى القدر إلا أن يقيم جدراننا عالية بيننا،
ويزرع العقبات في طريقنا، بدلا من مد الجسور بيننا وجمع شملنا.

كان يدرك أنّ عودة والدته إلى لندن لن تتجسد في الواقع إلاّ بموافقة
أهله، وبقدرتها على السفر وهي اليوم تتقدم في السن وتعاني جملة من
الأمراض قد تمنعها من السفر. ولا تتجسد هذه الرحلة القصيرة إلاّ بأموال
طائلة ليست في متناول بسطاء مثل أهله. ولا تتجسد إلاّ بتقديم طلب التأشيرة
وموافقة السفارة البريطانية في وقت تشهد فيه الجزائر فرار آلاف المواطنين
من شرارة العنف المتصاعد في حرب الجزائر الأهلية وتدفعهم على بلدان
أوروبا ومنها بريطانيا التي صارت وجهتهم المفضلة.

تدفع اللاجئين الجزائريين على أوروبا حمل حكومات هذه البلدان على
تشديد إجراءات منح التأشيرة خوفا من مكوثهم في أراضيها. وقد بلغ الأمر
حد رفضها طلبات مواطنين متقدمين في السن في مقام والدته.

كان يعلم أنه لا مفر له من تقبل واقع جديد سينكشف أمامه بعد أيام
قليلة لن تكون والدته الحنون جزءا منه. وفي لحظات الضيق هذه، اختار
الآّ يفكر في المستقبل وفي موعد رحيل والدته حتى لا يعيش المأساة قبل
وقوعها، والمعاناة من آلام وأحزان قبل أوانها. كان يؤمن أنّه ما زال أمامه
وقت للاستمتاع بالحاضر، الذي ما زالت توجد فيه والدته بجانبه حتى وإن
كان قصيرا. فما عليه إلاّ أن يزيح المستقبل من ذهنه وأن يعيش لحظات
الحاضر إلى آخر لحظة منها رفقة والدته، بعيدا عن متاعب الغد التي لم
يحن موعدها بعد!

وها هو الآن يصرف اهتمامه إليها. فبعدما كان يقسّم وقته بينها وبين أنجلينا، صار كل وقته تقريباً ملكاً لها، على حساب فتاة نمساوية هي أيضاً غريبة في هذه الديار مثل والدته ومثله تماماً، لا تملك أحداً غيره في هذه الديار.

بدأ يلح في عيني أنجلينا غيوم السّامة والشجن كلما نظر إليها وهو قريب منها بجسده، بعيد عنها بوجدانه. كانت نظرتها الحزينة تشعره بالذنب والألم، لكنه كان يشعر أنّ أمه أولى باهتمامه الآن لأنها سترحل عنه خلال أيام وستبقى أنجلينا.

كان يسعى لإقناع نفسه أنّها مجرد أيام قليلة وسيعود إليها وسيمنحها كل وقته واهتمامه.

لكن هذه اللحظات الأخيرة التي كان يرغب في الاستمتاع بها رفقة والدته لم تكن مثلما كان يتوقع ويرغب. بدت مختلفة عن كل الأوقات السابقة التي صرفها بجوارها منذ وصولها.

في الماضي، كان لقاءها، بعد عودته من العمل، يبدد كل العناء والإحباط المتراكمين في نفسه. وكانت مجرد نظرة أو ابتسامة منها تملأ صدره راحة وسعادة ومتعة. واليوم، لا يدري لماذا صارت نفسه تنقبض وروحه ترتاع كلما اقترب منها! حتى ابتسامتها الجميلة المشرقة التي كانت تنير الدنيا أمام عينيه، وتفعم نفسه مسرة ومتعة وإثارة تحولت بغتة إلى خنجر حاد يمزق فؤاده، ويميته إماتة بطيئة مؤلمة!

أيعقل أن تكتنف مثل هذه اللحظات الثمينة غيوم الكآبة والغم على هذا النحو؟!

أحدث هذا كله لأنه يدرك في أعماق نفسه أنّ موعد رحيل أمه الحنون يقترب، رغم كل ما كان يبذله من جهد لصده هذه الأفكار؟! لقد صار يدرك الآن على الرغم منه أنّ هذه الأوقات التي يعيشها رفقة والدته ليست إلا ساعات وداع وسحابة عابرة أو ربما مجرد سراب سيتلاشى من أمام بصره قريباً!

صار مجرد التفكير في هذا الفراق الوشيك يملأ نفسه حيرة وهما. وفي غمرة التيه، يعود بذكرته إلى الوراء:

أيعقل أن تكون قد مرت على وصولها شهور طويلة؟! كيف مضت؟! وكيف انتهت؟! لا يدري! ولا يدري حتى لماذا كان يخيّل إليه أنها وصلت قبل أيام، لا قبل شهور!

سريعة هي الحياة، تمرّ علينا لحظاتها الثمينة ولا نشعر بها، وبعد ذلك، يظلّ طيفُ الذكريات ساكناً فينا، يعبث بأفكارنا، ويتسلّى بمشاعرنا في أوقات وحدتنا وفراغنا إلى آخر لحظة من لحظات عمرنا!

حتماً، سيعود إلى هذا المكان، الذي يجالس فيه والدته الآن ثانية، وسيجلس فيه، ويجيل نظره حوله متطلّعا إلى لقاءها مثلما كان يفعل في كل ليلة خلال الأشهر الماضية. وهذه المرة لن يراها! وسيبدو له هذا المكان كئيباً من غيرها، كآبة أشجار البساتين اليابسة البائسة في فصل الشتاء بعد زوال ثمارها، وتساقط أوراقها!

سيحن إلى مشاهدتها، ومعانقتها، ولمس ذراعيها وخديها. وسيحترق رغبة في مجالستها، والتحدث معها والإصغاء إلى قصصها كما كان يفعل

أيام الصبا. ولن تكون هناك! ومن خلف ضباب الفراغ واللاشيء، ستلوح له صورتها تحييه من بعيد، وتحديثه بصوت لا يسمعه، وتردد بين شفتيها كلاما لا يفهمه، كما لو كان بينهما أسوار من زجاج.

وأخيرا آن الأوان المحتوم لرحيلها في نهاية ذلك الأسبوع، فرافقها إلى مطار هيثرو من حيث أتت أول مرة. في ذلك اليوم، مع أنّها وصلت في أجواء شتوية ممطرة باردة، بدت الدنيا مشرقة في عينيه المشتاقين إلى رؤيتها، والمتطلعيتين إلى الاطلاع على أحوال الأسرة والأوطان. واليوم رغم أجواء أواخر فصل الربيع الدافئة ورغم أشعة الشمس الساطعة في سماء المدينة والمتدفقة إلى داخل عربات القطار عند خروجه من الأنفاق إلى السطح بالقرب من محطة (إرلز كورت)، بدت الأجواء حالكة، كئيبة! وكأنّ سماء لندن الزرقاء والمشرقة في ذلك اليوم أبّت إلاّ أن تلبس ثوب الحداد الأسود حزنا لرحيلها.

في المحطة الثانية لمطار هيثرو الدولي وبعد الانتهاء من إجراءات التسجيل وشحن الأمتعة، سار شفيق رفقة والدته نحو بوابة المغادرة حيث أوقف إحدى الأسر الجزائرية المسافرة إلى الوطن، فأوصاها بمساعدة والدته على الوصول إلى بوابة السفر في هذا المطار الضخم والأكثر ازدحاما في العالم.

كان مشهد الوداع دراميا أمام الأنظار المتعاطفة لأفراد تلك الأسرة المسافرة ومسافرين آخرين توقفوا لمتابعة الحدث المؤثر. عانقت الأم

ابنها والدموع تنهمر من عينيها ورددت بصوت مبحوح مختنق وهي تلج في
البكاء لحظة الرحيل:

«اعتني بنفسك يا ابني ولا تنس إخوتك المساكين!...».

غادر شفيق المحطة بائساً منهاراً يتردد صوتها الشجي في أذنه فيملاً
الدنيا من حوله ظلاماً، ونفسه ألماً. صار سفر والدته إلى الجزائر بشكل
ما يُقرن في ذهنه بقصة (أليس في بلاد العجائب) وسقوط الفتاة في حفرة
الأرنب وسفرها إلى عالم آخر بعيد غريب الأطوار يعرف باسم «بلاد
العجائب». فبعد ساعات، ستنزل أمه في بلاده البعيدة التائهة في متاهات
حرب أهلية دامية لا يعرف لها آخر والتي صارت مع مرور الوقت أشبه
ب«بلاد عجائب» يروي القادمون منها والنازحون من أهوال عنفها أغرب
حكايات الفوضى والخراب، وأروع مشاهد العذاب والموت الشنيع الذي
لا يسلم من نيرانه وخنجره أحد.

قفّل إلى البيت ناكس البصر، منقبض الصدر، يفكر في والدته، وفي ألم
الفراق هذا الذي يغمره من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه. لطالما تردد
على مسامعه أنّ الزمن هو الشافي. لكن ألا يستطيع الإنسان، بما يملكه
من عقل مفكر، أن يجد علاجاً طبيعياً بسيطاً ولو مؤقتاً لداء الألم يوفّر عليه
مشقة الانتظار؟!

يمعن النظر في مبدأ اللذة والألم والعلاقة الوثيقة بينهما فلا يتأخر عن
ملاحظة ما للألم من فوائد. فلو لا الألم لما كان في وسع الإنسان إدراك معنى

اللذة والاستمتاع بها. ويفكر في مصدر الألم الذي يعيشه الإنسان، فيرى أنه غالبا ما ينبع من الواقع الذي يعيشه. فإن لم يكن في وسع الإنسان أن يتجنب الشعور بالألم، كان باستطاعته التخلص من آثاره بالهروب من الواقع المرير، ولو لوقت قصير، ليسبح قليلا في دنيا المتعة. فكل ما يحتاجه الإنسان في لحظات الضيق والقلق والخوف هو أن يشل فكره، ويجمّد عواطفه، ويسلو العالم كله، وينغمس في الملهذات مثلما يحلو له، دون التفكير في شيء أو في أحد. فذلك خير سبيل للعلاج والنجاة. وهذه المرة لحسن حظه لن يحتاج إلى الذهاب بعيدا للبحث عن هذه المتعة. فهي قريبة منه وفي عقر داره.

كانت أنجلينا في المطبخ منشغلة بغسل الأواني على أنغام موسيقى كلاسيكية هادئة على أمواج محطة (كلاسيك أف أم) البريطانية تنبعث من جهاز الراديو الموصول بالكهرباء في الركن المقابل.

«شعرت بكثير من الوحدة اليوم في غياب والدتك». قالت في صوت حزين وهي ما تزال منهمكة في عملها. «تعودت على مشاهدتها في هذا البيت إلى أبعد حد! أشعر بالحزن لرحيلها».

«أنا أيضا أشعر بالحزن لرحيلها. وأشعر أيضا بشيء من التقصير تجاهها. كان علي ربما أن آخذ إجازة وأصرف مزيدا من الوقت رفيقتها! كان علي ربما أن أخذها إلى أماكن كثيرة شهيرة في هذه المدينة لم تزرها! لكنني لم أفعل! اللعنة!»

«لا أتصور أنك قصرت تجاهها. كل ما في الأمر أنك كنت تحاول التوفيق بين عملك وبيتك. وخرجت والدتك معك مرات عديدة. آخرها

كان الأسبوع الماضي عندما زرنا معا (متحف العلوم) الشهير في (ساوث كنسينغتن). ثم والدتك كانت تفضل المكوث في البيت ولم تكن ترغب في الذهاب إلى أي مكان في المدينة، عدا الحديقة المجاورة حيث كانت تحب الجلوس بالقرب من البحيرة، مكانها المفضل!»

«حق ما تقولين أنجلينا! لكن لست أدري! الأمر أقوى مني! لا أصدق أن والدتي كانت رفقتنا خلال أشهر طويلة! أتت ورحلت في لمح البصر! كما لو أنها لم تأت أبدا! أشعر أنني لم أستمتع بالجلوس بالقرب منها بقدر الكفاية وهذا هو سبب شعوري بالذنب!» قالها وهو يقف على عتبة باب المطبخ، ثم سار نحوها بهدوء ومال عليها يحضنها من الخلف بحنان فياض. وتابع في صوت هادئ هدوء سيمفونية (ضوء القمر) ليهوفن المنبعثة من المذياع ويدها تلامسان شعرها الحريري ثم كتفيها وتنزلان بعد ذلك إلى خصرها الرشيق:

«أشعر أيضا بالتقصير نحوك أنجلينا. أشعر أنني انشغلت عنك كثيرا في الفترة الأخيرة. لكن أعدك أنني سأعوضك عن ذلك! لن أتركك وحدك من الآن فصاعدا!» قال ذلك في صوت واثق مسندا رأسه برفق على كتفها. وارتفعت يده وراحتا تلامسان ثدييها والفتاة صامتة لا تحرك ساكنا. ومن صدرها نزلتا برفق نحو فخذيهما فسحبتا فستانها الأزرق الفاتح شبه الشفاف نحو الأعلى فبلغتا خيوط لباسها الداخلي الناعم. التفتت أنجلينا نحوه مبهدة يديها المبللتين بالماء والصابون وقالت بنبرة تنم عن تعجب وعتاب:

«كل ما قلته جميل! لكن، قل لي! ماذا تفعل الآن؟!»

«لا شيء! أداعبك فقط. فلا تقلقي حبيبتي». قالها وهو يطبع قبلات خفيفة ناعمة على عنقها.

«لا أعتقد الوقت مناسباً! ربما فيما بعد! انظر إلى يداي المتسختين، وإلى هياتي!» قالت له في صوت يغلب عليه الضجر.

أمسك شفيق بيديها المبللتين ومسحهما برفق في قميصه وقال لها وقد أشرقت في عينيه ابتسامة غامضة غموض سلوكه:

« دعيني أقول لك شيئاً أنجلينا! لا شيء في الدنيا يؤثر في جمالك وسحرك! نظرتي إليك لن يؤثر فيها اتساخ يديك أو ثيابك أو عدم قيامك بتهيئة نفسك أو أي شيء آخر قد يخطر ببالك! بالعكس، قد أجد في ذلك متعة! ولا تستعربي إذا قلت لك إنني الآن وفي هذه اللحظة التي أحدثك فيها أشعر بإثارة ومتعة لا توصفان وأنا أشاهدك في هذه الحال وفي مثل هذه الفوضى! أجل يا أنجلينا! أحياناً نحتاج إلى أخذ الأمور ببساطة، وإلى ترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي، وإلى أن نكون جميعاً طبيعيين وعفويين...

«BE SPONTANEOUS,

NEVER BE AFRAID TO TRY NEW THINGS

OR FIND NEW WAYS.

DON'T LET OVERPLANNING AND ROUTINE POISON

YOUR LIFE».

(كن عفويا، لا تخشى أبداً تجريب أشياء جديدة، وإيجاد طرق جديدة. ولا

تدع الإسراف في التخطيط والنظام الروتيني يسممان حياتك)

وتنهّد ثم تابع:

«لست أدري أنجلينا.. لكني أحيانا أفضل هذه التلقائية! وأشعر أنّ الأشياء التي نفعلها بشكل طبيعي عفوي تمنحنا متعة وسعادة أكبر من الأشياء التي نرتب لها ونحسب لها ألف حساب.. أجل، يا أنجلينا، فالأشياء المثيرة في حياتنا هي تلك التي نفعلها لأول مرة وليس تلك التي نتعوّدها ونفعلها بشكل آلي. والأماكن المثيرة في الدنيا هي تلك التي نكتشفها لأول مرة وليس تلك التي نحيا فيها أو نعود لزيارتها للمرة الألف!»

نظرت أنجلينا إلى هذا الفتى بدهشة دون أن تنبس. بدا لها غريبا مختلفا عن كل البشر. فهذه أول مرة تصادف رجلا لا يحفل بالفوضى والوسخ ويرى في ذلك متعة وإثارة وهو من كان يؤمن بشكل غريب أنّ الإنسان قد يجد في الأشياء القذرة، من المتعة والإثارة والجمال وراحة البال، ما لا يجده في الأشياء الطاهرة!

وسرعان ما قطع هذا الغريب حبل تفكيرها بأن ضمها إلى صدره ووضع شفثيه على شفثيه في قبلة طويلة لم تجد بدا من التفاعل معها بعينين مغمضتين. وأمسكها من فخذيهما بكلتا يديه ورفعها فوق السطح المجاور للحوض المبلل فاتحا رجليها بقوة جعلتها تفقد شيئا ما توازنهما، مندفعاً بكل ثقله بينهما. فانحنت إلى الخلف ولفت ساقيهما حول وسطه مستسلمة لسلطان إثارته وتلقائيته والوحش الجنسي المفترس الساكن فيه.

دخلت أنجلينا غرفة النوم بعد استحمامها وهي ترتدي منامة رهيقة قصيرة.

وجدت الغرفة - التي سبقها إليها شفيق - تميل إلى العتمة، وقد أضيئت بشمعة كبيرة فاخرة، يميل ضوءها إلى اللون الأحمر القان. أضفى ذلك المشهد على المكان أجواء رومانسية مميزة أثارت إعجابها.

«واو، واو! يا له من منظر روماني جميل! ما الذي طرأ؟!» صاحت وهي تستلقي على مهل في السرير بجانب شفيق الذي كان متمددا على ظهره، وكان يرتدي سترة خفيفة دون أكمام وشورت، وكان يبدو مسترخيا، مستريحا، مستمتعا بدفء الغرفة وسكونها.

«كل هذا لأجلك يا أنجلينا».

«لم أكن أدري أنك روماني إلى هذا الحد!» صاحت متعجبة.

ضحك شفيق عاليا ملتفتا نحوها محاولا تبيين ملامحها في ضوء الشمعة الخافت:

«أنا آسف إن لم أظهر رومانيتي قبل هذه الليلة! كان علي أن أجمّد مشاعري قليلا أثناء زيارة والدتي. كان الأمر أقوى من إرادتي. واليوم لم أعد

قادرا على حبس هذا البركان المتأجج في نفسي! أنا من الآن فصاعدا متفرغ لك وأريد أن يكون كل يوم مميزا!»

«أنا بذلك محظوظة بلا شك!» ردت ضاحكة.

«محظوظة وتستحقين كل السعادة!» قال لها ذلك واستلقى على ظهره من جديد واضعا يديه تحت رأسه.

«أنا، يا أنجلينا، أعيش في هذه المدينة العظيمة منذ سنوات، ومع ذلك لم أزر بعد معالمها السياحية! ببساطة لأنني كنت أقول في نفسي لن يفوت الوقت أبدا لزيارتها ما دمت أعيش في هذا البلد. ومرت السنين ولم أر شيئا! السائح، يا أنجلينا، الذي يزور المملكة المتحدة أفضل مني لأن وقته محدود يحاول استغلاله لاكتشاف ما أمكن. فخلال أيام معدودة يقضيها في لندن، يكتشف عن هذه المدينة وتاريخها وحضارتها ما لم أكتشفه أنا خلال سنوات! ويرحل عن هذه المدينة وهو يعلم ما لم أعلمه عنها خلال سنوات طويلة في هذه البلاد! ما منعني من زيارة هذه الأماكن أيضا هو عدم وجود حافز لأنني كنت وحيدا. واليوم أنت معي! أنت حافزي! سنكتشف معا أسرار هذه المدينة العريقة!» قال ذلك والتفت نحوها ثانية ليتبين ردة فعلها. ارتسمت نظرة ارتياح على وجهها وهي تسمع كلامه. وسرعان ما تغيرت ملامحها وخيمت عليها غيوم الحيرة:

«يسرني حقا اكتشاف هذه المدينة رفقتك. لكن، أنتظر قليلا! أنا في بداية المشوار في هذا البلد وأحتاج بعض الوقت للعمل والتأقلم!»

«للعمل؟!»

«أجل، للعمل. كنت سأخبرك أنني وجدت فرصة عمل نادرة في مطعم صيني في شارع (بيكر ستريت) ولي مقابلة غدا مع مدير المطعم».

«يا له من خبر سار! سعيد بسماع ذلك! هنيئا لك!»

«شكرا! لكنني أخشى أن تتعارض مواعيت عملنا فلا نجد ما يكفي من الوقت للخروج معا».

«لم أفهم!»

«أنت، يا شفيق، تعمل في النهار. أما عملي فيكون من الساعة الثانية بعد الظهر إلى العاشرة ليلا. وأعمل أحيانا نهاية الأسبوع. فلا أدري كيف سنوفق إن فزت بهذه الوظيفة غدا!»

«لا شيء مستحيل أنجلينا! سنجد حلا معا، فلا تقلقي! ركزي الآن على المقابلة فقط! أهم شيء الآن هو حصولك على المنصب، ما يسمح لك بالاستقرار في هذه المدينة».

في اليوم التالي، خرجت أنجلينا لحضور مقابلة الشغل وهي تشعر بقلق في هذه التجربة الأولى لها في عالم الوظيفة. وفي المساء، عاد شفيق إلى البيت بعد انصرافه من عمله ولم يجدها هناك مثلما تعود كل يوم، فانشغل باله وراح ينتظرها على أحر من الجمر وهو لا يملك وسيلة للاتصال بها والاطمئنان عليها. وبعد الساعة العاشرة ليلا، عادت إلى البيت يفيض وجهها بشرا وإثارة.

«لقد حصلت عليها!» صاحت وهي تحضن شفيق الذي هبّ للقائها والاطمئنان عليها. «نعم! لقد حصلت عليها!»

«هنيئاً لك أنجلينا! لكن أين كنت كل هذا الوقت؟! كنتُ لساعات طويلة قلقاً عليك، لا أعرف حتى اسم المطعم وعنوانه لأبحث عنك!» صاح بنبرة يغلب عليها التأنيب.

«أسفة عزيزي! تأخرت لأنّ صاحب المطعم أمرني بالشروع في العمل مباشرة بعد المقابلة، ولم أفرغ من العمل إلاّ قبل نصف ساعة من الآن. المطعم يدعى (رويل تشاينا) في شارع بيكر ستريت وهو قريب من أكسفورد ستريت». قالت ذلك ثم مدت يدها إلى حقيبة اليد فأخرجت منها ورقة نقدية بقيمة خمس جنيهات ومجموعة من القطع النقدية المعدنية ووضعتها على الطاولة وصاحت بإثارة:

«تصوّر أنني حصلت على هذه النقود هبة من الزبائن! الآن أصبحت ثرية! سأستعمل هذا المبلغ لدعوتك إلى أكلة خفيفة في مكان ما في أقرب وقت ممكن للاحتفال بحصولي على أول وظيفة في حياتي!»
«من دواعي سروري! كيف لي أن أرفض دعوة كهذه أنجلينا! هذا من لطفك!» ردّ مبتسماً.

«لكن، أين نذهب؟ أين نأكل؟ أخبرني!» قالت ذلك بسرعة وإثارة.

«لست أدري، ربما في وسط المدينة...».

«أين في وسط المدينة؟ في أي مطعم؟ أخبرني!» أضافت بإثارة لم يعهدها فيها. فصاح فيها مبتسماً:

«واو، واو، واو! هوني عليك أرجوك! لست أدري ولست أرغب في التفكير والتخطيط في مثل هذه الساعة.. سيكون الأمر بلا شك أكثر إثارة إن تريشنا وتركنا ذلك للمصادفة وعدم التخطيط!»

في نهاية الأسبوع توجهنا نحو وسط لندن من غير تخطيط، مثلما كان قد اقترح عليها. كانت الساعة تقارب السابعة والنصف عندما خرجنا من محطة ليستر سكوير حيث سارا وسط الجماهير الغفيرة التي كانت تملأ الأحياء، باتجاه (المدينة الصينية) المعروفة باسم (تشاينا تاون)، أحد المعالم السياحية الشهيرة في لندن، في شكل مدينة صغيرة أسسها رجال أعمال صينيون في مطلع القرن العشرين، معروفة بالمطاعم الصينية والكانتونية، والأسواق التجارية المختصة في المنتجات المستوردة من الصين، ومراكز التداوي بالأعشاب، والهندسة المعمارية، والأجواء الصينية المميزة فيها. ومعروفة أيضا بأحد أكبر الأحداث في العاصمة البريطانية وهو احتفال رأس السنة الصينية السنوي، ويتم بمرور مواكب ملونة تشارك فيها عشرات الفرق، وتخللها رقصات التنين والأسود الصينية، ويحضرها نحو نصف مليون شخص. وهي أيضا أحد رموز التنوع الثقافي الذي يميز العاصمة لندن، هذه المدينة العالمية العريقة التي تجتمع فيها كل الأجناس البشرية وتتعايش فيها كل الديانات. توقف شفيق وأنجلينا أمام واجهة أحد المطاعم الكانتونية وتفقدنا قائمة الأطباق المعلقة عليها.

«ما رأيك في طبق دجاج حلو وحامض (سويت أند ساور)؟» صاح مقترحا.

«ماذا! كيف يجتمع الحلو والحامض في طبق واحد؟! غير معقول!» قالت مندهشة.

«أوكي، أوكي! أفهم ذلك! وماذا عن طبق أجنحة دجاج بصلصة الصويا؟»

«يبدو أفضل من الأول، لكنني لست واثقة! لأنني لم أجربه من قبل!»
«حسنا، حسنا! وماذا عن طبق نودلز بصلصة الفاصوليا السوداء؟» قالها
وقد بدأ يفقد صبره.

«ذلك أفضل بكل تأكيد! لكن ماذا لو لم يعجبني طعم هذه الصلصة؟»
قالت والحيرة بادية عليها.

«أوكي، أوكي، لا تقلقي!» قال لها وهو يسحبها من ذراعها. «أعتقد أنني
وجدت الحل! لن أطلبك باختيار طبق ما قد لا يعجبك! يهمني رضاك!
سأخذك إلى مطعم يعرض عليك كل هذه الأطباق وأكثر وأنت تختارين منها
ما تشائين! ما رأيك؟»

سار بها إلى أحد المطاعم المكتظة بوسط الحي يعرض خدمة البوفيه
المفتوح. فتوقفا أمام طاولة البوفيه الممتلئة بشتى أصناف المأكولات
الصينية، تنهافت عليها جموع غفيرة من الزبائن كما تنهافت النسور الجائعة
على الفريسة. قال لها وهو يشير إلى الأطباق المتنوعة.

«خذي من هنا ما شئت وكلي ما استطعت! كل ذلك مقابل سعر محدد!»
«لكن هذا المطعم أغلى؟!» سألته وهي تبدو منشغلة. فربّت على كتفها
بلطف محاولا طمأنتها.

«دعك الآن من الحسابات واستمتعي بالطعام! هؤلاء الناس هنا ليسوا
أفضل منك ومني! إذا كانوا يستطيعون الدفع فنحن أيضا نستطيع!»

لم يكن المطعم مريحا تماما. كان مزدحما، فكان من الضروري تقاسم إحدى الطاولات المستديرة الكبيرة مع زبائن صينيين وأجانب، فتعالت من حولهما الأصوات والضحكات، وامتزجت اللغات، وعمّ الصخب، فتعذّر عليهما الحديث براحة. التهم شفيق طعامه بشهية. كان يعرف تلك الأطباق المعروضة حق المعرفة، فراح ينتقي منها ما يروقه عكس أنجلينا التي لم تكن متعوده على مثل هذه الأطباق، فغالبا ما كانت تنظر إليها بتقزز. وفي نهاية الأمر تركت صحنها ممتلئا عن آخره. لاحت الدهشة في عينيها عندما شاهدت فاتورة الأكل مسجلا فيها مبلغ ١٩ جينه. همّت بإخراج المبلغ من حقيبتها، ولم يكن في واقع الأمر يتجاوز نصف المبلغ المسجل في الفاتورة، لكنّ شفيق سبقها إلى الدفع.

قالت له بشيء من الكبرياء وهما يغادران المطعم:

«شكرا لك على ما فعلت، لكن هذه دعوتي وليست دعوتك. سأرد لك المبلغ»

فردّ مبتسما وهو يمسكها من يدها:

«لا تقولي ذلك أرجوك! لا فرق بيننا! أنا أعمل وأقبض، وأنت بدأت الآن

فقط ولم تتقاضى راتبك بعد! أعدك أنني سأترك الدعوة القادمة لك! هذه الوجبة أقل وأبسط ما يمكنني أن أقدمه لك الليلة أنجلينا! فأنت تستحقين أكثر من هذا بكثير!»...

أخذت أنجلينا موضوع الدعوة مأخذ الجد وعقدت العزم على التكفل بدفع الفاتورة المرة القادمة. والمرة القادمة ستكون مباشرة بعد حصولها

على راتبها الأول. وفي انتظار، ذلك كان عليها أن تجتهد للتعلم والتأقلم في أول وظيفة لها في حياتها.

ومع أنها لم تكن تملك أي تجربة أو خبرة، فقد استطاعت خلال وقت قياسي أن تكسب معرفة ومهارة وأن تتأقلم مع ظروف العمل وأن تنسجم مع الزملاء وأن تنال ثقة أعضاء الإدارة بفضل انضباطها وتفانيها في العمل. كان من مهامها استقبال الزبائن، وتوجيههم إلى المائدة، وأخذ طلباتهم والسهر على خدمتهم.

سُرت بهذه الوظيفة التي صارت تشغل بها وقتها. كما سُرت بمزايا مثل الحصول على بقشيش من الزبائن والأكل المجاني في المطعم. لكن، مثل كثير من الوظائف الأخرى، لم يكن عملها هذا يخلو من المساوئ مثل ازدياد ضغط العمل عند ازدحام المطعم بالزبائن في أوقات مثل نهاية الأسبوع لا سيما مساء الجمعة والسبت عندما يتدفق الناس على شوارع المدينة للتجوال والأكل في المطاعم.

أنجلينا كانت تشتكي أيضا من التعب من شدة الوقوف أثناء قيامها بمهامها.

كان عملها هذا يتطلب منها الوقوف لانتظار الزبائن.. والوقوف لاستقبال الزبائن.. والوقوف أثناء توجيه الزبائن إلى المائدة.. والوقوف في انتظار جلوسهم.. والوقوف أثناء تقديم المأكولات والمشروبات.. والوقوف لرفع الأطباق الفارغة.. والوقوف أثناء تناولهم الطعام ودردشتهم الطويلة.. والوقوف في انتظار أي طلبات جديدة ممكنة في أي

وقت يختارون، أو ربما لمجرد تشكي وطلب تغير أطعمة أو مشروبات لم تكن عند حسن ظنهم، في مجتمع أوربي يقدر خدمة الزبون، ويسعى دائما لإرضاء الزبون، ويبقى شعاره دائما: «الزبون أولاً»، وتبقى تلبية رغبات الزبون في الاعتبار الأول والأخير.

أنجلينا وجدت صعوبة أيضا في التواصل مع الزبائن. كثير من هؤلاء لم يكن يحسن اللغة الانجليزية، مع أن بعضهم يعيش في هذا البلد منذ عقود طويلة. فكانت في أوقات كثيرة تلجأ إلى إحدى زميلاتها الصينيات العاملات في هذا المطعم، لترجم لها أو تنوب عنها فتؤدي الواجب في مكانها.

ولعل عيب هذه الوظيفة الأكبر هو راتبها المتدني الذي لم يكن يتعدى ٩٥ جنيه في الأسبوع، وهو مبلغ لا يكفي لدفع إيجار شقة في وسط مدينة معروفة بارتفاع تكاليف العيش فيها مثل لندن أو تغطية تكاليف النقل الباهظة فيها.

فكانت تتطلع إلى ما تقبضه من بقشيش من هذا وذاك في نهاية العمل عساها تعوّض شيئاً من العجز في الراتب. وكانت، من ناحية أخرى، تعوّض شيئاً من هذا العجز أيضاً بفضل تقاسمها الشقة مع شقيق وعدم حاجتها إلى وسائل المواصلات في تنقلها بين البيت والعمل لقرب المسافة.

رغم تدني راتب أنجلينا في عملها الجديد، إلا أنه كان يفوق راتب شفيق الذي كان يعمل لساعات أطول ولم يكن راضيا على ظروف العمل وكانت علاقته بأصحاب المطعم في توتر مستمر إلى أن بلغت في آخر الأمر طريقا مسدودا. كان ذلك في أواخر شهر يوليو حيث عاد إلى البيت خائب الأمل، محطم الوجدان على إثر نقاش حاد بينه وبين صاحب العمل.

في وقت لاحق، دخلت عليه أنجلينا بعد عودتها من الشغل، فإذا هو جالس في الصالون معتمدا يده على خده. بدا متغير اللون، مكروب النفس، غارقا في التفكير كما لو كان يحمل هموم الدنيا كلها في صدره، فسألته في دهشة:

«لا تبدو على ما يرام! ماذا حصل؟!»

«مشاكل الشغل فقط، فلا تهتمي!»

«مشاكل الشغل! لكن هذه ليست أول مرة تصادف فيها مشاكل في العمل. لم أرك في مثل هذه الحال من قبل! ماذا جرى هذه المرة؟!» سأله بحيرة وحدها يقول لها إن شيئا ما أكبر قد حصل هذه المرة.
«لا أريد أن أصدمك، لكن هذه المرة طُردت من عملي..».

«ماذا! طُردت من عملك! يا إلهي! هل أنت جاد فيما تقول؟!» سأله وهي تبدو عاجزة عن استيعاب الخبر.

«هذا صحيح أنجلينا، لكن لا أظنني أرغب في الاستمرار في مثل هذا العمل!» قالها بشيء من التوتر.

«لكني لا أفهم لماذا تطرد! واليوم بالذات! ماذا حصل هذه المرة حتى تفقد عملك؟!» سأله وهي تنظر إلى عينيه كما لو كانت ترغب في الولوج إلى نفسه ومعرفة كل ما يضمره بداخله مرة واحدة.

تنهد وقام من موضعه وهو يبدو مضطرب البال وقال بانزعاج:
«سأخبرك عن كل شيء فيما بعد! فلا تسأليني الآن أرجوك! لست في مزاج حسن!»

وتنهد من جديد ثم دنا منها وقال والأسى يغمر عينيه:
«دعينا نخرج من هنا قليلا للتنفس! أشعر بالاختناق في هذا المكان!»
«في هذه الساعة؟! وإلى أين؟!» قالت متعجبة وهي تفقد ساعة يدها.
«إلى أي مكان! ولو لمجرد السير في الشوارع المجاورة لخمس دقائق! أرغب فقط في التنفس وتغيير الجو! وإن كنت متعبة من العمل، فلا داعي! فأنا أفهم وأقدر وأستطيع أن أخرج وحدي..»
«لا يمكنني أن أدعك تخرج وحدك في هذه الحال! سأتي معك! دقيقة!..»

خرجا من المبنى وسارا جنباً إلى جنب في صمت وهدوء. كان السكون يخيم على الشارع، لم يقطعه خلال برهة من الزمن إلا صوت محرك سيارة

عابرة منبعث من مكان غير بعيد. اختلس نظرة إليها تحت ضوء مصابيح الشارع الصفراء الخافتة وقال قاطعا صمته:

«تذكرين البيتزا التي أكلت منها في أول لقاء لنا في المحل؟»

«بالتأكيد! كيف لي أن أنسى تلك البيتزا، ولا ذلك اللقاء، ولا ذلك اليوم الخاص الذي جمعنا!»

«ولا أنا طبعاً!» قال وأمسك عن الكلام هنيهة، ثم تابع بصوت يملؤه الشجن: «تعلمين! قبل أسابيع تفاجأت بانتشار فضلات الفئران في المطعم...»

«ماذا قلت؟! فئران؟!»

«أجل، فئران! شاهدت البراز وأنا أفتح المطعم في الصباح، لكنني لم أصدق.. إلا أن شاهدت فئراناً حقيقية تجري في المطبخ وخلف النضد!»

«ماذا! فئران وبراز فئران! هذا مقزز!»

«مقزز وخطر على الصحة! لهذا لم أتأخر في إبلاغ أصحاب العمل وطلب مساعدتهم العاجلة. وعدوا بأنهم سينظرون في المسألة حالاً، ولم يفعلوا شيئاً! صرت أشاهد براز الفئران فوق قطع البيتزا المتبقية التي كان أصحاب المطعم يطالبونني بتقديمها للزبائن قبل تقديم البيتزا المطهولة حديثاً!»

«ماذا؟! براز الفئران في البيتزا التي أكلت منها! لا أستطيع أن أصدق ذلك!» صاحت الفتاة بدهشة وغيظ.

«هذا صحيح للأسف، لكن لا تقلقي أنجلينا، فالبيتزا التي أكلت منها كانت جديدة ونظيفة ولم يكن المحل يعاني من مشكلة الفئران في ذلك الوقت».

«وماذا حصل بعد ذلك؟» قالت بفضول.

«ذكرتهم بالمسألة أكثر من مرة لكنهم لم يهتموا. فقررت التصرف والتخلص من القطع القديمة التي عليها براز الفئران بنفسي دون علمهم. وفي زيارة مفاجئة للمحل اليوم في حدود منتصف النهار، شاهدوا صندوق القمامة ممتلئًا بالبيتزا الملوثة بالبراز. استأؤوا من تصرفي، فقرروا طردي! بالنسبة لهم، لقد خالفت أوامرهم، وهذا تصرف فظيع يعاقب عليه بالطرْد! هؤلاء البشر لا يصغون إلى لغة العقل والمنطق، ولا يهتمون بالزبون، ولا يكثرثون بالأخطار الصحية. كل ما يهمهم هو ملء جيوبهم وحساباتهم البنكية بالأموال. وهم لا ينظرون إلى قطع البيتزا المرمية في صندوق الفضلات على أنها قطع بيتزا ملوثة وخطر على الصحة وإنما قطع وأوراق نقدية ثمينة تخرج من جيوبهم، غير مسموح رميها!»

«يا لهم من أشرار! لا تستحق العمل مع هؤلاء الوحوش! ستجد شيئاً أفضل، فلا تحزن!» قالت محاولة مواساته في هذا الظرف العصيب. وأضافت مقترحة:

«ما رأيك لو ذهبنا إلى (الويست أند) حيث الحركة والحياة لكي تنسى قليلاً؟»

«لااااا، لا أريد أن أكون مع البشر وفي مكان صاخب وأنا في هذا الوضع! أفضل مكاناً هادئاً! ما رأيك لو ذهبنا إلى الحديقة المجاورة؟!»

«الحديقة؟ في هذه الساعة؟! من يذهب إلى الحديقة في مثل هذا الوقت؟!»

«نحن! ولم لا؟! لماذا نتقيّد دائماً بما يفعله الآخرون؟! ولماذا يصبح ما يفعله الآخرون قاعدة؟! دعينا نخرج عن هذه القواعد التي صنعها البشر ولو لمرة واحدة، الليلة، أرجوك!»

لم تمنع أنجلينا، لكنها في الوقت نفسه لم تتفاجأ عندما بلغا مدخل الحديقة ووجدا الأبواب مقفلة:

«هذا ما كنت أخشاه!» قالت له مدافعة عن موقفها. وتابعت وهي تتفحص أوقات الافتتاح المعروضة على الأبواب الحديدية:

«الحديقة مفتوحة إلى غاية الساعة التاسعة والنصف! والوقت الآن متأخر! آسفة! القواعد قواعد! دعنا نذهب الآن!»

أمسكها من ذراعها بينما كانت تتأهب للسير وقال لها:

«توقفي أرجوك! نستطيع أن نكسر هذه القواعد ندخل الحديقة!»
«ماذا؟!»

«أجل، نستطيع أن نسلق فوق هذه الأبواب!»

«ماذا أصابك الليلة؟ هل جنت؟! لا يمكننا أن نفعل ذلك! ممنوع الدخول!»

«أحيانا كل ما نحتاجه هو استراحة من القواعد، ومن الروتين، وحتى من أفكارنا! وإلا شعرنا بالملل والضيق وربما فقدنا صوابنا! دعينا نخرج عن القواعد مرة واحدة! لن تندمي على ذلك، أعدك أنجلينا!» قال لها ذلك. ودون أن ينتظر ردها تسلق إلى الأعلى ومد يده نحو الأسفل يدعوها إلى الالتحاق به.

«ها مدي يدك ولا تخافي!»

«لا يمكنني أن أفعل ذلك! لم أفعل هذا في حياتي!»

«ولا أنا! لكن، لكل شيء بداية أليس كذلك! ها مدي يدك ولا تترددي!

تعبت من الانحناء»

ومدت الفتاة يدها ممثلة لإرادته وتبعته خطوة خطوة إلى أن نزلا في
الجهة الأخرى. عجيبة هي الحياة! هذه القواعد التي يصرف الإنسان وقتا
لوضعها، ويسهر لاتخاذ الإجراءات لتطبيقها، ويبذل جهدا جهيدا لحفظها،
قد لا يحتاج المرء إلا إلى لحظات قليلة لكسرها!

بدت الحديقة في هذه الساعة غارقة في سبات عميق. كان الظلام يخيم
على أرجائها تقطعه أضواء مصابيح خافتة قليلة منتشرة هنا وهناك وأنوار
القمر والنجوم المتلألئة في سماء المدينة في تلك الليلة الدافئة. سارا نحو
البحيرة وجلسا على ضفتها تحت شجرة هرمة باسقة معوجة، tendli أغصانها
وأوراقها حتى تكاد تلامس الأرض. بدت منحنية كأنها عجوز محدودة
الظهر في آخر أيامها.

مدّ شفيق نظره إلى عرض البحيرة أمامه. بدا المشهد ممتعا بديعا على
تلك البحيرة الهادئة التائهة في فضاء مظلم، ينعكس على سطحها ضوء القمر
اللامع. لقد اكتشف الليلة الوجه الآخر المختلف لهذه الحديقة، لم يشهده من
قبل، والمتمثل في جمالها الليلي الفاتن وهي مستلقية نائمة تحت جُبح الظلام،
بعيدا عن إزعاج البشر. لكن سحر الحديقة هذا الذي أفعم نفسه دعة واطمئنانا

وأنساه ولو للحظات قليلة خصامه مع موظفيه، وفقدان عمله، وهموم الدنيا من حوله، لم يؤثر في أنجلينا التي بقي بالها عالقا بما حصل قبل قليل.

«لا أصدق ما فعلت!» صاحت متعجبة. «لست أدري كيف قبلت اقتراحك الجنوني!»

ضحك شفيق عند سماعه ذلك وقال:

«وأننا لا أصدق أنك ما زلت تفكرين في ذلك! هوني عليك أرجوك! كل ما في الأمر أننا دخلنا حديقة مقفلة! صحيح أننا خالفنا القواعد، لكننا لم نؤذ أحدا في طريقنا! أشعر أنه يحق لنا جميعا الخروج عن القواعد البليدة التي أثقلت حياتنا والاستمتاع بالحياة ولو للحظات قليلة!

مُتعة الحياة، يا أنجلينا، ليست في هذه التصرفات الروتينية والحركات الآلية التي نقوم بها كل يوم والتي لن يتردد المجتمع في توبيخنا ومعاقبتنا إن لم نتبعها..

متعة الحياة في المحرمات! قد لا يقبل عقلك ذلك لكنه الحقيقة عزيزتي! الثورة على القواعد والمألوف من طبيعة البشر يا أنجلينا! فالإنسان يقاوم هذه القواعد التي تسير حياته، ويخرج عنها، ويرتكب المعاصي منذ نشأته على سطح هذا الكوكب! ولن تتغير رغبة الإنسان في ارتكاب المحظورات بكل بساطة لأنها من طبيعته».

«أفهم ما تقول، لكنني لست متعودة على مثل هذا السلوك. نشأت في أسرة صغيرة محافظة. والدي يعملان بجد في مزرعتنا، ويذهبان إلى الكنيسة

الواقعة في مدينة بعيدة عن بيتنا. تعودت على النظام واحترام القوانين. فأشعر بالذنب إن خالفتها».

شعر شفيق باستيائها، فاستلقى على الحشيش وجذبها نحوه وانحنى فوقها وطبع قبلة خفيفة على شفتيها ثم رفع رأسه وقال لها في صوت رقيق: «دعينا من كل هذا الآن عزيزتي.. ما حصل حصل.. نحن الآن داخل الحديقة وقد فات الأوان.. ونحن لم نجتهد لاجتياز تلك البوابة العالية لننفق كل الوقت في الحديث عن القواعد والأخلاق وما يجوز وما لا يجوز.. كسرناها لنكون معا في هذا المكان الآمن بعيدا عن البشر!»
وتنهّد ثم تابع بصوت يغلب عليه الانزعاج والتأثر:

«دعينا ننسى المدينة، وقواعد المدينة، وصخب المدينة، وهموم الدنيا وما فيها لنستمتع بهذه اللحظات الجميلة معا قبل أن تفلت منا! أريدها أن تستمر ما أمكن! لست أرغب في العودة سريعا إلى هناك! إلى تلك المدينة.. وذلك الواقع الصعب الذي فقدت فيه اليوم عملي!»...

لم تنبس أنجلينا بكلمة. نظر إليها تحت ضوء القمر المنسكب عليها ليتبين ردّها، فلاحت في عينيها اللامعتين أماراتُ الحيرة وعدم الاطمئنان.
«على كل حال، لا تقلقي أرجوك!» قال لها في صوت عذب محاولا تلطيف الأجواء بينهما. «ستكون هذه أول وآخر مرة ندخل فيها الحديقة بهذا الشكل! أعدك بذلك! أما الآن، دعينا ننسى كل هذا ونستمتع قليلا بهذا الفردوس!»

وحضنها ثانية وتدحرج معها على العشب الوثير مرددا:

«هذه الحديقة ملك لنا الليلة! أجل يا أنجلينا!»

وما لبث أن ودع العشيقان الواقع في عتمة الحديقة وحلقا عاليا في فضاء الأحلام والمتعة.

لكن ما أقصر اللحظات الممتعة في الحياة! تمضي الدقائق والساعات تباعا، وتتلاشى أحلام الليل الهنيئة مع بزوغ فجر جديد وبداية يوم جديد، وتتلاشى معها لحظات المسامرة والمغازلة الممتعة في إحدى أجمل حدائق المدينة. وخارج أسوار تلك الحديقة، يبقى الواقع في انتظاره، مستيقظا، منتبها، كالجندي الساهر على حراسة ثكنته ليس بالضرورة رغبة في أداء الواجب وإنما تنفيذا لأوامر صدرت من الأعلى..

يوم جديد استفاق فيه من حلمه الممتع على هذا الواقع الذي سعى قبل ساعات للفرار منه!.. واقع مرير صار يحيا فيه من غير عمل أو دخل يكسب منه قوته في مدينة من أغلى عواصم الدنيا!..

وها هو من جديد في بيته، في يوم جديد، شمس خارج نافذته، مظلم في أعماق ذاته، تستبد بمخيلته، في غياهبه، أشباح الأفكار السلبية والهواجس. ولعل أكبر هاجس صار يلاحقه هو كيفية تأمين مبلغ إيجار البيت المكلف وسط المدينة وتغطية مصاريف الطعام والشراب بغير دخل. وازدادت نفسه كربا ووجلا وهو يفكر في صاحب البيت الذي سيطرق بابه في ظرف أيام ليستلم منه المبلغ المتبقي. كان من الضروري

العثور على عمل بأي طريقة وفي أقرب الآجال، ما جعله يتردد على مكتبة (ماريلبون) التي لم يفكر يوما في زيارتها. وها هو اليوم يطلب فيها بطاقة العضوية لأول مرة، لا لأجل القراءة، ولا لاستعارة الكتب واكتساب المعرفة، مثلما يفعل هؤلاء الإنجليز حوله، والذين يتوافدون على المكتبات بقدر ما يتوافد مواطنو مجتمعه البعيد على المقاهي ومحلات الأكل، وإنما بحثا عن عمل بين إعلانات الوظائف في جريدة (لوت) المختصة في الإعلانات.

راح يرسل سيرته الذاتية إلى المحاكم ومكاتب المحاماة ومراكز العلاج وغيرها بحثا عن عمل في اختصاصه. ويتردد في الوقت نفسه على المتاجر والفنادق والمطاعم والمحلات المختصة في الأكل السريع مثل (ماكدونالدز) و(كتاكي فرايد تشيكن) بحثا عن عمل.. أي عمل كان.. يؤمن له أجرا ولو بسيطا يقتات منه ويبقى به على قيد الحياة.

أنجلينا من جهتها سعت كل مسعى لمساعدته في أوقات فراغها. ساعدته على تصميم سيرته الذاتية وكتابة الرسالة المرفقة على آلة كتابة اشتراها خصيصا لمثل هذه الخطابات الرسمية، ولم يكن يحسن استعمالها.

وعندما حصلت على أول أجر، فاجأته بعرض المبلغ عليه ليدفع منه إيجار الشقة مصرة على ذلك. كانت تشعر بألمه، وكانت تلمح ظلال الأسى والحيرة وحتى الشعور بالفشل والإحباط والقنوط في وجهه وهو يدخل البيت بعد ساعات طويلة من البحث بخطى متقايلة، مطأطئ الرأس، خائب الرجاء.

وفي مطلع شهر أغسطس، تفاجأ باتصال هاتفي خاله في بداية الأمر من أحد المحلات أو المطاعم لكثرتها، وإذا به من مصلحة الهجرة البريطانية، يدعوه إلى مقابلة عمل في الترجمة. وبعد أيام من ذلك، وصلته أول وظيفة باللغة العربية في المحطة الثالثة لمطار هيثرو.

مع أنّ شفيق كان متمكناً في اللغات وكان قبل تخرجه من أفضل طلاب معهد الترجمة، إلا أنّ ذلك لم يمنعه من الشعور بتوتر والقلق مع اقتراب موعد أول وظيفة رسمية.

انتابته نوبات خوف لا تفسير له، وهو يصل إلى المطار لأول مقابلة وفي أول اختبار في الواقع. بعد نصف ساعة من الانتظار، أبلغه موظف الهجرة المشرف على المقابلة بعدم حضور الشخص المعني. فتتّفس الصعداء وكاد يطير فرحاً وسارع إلى جمع أشيائه وهو يعلم أنه سيحصل على الحد الأدنى للأجر متمثل في ثلاث ساعات عمل سواء اشتغل أو لم يشتغل، إضافة إلى ساعات السفر بين منزله والمطار وتكاليف النقل.

وبينما كان يتأهب لمغادرة المكتب، حدث ما لم يكن يتوقعه. أقبل نحوه موظف هجرة آخر ودعاه إلى مساعدته في مقابلة أخرى باللغة الفرنسية خلفاً لمتّرجم تعذّر على طالب لجوء أفريقي فهمه. بلغ شعوره بالتوتر أوجّه وهو يجلس في غرفة المقابلة لأول مرة محاطاً بموظف الهجرة ومراقب من وزارة الداخلية والشخص المعني ومحاميه ومتّرجم المحامي الذي كان قبل قليل وراء قرار إيقاف المقابلة وإقصاء المتّرجم

الأول بعد تدخله المتكرر واعتراضه على ترجمته. كان ذلك المترجم الخصم يحمل بين يديه دفترًا وقلمًا، على أهبة الاستعداد لتصيّد أخطائه. بدا من خلال الاسم الذي قدمه لموظف الهجرة ولهجته أنه فرنسي. بدا في جلوسه وحركاته ونظراته الماكرة كالذئب المتربص للفرصة السانحة للانقضاض على فريسته.

لكنّ شفيق تشجع. وشيئًا فشيئًا، استجمع قواه واستعاد ثقته بنفسه وصرف انتباهه عن ذلك المترجم المزعج وأجواء غرفة المقابلة التي بدت مشحونة بالضغط رغم هدوئها، وترك نفسه يرحل من خلال أحداث القصة بعيدًا إلى غرب أفريقيا والحرب الأهلية في سيراليون التي انفجرت قبل سنوات قليلة، في عام ١٩٩١، بين الجبهة الثورية المتحدة والحكومة، متزامنة مع اندلاع الحرب في الجزائر. وكانت أحداث العنف المأساوية في تلك الحرب قد بدأت تحتل واجهات الصحف وتثير اهتمام الرأي العام.

بعد ساعتين من المقابلة، تعرّف الرجل ولم يعرف الرد على أبسط الأسئلة المتعلقة بسيراليون مثل اسم العملة ووصف شكل العلم الوطني وذكر أسماء المدن الكبرى والمعالم الشهيرة في ذلك البلد. وفي الأخير وأمام توالي الأسئلة الصعبة المحرجة، التي انهالت عليه كما تنهال القذائف على مدينة محاصرة، لم يجد الرجل بدا من الاستسلام والاعتراف أنه ليس من سيراليون وإنما من الجارة السنغال وأنه فرّ إلى بريطانيا بحثًا عن عمل وحياة أفضل.

خرج شفيق من تلك المقابلة وقد تبين له المعنى الحقيقي لمصطلح «لاجئ اقتصادي»، وهو مصطلح تردد كثيرا في وسائل الإعلام البريطانية ولم يحاول يوما إمعان النظر في معناه الصحيح، وها هو اليوم يشاهد مثالا حيا عن ذلك أمامه مجسدا في هذا الأفريقي الذي دفعته قساوة الحياة في بلده والرغبة في البحث عن حياة أسهل خلف البحار إلى الادعاء أنه من بلد آخر تمزقه خناجر الحرب الأهلية، يحظى طالبو اللجوء النازحون منه بأكثر مصداقية وتعاطفا مع قضيتهم.

لقد أدرك الآن أنّ بعض الذين يتوافدون على بريطانيا ودول متحضرة أخرى ليسوا في الحقيقة إلا «مهاجرين اقتصاديين» دفعهم الفقر والظروف الاقتصادية إلى هجرة الأوطان والأهل والأحباب. ولم يرحلوا بالضرورة لأسباب أمنية، ولن يتردد هؤلاء في لعب «بطاقة اللجوء» واختراع قصة ما يلعبون فيها أدوار الضحايا المضطهدين والمطلوبين والمهددين والمغضوب عليهم، طمعا في حياة أفضل في البلاد الغربية المتقدمة.

افترت البهجة والإثارة في وجه شفيق وهو يغادر مكتب الهجرة في مطار هيثرو في طريقه إلى بيته. كان يشعر بإرهاق شديد بعد يوم طويل في هذا العمل الذي تطلّب منه الجلوس على كرسي والتفكير بلغتين مختلفتين والانتقال بينهما والتركيز المتواصل لساعات طويلة. لكنّ شعوره بالسرور والإثارة كان أعظم من ذلك الآن وقد ابتسم له الحظ بعد سنوات طويلة من الانتظار، فعثر أخيراً على عمل في اختصاصه. كانت نشوة الفوز هذه سيلاً متدفقاً جارفاً غمره من رأسه إلى قدميه وأنساه كل التعب. لكنّ هذا الطرب الذي نزل عليه فجأة لم يدم طويلاً. ما لبث أن نضب نبعه العذب ليحترق فؤاده بنار الخيبة والتشاؤم بعد أن بقي ينتظر اتصالات مصلحة الهجرة ودعوات عمل أخرى دون جدوى كما لو أنّ المدينة ومطاراتها وموانئها قد خلت من الوافدين الأجانب.

لم يرن هاتفه لأيام طويلة، لكنّ جرس بيته رنّ ذات يوم ليمثل أمامه رجل قصير القامة، ممتلئ البدن، دميم الخلقة، انقبضت نفسه لمشاهدته. كان ذلك صاحب الشقة الذي جاء لاستلام إيجار البيت المتأخر. فلم يجد الفتى بداً من تطيب خاطره بكلمات رقيقة ملتصقة منه أسبوعين إضافيين كأقصى حد لجمع المبلغ.

كانت أنجلينا تنصت إلى محادثتهما من خلف باب الغرفة. دنت منه وصاحت بدهشة بعد انصراف الرجل:

«لا أتصور أننا سنجمع له كل هذا المبلغ خلال أسبوعين!»

هزّ برأسه.

«ولا أنا!»

«إذا لماذا وعدته؟!»

«لنكسب ودّه ونربح الوقت!»

«ثم ماذا؟! لا أفهم!»

«ثم نرحل! نهرب من هذا المكان! شيء من هذا القليل! والسلام!»

«ماذا؟! هل أنت جاد؟! ماذا أصابك عزيزي؟! كيف نهرب ولا ندفع له ماله؟!»

أمسك شفيق أنجلينا من زراعها وأجلسها بجانبه في الصالون وقال وهو لا يفارقها ببصره:

«اسمعي أنجلينا! نحن الآن في وضع صعب.. دخلك بسيط، وأنا ليس لي دخل أساسا.. وإيجار البيت مرتفع وفوق طاقتنا.. نحن لا نملك حلا آخر..!»
وضعت أنجلينا يدها على خدها وقالت مفكرة:

«لكنّ الهروب ليس حلا ولن يكون عادلا!..».

«الهروب لن يكون عادلا بالتأكيد، لكنه سيكون حلا! ولا أتصور أننا نملك حلا آخر! ثم لا تنسي شيئا! بقاؤنا في هذا المكان لن يكون عادلا أيضا لأننا لن نستطيع الدفع! فرحيلنا في أقرب وقت خير له. قد يخسر شهرا من الإيجار لكنه بعد ذلك سيجد مستأجرين أنسب منا! وسيكسب كثيرا! لا تنسي الموقع الذي يوجد فيه المنزل!»

واقترب منها وأمسكها بلطف من يدها وقال في صوت رقيق:

«اسمعي أنجلينا! أحيانا تضطربنا الظروف إلى مثل هذه القرارات فالظروف الاستثنائية الطارئة أحيانا تتطلب حلولاً استثنائية طارئة لتستمر الحياة! فأرجوك! تفهميني ولا تحزني!»

نظرت إليه أنجلينا وهي تبدو محتارة لا تدري ما تفعل. قالت له متنهدة:
«وإلى أين سنذهب؟!»...

في الأسبوع التالي، تركا الشقة وسارا رويدا نحو محطة بيكر ستريت مثقلين بأغراضهما، وسافرا بقطار نفق خط (جوبيلي لاين) باتجاه محطة (ويلزدن جرين) في شمال لندن، على بعد ست محطات. ومع أنّ الرحلة لم تتجاوز ١٣ دقيقة إلا أنّ الفرق بين المكانين بدا ملفتا للانتباه. إنه الفرق بين منطقة وسط لندن السياحية الراقية وشمال لندن الشعبية البسيطة. فعكس بيكر ستريت، الحي الراقى في قلب لندن والذي يتردد عليه كثير من السياح لزيارة متاحف مثل متحف الشموع ومتحف شرلوك هولمز أو الاستجمام في حديقة ريچنت المجاورة، فإنّ ويلزدن جرين حي شعبي متواضع شمال لندن آهل بالسكان المحليين بينهم كثير من الهنود والسود ميسوري الحال.

خرجا من المحطة الصغيرة القديمة وسارا باتجاه العنوان الذي سجله شفيق على قطعة ورق والموجود في شارع (ساينت بولز أفونيو).

كان شفيق قد أبلغ أنجلينا أنه عشر، من خلال إعلانات جريدة لوت اللندنية، على استوديو في منزل كبير بشمال لندن مكون من مجموعة من

الغرف يتقاسمها عدد من المستأجرين، دون أن يقدم لها تفاصيل أخرى. فكانت دهشتها عظيمة عندما استقبلهما صاحب المنزل، رجل إيرلندي، وقادهما إلى الاستديو الواقع في الطابق الثالث والأخير في ذلك المبنى.

كان الاستديو عبارة عن غرفة صغيرة فيها حمام ضيق، ولم يكن فيها مطبخ. المطبخ الوحيد في ذلك المنزل كان في الطابق الأرضي، وكان يضاهي الاستوديو نفسه حجما. كان مجهزا بثلاجة كبيرة وفرن كهربائي ومايكروويف ومائدة كبيرة محاطة بأربعة كراسي. وكان على الجدران وتحت السطح المجاور لحوض الغسيل خزائن وأدراج خشبية. وكان كل ذلك مشتركا بين كل المستأجرين.

بدا الاستوديو من أول وهلة بائسا كثيفا. كانت جدرانه مغطاة بورق رمادي اللون ممزق في بعض أطرافه، وكانت الأرضية مغطاة بسجاد بني قديم متسخ. الحمام الضيق أيضًا كان مغطى بسجاد قديم تتصاعد منه روائح كريهة. بدا هذا الاستوديو، بحجمه وشكله ورائحته أشبه بغرفة سجن.

قال شفيق لأنجلينا لما لمح خيبة الأمل في عينيها:

«أعلم أنك لست متعودة على مكان مشابه! لكن لا تقلقي أرجوك، فنحن سنقيم في هذا المكان مؤقتا. أعدك أننا لن نبقي هنا طويلا!»
علت وجهها ابتسامة باهتة وهي تسمع كلماته المواسية:
«لا عليك! أتصور أننا سنتعوّد على هذا الوضع بعد حين!»...

لكن الأمر لم يكن كما كانت تأمل. فبينما كان الهدوء يخيم على الشقة السابقة في بيكر ستريت في كل الأوقات رغم وجودها في وسط لندن، كان

الصخب يميز هذا المنزل ليلاً ونهاراً رغم وجوده في حي سكني هادئ بعيد نسبياً عن شارع (والم لاين) المزدهم الذي تطل عليه محطة ويلزدين جرين. كان المستأجرون وراء هذا الصخب. كان بعضهم يعود إلى البيت في ساعة متأخرة فيدفع الأبواب بشدة ويتحدث ويقهقه ويغني ويرقص ويفعل ما يشاء دون مراعاة لمشاعر أحد، كما لو كان المنزل ملكه، يعيش فيه وحده. وكانت رائحة تدخين الحشيش والمرجوانا القوية تتصاعد من الغرف السفلى لتصل إليهما إلى غاية الساعات الأولى من الصباح. وكلما ذهبت أنجلينا إلى المطبخ لتعد شيئاً ما وجدته مشغولاً مزدحماً، كما لو أنّ هؤلاء الناس لا يعرفون النوم والسكون ليلاً ونهاراً. فكانت تعود أدراجها خائبة الأمل. وفي اليوم الذي دخلا فيه المطبخ ولم يكن فيه أحد، كانت في انتظارهما مفاجأة سيئة لسوء حظهما. فقد عثرا على الأواني، التي أحضرهما معهما وكانا يحتفظان بها في درج خاص بهما، مرمية في حوض الغسيل متسخة بعدما استخدمها هؤلاء الناس من دون إذن، ودون أن يكلفوا أنفسهم مشقة تنظيفها بعد استعمالها وإعادتها إلى مكانها! ومن دون إذن أيضاً، صار هؤلاء الناس يستهلكون المأكولات والمشروبات التي كانا يحتفظان بها في الثلاجة داخل كيس بلاستيكي مغلق، وضعا عليه لاصقة تقول «تابع لغرفة رقم ٧. (الطابق ٣) لا تلمس!»

لقد صار الآن تناول سندويشات وطعام بارد أو ربما شراء وجبات ساخنة رخيصة مثل البيتزا والبطاطا المقلية من محلات الأكل الخفيف المجاورة، أرحم من انتظار فرصة لاستخدام الفرن المشترك والطبخ.

أنجلينا من جهتها، واجهت مشكلة أخرى في هذا المسكن الجديد تمثلت في تكلفة السفر إلى بيكر ستريت للعمل في المطعم الصيني. وسرعان ما شعرت بالراحة والاطمئنان عندما أخبرها شفيق عن سعر إيجار الاستوديو الذي لم يكن يتعدى ٦٥ جنيه في الأسبوع مقارنة بالشقة السابقة باهظة الثمن في وسط لندن، ما يسمح لهما بتوفير بعض المال.

لكنّ هذا المكان لم يحمل لهما مفاجآت سيئة ومخيبة للأمل فحسب، بل حمل لهما مفاجآت سارة أيضاً. فبعد أيام قليلة من وصولهما إلى البيت الجديد، لم يملك شفيق نفسه من الطرب وهو يشاهد المبلغ الذي حصل عليه من وزارة الداخلية لعمله يوماً واحداً بالترجمة في المطار. أقبل على أنجلينا وهو يرقص طرباً. عرض عليها رسالة إيداع الراتب في الحساب وصاح قائلاً:

«انظري كم قبضت في وظيفة واحدة بالمطار!!»

«ماذا؟! ٩١,٥٠ جنيه! هل هذا صحيح؟!» صاحت أنجلينا بدورها مندهشة.

«أجل، حبيتي! مقابل يوم واحد من العمل!» صاح موافقاً وهو يكاد يطير فرحاً.

«هذا المبلغ كبير!» صاحت مندهشة. «إنه يعادل ما أحصل عليه بعد أسبوع طويل من العمل!»

«وهذا أقل مما كنت أقبض خلال أسبوع طويل من العمل في ذلك المطعم القذر!»

«هذا عظيم! كنتُ واثقة أنك ستجد عملا في اختصاصك في يوم ما! ها قد تحقق ذلك! أنت جدير بذلك! هنيئا لك!»

«المشكلة الوحيدة، يا أنجلينا، هي أنني أعمل مترجما حرّا».

«حرّ؟ لا أفهم!»

«نعم، حر. هذا يعني أن اسمي الآن في قائمة المترجمين التابعة لمصلحة الهجرة رفقة آلاف المترجمين الآخرين. مصلحة الهجرة تتصل بمن تشاء، وقتما تشاء، حسب احتياجاتها! فهي من جهة مسألة حظ!»

ولحسن حظ شفيق بعد انتقاله إلى المسكن الجديد، بدأت احتياجات مصلحة الهجرة البريطانية تزداد مع ارتفاع عدد اللاجئين النازحين نحو غرب أوروبا والمملكة المتحدة، وجهتهم المفضلة. وازدادت الحاجة إلى خدماته على وجه الخصوص مع وصول أعداد متزايدة من المهاجرين الجزائريين الفارّين من أهوال الحرب الأهلية في الجزائر.

على عكس مواطني البلدان العربية الأخرى، كان الجزائري يتحدث لهجة معقدة، تختلف من منطقة إلى أخرى، تمتزج فيها ألفاظ وعبارات عربية وفرنسية بتفاوت من منطقة إلى أخرى، ما نتج عنه صعوبة الترجمة وسوء الفهم وتوقف مقابلات اللجوء نتيجة ذلك. فكان من الضروري البحث عن مترجمين محليين يحسنون العربية والفرنسية ويتحدثون اللهجات الجزائرية، أو بالأحرى «اللغة الجزائرية» التي أدرجت في قائمة لغات وزارة الداخلية البريطانية كلغة نادرة. فبدأت الاتصالات ودعوات العمل تتوالى عليه من مختلف مكاتب الهجرة في لندن ومدن أخرى.

وبعد أن كان قد أدرك من قبل معنى «المهاجرين الاقتصاديين» الذين يلعبون بطاقة اللجوء للاستقرار في بريطانيا والعمل فيها، ها هو اليوم يكتشف نوعاً آخر من المهاجرين. إنهم «اللاجئون الحقيقيون» الذين يهجرون الأوطان فراراً من العنف والاضطهاد والموت. كان بين هؤلاء الطبيب والمهندس والفنان والرياضي والمدرس الجامعي، الذين كانوا في وضع اقتصادي جيد، فلم يفكروا يوماً في الرحيل عن الأوطان. وها هم اليوم يهجرون أهاليهم وأحبابهم ويتخلون عن منازلهم ووظائفهم وكل ما يملكون في الدنيا لأجل البقاء. فقد ازداد مسلسل العنف في الجزائر منذ مطلع السنة وشهد تطورات خطيرة باغتيال رهبان تبيحيرين السبعة في ولاية المدية وإعلان الجماعات الإسلامية المسلحة مسؤوليتها عن ذلك في شهر مايو من تلك السنة.

في هذه الديار البعيدة عن الأوطان، يحاول هؤلاء المهاجرون تسوية وضعيتهم القانونية ويصارعون لأجل التأقلم مع الحياة الجديدة في بيئة جديدة مختلفة. وهم في ذلك كالأشجار التي اقترعت من أرضها لتُغرس في أرض غير أرضها، بعيداً عن بيئتها.

صار العمل الجديد في الترجمة يحمله في بعض الأحيان على العودة إلى البيت في ساعة متأخرة. فكان يلمح ظلال الملل والضجر والحزن في عيني أنجلينا التي كانت رغم تعبها في عملها وتنقلها بين البيت والعمل، تؤثر السهر لأجل انتظاره والاطمئنان على حاله بين جدران هذه الغرفة الصغيرة الكثيرة. بدأ يتتابه شعور بالذنب تجاهها وهو يراها تعاني أمامه

هكذا في هذا المكان الضيق البائس الغارق في أوحال الوسخ والروائح الكريهة والصخب. بدت كما لو كانت حبيسة خلف قضبان سجن زَج بها فيه بيديه. الوضع لم يتوقف عند ذلك الحد، فقد ازداد سوءاً مع مرور الوقت وبلغ في آخر الأمر مبلغاً خطيراً لا يحتمل بضياح رسائل موجهة إليهما، بعضها يحمل معلومات حساسة مثل كشف الحساب البنكي. كانت الرسائل تلقى إلى داخل المنزل عبر فتحة البريد الموجودة في الباب، يراها ويلمسها من يشاء في ذلك المنزل. البيت، مثلما كان يتصوره، هو ذلك المكان الذي يشعر فيه المرء بالراحة والاطمئنان والأمان، أو ربما مثلما وصفته الأمريكية روزالين كارتر يوماً في قولها: «لا شيء أهم من بيت جيد وآمن ومؤمّن». وهذا البيت الصغير ليس مريحاً، ولا آمناً، ولا يليق بمقام هذه الفتاة الجميلة النبيلة التي لم يسبق لها أن عاشت في مكان دنيء كهذا. فقد آن الأوان للرحيل عنه.

بدت الدهشة جليلة على أنجلينا عندما فاتحها في الموضوع في مطلع شهر سبتمبر من تلك السنة مقترحا شراء منزل بالتقسيط من خلال بنك.

«هل تتصور أن البنك سيقترضك قرضاً وعملك ليس ثابتاً؟!»

«عملي يبدو منتظماً منذ فترة. ثم، لدي زملاء حصلوا على قرض من البنك وهم في وضع مماثل تماماً. على كل حال لن نخسر شيئاً إن حاولنا واستفسرنا عن ذلك!»

بعد أيام قليلة، كان لشفيق وأنجلينا موعد مع مستشار الرهن العقاري في الفرع المحلي لبنك (هاليفاكس). وبعد المقابلة بنحو أسبوع، أبلغهما البنك

بموافقته منحهما قرضًا مشتركًا بقيمة ٥٠ ألف جنيه استرليني يسدد بفوائد على مدى ٢٥ سنة.

كانت أنجلينا تحلم بمنزل هادئ قريب من وسط لندن. ولما زارا مكاتب الوكالات العقارية، تفاجأ بالارتفاع المذهل لأسعار العقار في وسط المدينة، واضطرا إلى البحث خارج لندن الكبرى لصغر ميزانيتهما حيث وقع اختيارهما في آخر الأمر على منزل في منطقة (سوانلي) في إقليم (كينت) على بعد ١٦ ميلا من لندن..

كان البيت محاذيا لحديقة سوانلي، وكانت له حديقة خلفية كبيرة وحديقة أمامية صغيرة تمتد إلى غاية السور المشكل من الأشجار المحيط بالحديقة الفسيحة التي كانت تتوسطها بحيرة.

كان المنزل مؤلفا من طابقين، الطابق العلوي يحوي غرفة نوم كبيرة تطل على الحديقة مباشرة وغرفتين متوسطتي الحجم. الطابق السفلي يحوي غرفة جلوس فسيحة بها نافذة كبيرة تطل على الحديقة الأمامية، ومطبخا منفصلا.

كان هذا المنزل بمثابة قصر فاخر بالنسبة لشقيق الذي منذ وصوله إلى هذا البلد لم ينعم بالسكن في مكان فسيح، مؤلف من طابقين، وهادئ مريح، متاخم لإحدى أعظم الحدائق في الإقليم، لا يفصله عنها إلا سور من الأشجار الباسقة تغرد فيها الطيور وتراقص على أغصانها السناجب. أنجلينا أيضًا شعرت بالراحة والسكينة في هذا المنزل بعد أشهر من

العذاب في المنزل السابق، مع أنها لن تستبدل منزلها الفخم في النمسا بمنزل كهذا، ولا بأي منزل آخر في المدينة، مثلما صارحت شفيق مؤكدة أنه لن يفهم ما تعنيه إلاّ إذا سافر معها إلى النمسا وشاهد ما تقصده بعينه. أنجلينا التي بدأت تحضر للسفر إلى النمسا قريبا لقضاء إجازة أعياد نهاية السنة رفقة أسرتها دعتة إلى مرافقتها. شفيق كان يود ذلك لاكتشاف بلدها ولقاء أهلها لكن الوقت لم يكن مناسباً لذلك. كان منهما في ضبط الأمور في هذا المنزل الكبير من تأثيث، وتجهيز، وتسوية الوثائق، وترتيب ما ينبغي دفعه مثل ضريبة المجلس المرتفعة، فضلا عن حاجته الماسة إلى العمل ما استطاع، والحصول على ما استطاع من المال لتغطية النفقات المتزايدة كسراء لوازم البيت. من هذه اللوازم التي لم يتردد في شرائها، بعد اقتناء مستلزمات المطبخ وأريكة في الصالون، جهاز تلفزيون كبير من نوع صوني ونظام صوني هاي فاي مستفيدا من خيار الدفع بالتقسيط.

العناية بمستلزمات البيت الجديد من الداخل لم تكن تعني إهمال الحديقتين. قام رفقة أنجلينا باستبدال الأسوار الخشبية القديمة التي تفصل حديقتيها الخلفية عن حديقة الجيران. وغرسا فيها شجرة تفاح، وزرعا على أطرافها الريحان وإكليل الجبل والنعنع. وقاما بغرس شجيرات على جانبي الحديقة الأمامية لتكون سورا فاصلا بينها وبين حديقة الجيران.

حديقة سوانلي المقابلة للمنزل أثارت فضولهما من أول يوم وطئت أقدامهما هذا المنزل. لكنهما لم يجدا الفرصة إلاّ في آخر الأسبوع حيث خرجا في المساء لاكتشافها لأول مرة. سارا إلى داخلها من خلال ممر ضيق

تحت الأشجار الباسقة. كان بعض الأوراق قد تساقط من أغصانها الكثيفة المنحنية نحو الأسفل. لكنّ اللباب، المنتشر بكثافة تحتها، تسلّق جذوعها، والتفّ على أغصانها وغمرها بأوراقه فأضفى عليها ثوبا أخضر دائما.

أول ما يقع عليه نظر المرء عند الخروج من الأشجار الكثيفة سكة حديدية مصغرة عرضها نحو سبع بوصات، تمتد حول الحديقة لتصل في آخر المطاف إلى محطة قطارات مصغرة مجاورة لبحيرة القوارب. ليست هذه لعبة القطار المعروفة التي يضع فيها الطفل دميّ ويقف لمشاهدتها وهي تتحرك أمامه على السكة. إنها قطار حقيقي في شكل مصغر، له قاطرة مصغرة يقودها أحد المشرفين على تلك الحديقة. وهذه القاطرة تنطلق من محطتها كما كانت تنطلق قاطرة البخار الحقيقية قديما، فتجرّ خلفها عربات يجلس عليها الأطفال وأولياؤهم لأجل الترفيه والمتعة في موسم الصيف، فيمضون في رحلة حول هذه الحديقة الفسيحة التي يكسوها بساط أخضر من العشب وتحيط بها أسوار من الأشجار الباسقة.

كان من الضروري العودة إلى هذه الحديقة كلما سمحت الفرصة للاستمتاع بها قبل أن ينقض عليها فصل الشتاء الطويل الزاحف. فخرجنا ذات مساء مشمس لممارسة قليل من الرياضة. ركضا على طول السكة الحديدية المصغرة وحول البحيرة قبل العودة إلى البيت.

بعد شراء هذا المنزل، أخذ شفيق يفكر في تحسين نظام حياته بممارسة الرياضة بشكل منظم واتباع نظام غذائي صحي لأجل حياة أفضل. لقد صار اليوم يؤمن أكثر من أي وقت مضى بالمثل الإنجليزي الذي تردد على سمعه

كثيرا والقائل «لا أستطيع أن أراقب كل شيء في حياتي، لكنني أستطيع أن أراقب ما أضعه في جسدي». ومراقبة ما يضعه في جسده كانت تعني له بالضرورة الإكثار من شرب الماء وتناول الخضروات والفواكه الطازجة والمكسرات والأطعمة الخفيفة الغنية بالألياف والبروتينات والفيتامينات والتقليل من استهلاك اللحوم الحمراء والدهون والسكريات وكل ما هو مضر.

على العكس منه، كانت أنجلينا قليلة الأكل، ولم تكن تشتهي اللحم كثيرا، وكانت تتناول المشروبات الساخنة من غير سكر. وعكسه أيضًا، لم تكن تحب الركض، فكانت تخرج معه في أوقات قليلة لأجل مصاحبته وإرضائه فحسب. كانت رياضتها المفضلة القيام بتمارين مفيدة للجسم. دعتة إلى مشاركتها في هذه التمارين في المنزل على وقع أنغام موسيقية، فأعجبه الفكرة. وضع شريطا في نظام الهاي فاي، ووقف في الجهة المقابلة لها يقلدها شيئا فشيئا كما يقلد التلميذ معلمته. وتعال أنغام (مون أمور) و(دجوبي دجوبا) و(بامبوليو) الإسبانية لفرقة «جيسي كينغ». وازدادت حركاتهما وتيرة، متراقصة في تآلف وانسجام على وقع الأنغام المثيرة والكلمات المعبرة.

ها قد انجلى الظلام بأسره، وأطل الصباح بنوره عليه في بيت جديد أمسى أعز ما يملكه في هذه الديار. لكن هذا البيت لم ينزل عليه هدية من السماء، وإنما كسبه من خلال قرض كبير يسدده بفوائد على مدى ٢٥ سنة. فقد صار حسابه في متناول البنك المقرض يسحب منه شهريا ما يزيد عن ستمائة جنيه. لم يعد يملك خيارا غير العمل بجد ولساعات طويلة لتوفير ما يكفي من المال لدفع التكاليف الحية. يصرف ساعات طويلة في هذا العمل الذي كان يضطره في أوقات كثيرة إلى التنقل إلى أماكن بعيدة خارج لندن.. إلى مطار ستانستد، ومطار لوتن، وميناء دوفر، وميناء هاريتش، ومحكمة برمنغهام ومدينة مانشستر وليدز...

كانت هذه الرحلات في بداية الأمر تملؤه إثارة ورغبة في الاستطلاع وتمنحه فرصة اكتشاف عالم فسيح يمتد هنالك خارج تلك المدينة التي ظل حبسا فيها لسنوات طويلة. وهل كان سيقطع كل هذه المسافات ويجول كل هذه المناطق ويكتشف كل هذه المدن من غير هذا العمل الحر! لكن هذه الإثارة قلت مع مرور الزمن. صارت هذه الرحلات مجرد روتين لا يختلف كثيرا عن روتين العمل.

كان خلال هذه الأسفار وفي ساعات العمل يحنّ إلى العودة إلى كنف بيته وحضن حبيبته التي جمعت به الأقدار.. فتاة ضرب جها

بجذوره في أعماقه، وانصهرت روحها في روحه، وارتبطت حياتها بحياته، ومصيرها بمصيره.

رجع إلى البيت قبلها بساعات في الثالث من شهر ديسمبر يحمل لها مفاجأة لا يدري كيف سيكون ردها عليها. انتظرها حتى عادت من عملها واستحمت وتناولت عشاءها ثم قادها نحو الغرفة الإضافية في الأعلى حيث كانت تنتظرها مفاجأته. وقف خلفها وأغمض لها عينيها بيديه ودفع الباب بقدمه وسار بها إلى الداخل برفق.

«والآن انظري! أرجو أن تعجبك!» قال لها وهو يسحب يديه من عينيها. «ما هذا؟! لا أصدق!» صاحت متعجبة وهي تشاهد أمامها مائدة عليها صينية فوقها كعكة بيضاء كبيرة تعلوها شمعة حمراء مشتعلة، بجانبها مرسوم باللون الأزرق الفاتح رقم واحد، وباللون الوردي «عيد ميلاد سعيد». وكان بجانب الكعكة علبة صغيرة مغلفة بورق بنفسجي اللون.

«واو! مذهل! لكن لماذا! ليس اليوم عيد ميلادي». قالت وهي تبدو محتارة. «عيد ميلادي يوافق ٥...».

«أعلم ذلك جيداً أنجلينا...». قال ضاحكاً. «اليوم ليس عيد ميلادك ولا عيد ميلادي!»

وماذا إذا؟!

«إنه عيد ميلاد حينا...».

« عيد حبنا؟! »

اقترب منها وأمسكها من ذراعيها وقال:

«أجل يا أنجلينا، اليوم تمر سنة على أول لقاء.. في مثل هذا اليوم قبل سنة التقينا أول مرة.. كان ذلك في مطعم ليستر سكوير!»

اتسعت عينا أنجلينا تعجبا عند سماعها الخبر وصاحت:

«اللعة!»

«على حبنا؟!» صاح بدوره مازحا متكلفا الدهشة.

«لا، لا، ليس الحب طبعاً!» صاحت ضاحكة. «فقط لست أدري كيف

غاب الأمر عن بالي هكذا! لماذا لم تذكرني إذا؟!»

«كنت أرغب في مفاجأتك، هذا كل ما في الأمر! تعالي لنطفئ الشمعة معاً!»

وجلسا بالقرب من المائدة وأطفأ الشمعة. بعد ذلك تناول العلبة ذات

اللون البنفسجي وقدمها لها قائلاً:

«هذه يا أنجلينا هدية بسيطة مني لك بهذه المناسبة. أرجو أن تعجبك».

«أنا هكذا أشعر بالخجل لأنني لم أقدم لك شيئاً! كان عليك أن تبلغني

حتى أحضر لك شيئاً بدوري! هذا ليس عادلاً!»

«لا تقولي ذلك أرجوك! هديتك وصلنتني قبل فترة طويلة! وصلنتني في

أول يوم شاهدتك! قدمتي لي أجمل وأثمن هدية: حبك! وهل ثمة شيء أعز

علي من حبك؟! فلا تهتمي أرجوك وافتحي العلبة!»

فتحت أنجلينا العلبة فاتسعت عيناها من شدة الدهشة وهي تشاهد ساعة

من نوع رولكس مصنوعة من الفولاذ والذهب الأصفر.

«واو، واو، واو! لا أصدق!» صاحت مندهشة ثم التفتت نحوه مقطبة جبينها: «لكن، هذه هدية مكلفة يا شفيق! لم كلفت نفسك!»

«الحياة قصيرة أنجلينا! ثم أنا الآن أعمل وأقبض أجرا جيدا، فلا تهتمي!» قال ذلك وهو يضع الساعة على يدها. «أريدها أن تكون رمزا لهذا الحب الذي يجمعنا، وشاهدا على وفائنا لهذا الصبي الحاضر معنا هذه الليلة للاحتفال بعيد ميلاده الأول!»

«صبي؟!»

«نعم، إنه ملاك الصبي الذي حدثتك عنه من قبل.. ملاك الذي رأى نور الحياة بعد أول نظرة وقبله وعناق بيننا. هذا الصبي، يا أنجلينا، تجسيد لحبنا. إنه الحب الذي يسري في دمينا، وينصهر في روحينا. ونحن منه وهو منا، لا نميّز نفسيينا منه ولا نميزه منا».

أصغت أنجلينا إلى كلماته الرقيقة بعناية ثم انفجرت ضاحكة:

«عارف؟ كدت أنسى ذلك! ما زلتَ تتحدث عن هذا الطفل الوهمي من نسج خيالك، والذي لا يراه أحد غيرك! ظننتك نسيته بعد كل هذا الوقت! لكن، على كل حال، لست أدري لماذا ألومك في المقام الأول إن كنت أدرك أنك كاتب، وكثيرا ما يسبح الكاتب في بحر خياله. وكثيرا ما يرى بوجدانه ما لا يراه أحد من حوله! أتصور عليّ الآن أن أقبل وجود «هذا الصبي» معنا..».

«لن يكلفك ذلك شيئا يا أنجلينا! فهذا الطفل لا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج سريرا خاصا، ولا غرفة نوم، ولا مكانا في دار الحضانة، ولا مقعدا في

المدرسة، ولا مصاريف يومية، ولا تكاليف جامعية، ولا شيئا من هذا القبيل!
كل ما يحتاجه منك ومنى للحياة هو استمرار هذا الرباط الذي يجمعنا. فحياة
هذا الصبي، يا أنجلينا، رهينة بحياتنا معا! ونبض قلبه سيبقى ببقاء علاقتنا!»

في وقت لاحق من تلك الليلة، استلقى شفيق على السرير بجانب
أنجلينا في غرفة النوم التي كانت تتعالى في أجوائها موسيقى بحيرة البجع
الكلاسيكية الهادئة وتيرها شمعة خافتة تذوب في صمت، فيذوب معها قلبه
حبا وعشقا لهذه الفتاة النمساوية. لم يكن يدري أنه سيحبها بهذه السرعة
وإلى هذا الحد. ولم يكن يتردد في التعبير عن مشاعره الصادقة نحوها لا
سيما في مناسبة كبيرة كهذه المناسبة الليلة. طبع قلبه خفيفة على شفيتها ثم
ردد في صوت حنون: «أحبك، أحبك.. أحبك دائما وأبدا..».

أنجلينا، من جهتها، كانت من النوع الهادئ الذي لا يتحدث كثيرا ولا يعبر
عن مشاعره إلا نادرا. كانت تفضل الإصغاء أكثر من الحديث أو التعبير عما
يجول في خاطرها. فلم تكن كلمة «أحبك» تتردد على شفيتها بقدر ما كانت
تتردد على شفتيه هو. وكانت تقولها في شكل رد وتفاعل أكثر منه مبادرة،
ومجاملة أكثر من إحساس عميق نابع من صميم الفؤاد، مثلما كان يشعر أحيانا.
هكذا كان ردها عليه الليلة عندما قالت له: «أنا أيضا أحبك». كانت تقول
ذلك في هدوء بعيدا عن تلك الحرارة التي كان يعبر بها عن حبه لها. تفاجأ
في بداية الأمر بتلك «البرودة» لكنه مع مرور الوقت تعود ذلك معتبرا أن
ذلك يكون ربما ناتجا عن التأثير البيئي والاجتماعي. كان بطبعه يتحدث

بإشارات وبإثارة بينما كانت هي عادة تتحدث في هدوء تام. فدمه حار لأنه من منطقة البحر المتوسط، ودمها بارد لأنها من أوروبا.

في تلك الليلة، بدا مبتهجا وشعر برغبة في الثثرة. تحدث عما تحقق في تلك السنة من إنجازات على رأسها هذا المنزل الكبير المشترك بينهما في منطقة كنت. واعترف لها أن الفضل في ذلك يعود إليها. فلو لم يكن رفقتهما لما فكر في شراء منزل كهذا. وعبر لها عن سعادته بعمله الجديد والدخل المرتفع الذي لم يكن يحلم به يوما متطلعا إلى مزيد من المشاريع والإنجازات والنجاحات برفقتهما. وسألها عن رأيها فيما تحقق وكيف كانت تشعر في حياتها الجديدة رفقته وترقب ردها باهتمام.

مع أن هذا البيت كان كبيرا ومريحا وهادئا هدوء منزلها في النمسا مثلما قالت له، فإن عقلها لم يكن يفكر إلا في منزل واحد بعيد عنها وهو منزل والديها في النمسا. انتابها فجأة شعور غريب لم تعرف له تفسيراً.. شعور يشبه الحنين الجارف إلى منزل أسرتها.. إلى ذلك البيت الذي أبصرت فيه نور الحياة وتربت في حضنه. وامتلكها الشوق إلى رؤية والديها وشقيقها ومداعبة كلبها والتجوال في مزرعتها والاستمتاع مرة أخرى بتلك الأجواء التي عاشت فيها. كان ذلك شغلها الشاغل في ذلك الحين.

شيء آخر كان يشغل بالها هو عدم رضاها بشغلها في المطعم الصيني. فالراتب الذي كانت تتقاضى لم يعد كافيا بعدما انتقلا إلى منطقة (كنت) البعيدة، فقسم كبير من ذلك الدخل صار يضيع في تذاكر القطار. ومع زيادة المصاريف وبقاء الأجر على حاله لم تعد قادرة على

التوفير رغم الوقت الذي كانت تصرفه في السفر والجهد الذي كانت تبذله في العمل. فكل ما استطاعت توفيره تذكره سفر إلى النمسا ذهابا وإيابا وبعض الأغراض.

متاعب أنجلينا في ذلك المطعم لم تقتصر على قلة الدخل. شعرت بالإهانة واهتزت ثقتها في نفسها وهي تؤدي واجبها المهني بعدما تهكم بها زبائن غير مرة. تساءل هؤلاء بسخرية كيف يوظف مطعم صيني كبير في وسط لندن امرأة بيضاء ليست بصينية. فطبيعة المطعم الصيني لا تقتصر على الهندسة المعمارية الصينية، والفوانيس الحمراء التقليدية، واللوحات الزيتية والصور والرسومات الصينية على الجدران، والموسيقى الصينية الهادئة المتعالية في الأجواء، بل تشمل أيضا، وبدرجة كبيرة، الموظفين، وشكل هذه المرأة الأوربية لا يتوافق مع شكل بقية العمال من حولها، وهي بذلك تشوّه الديكور الصيني.

أنجلينا شعرت بالعزلة أيضا لأنها لم تلق مساندة من الإدارة ولا حتى من زميلات العمل اللواتي كنّ يجلسن بمعزل عنها في أوقات الاستراحة ويستغرقن في الدردشة والضحك واللهو بعيدا عنها. كانت في بعض الأحيان تشاهدن ينظرن إليها ويضحكن، وكنّ في بعض الأوقات يذكرن اسمها وهن يتحدثن باللغة الصينية ويقهقهن، فكانت تشعر أنهن يتحدثن عنها ويمزحن ويمرحن على حسابها حتى في حضورها.

صارت أثناء العمل وفي أوقات الاستراحة تشعر بالعزلة والملل والألم. سوء المعاملة هذا لم يتوقف عند ذلك الحد، إذ إنّ بعض الزبائن

الدائمين ذهب إلى حد تقديم شكاوي لدى إدارة المطعم. كان هؤلاء يرغبون في التعامل مع نادلة صينية، يتحدثون معها باللغة الصينية بدلا من الإنجليزية التي لا يحسنون. والغريب في الأمر أن بعض هؤلاء يحيا في بريطانيا منذ عشرة إلى عشرين سنة ولم يكلف نفسه يوما الالتحاق بإحدى المدارس المجانية التي توفرها له الدولة أو استعارة كتاب من مكتبة وتعلم لغة وطن جديد يعيش فيه ويحتاج فيه إلى هذه اللغة للتواصل مع بقية البشر من حوله.

لم يكن هؤلاء الوحيدين في ذلك. كثيرون هم الذين توافدوا على هذا البلد من جاليات أجنبية مختلفة، ولما فتح لهم هذا البلد أبوابه، ووفر لهم فرص العمل والسكن والدراسة وسبل العيش الكريم، وفتح لهم آفاقا جديدة لبناء المستقبل والرقى، اختاروا الانغلاق على أنفسهم ولم يهتموا حتى بتعلم اللغة الإنجليزية، وسيلة الاتصال ببقية المجتمع وكل العالم! وللحصول على خدمات مثل الرعاية الصحية أو التعامل مع الإدارة، يضطرون لا محالة إلى طلب مترجمين تتحمل أعباء تكاليفهم الخزينة العمومية. كل ما يريده هؤلاء من بريطانيا هو الأمن والحرية والأكل والشرب والسكن والشغل والفوائد الاجتماعية والرعاية الصحية وبقية الخدمات والراحة والرفاهية، وفي المقابل لا يرضون بالاندماج في هذا المجتمع متعدد الأعراق، ولا يهتمهم حتى تعلم الانجليزية، وإن كانت أعظم لغة وأرقى لسان في الدنيا.

لم تعد أنجلينا قادرة على تحمل هذه المعاملة العنصرية والعزلة. كان عليها أن تفر من هذا الوسط المعادي لأجل البقاء كما يفرّ الأبرياء من مدينة تتعرض للحصار ونيران المدفعية في وقت الحرب، بحثا عن مرفأ أمان. لقد علمتها الحياة أنّ أفضل قرار أحيانا هو الرحيل إن تبين أنّ البقاء أمر مستحيل. فلم تتردد لحظة في تقديم استقالتها. كان ذلك قبيل منتصف شهر كانون الأول، أيام قليلة قبل موعد سفرها إلى النمسا.

تعلمت أنجلينا من هذه التجربة أنه من الأفضل لمن كان أجنبيا مثلها العمل في مكان مختلط متوازن متعدد الانتماءات العرقية، يشترك فيه جميع الموظفين بالحديث بلغة واحدة، لغة المجتمع، الإنجليزية. أنجلينا كانت تحبّذ عملا إداريا بدلا من الأعمال التي تتطلب جهدا عضليا مثلما كانت الحال في المطعم الصيني.

من بين كل الوظائف المتاحة في هذه المدينة العملاقة، كان حلم أنجلينا الأكبر العمل في أحد البنوك. لم يكن هذا الاختيار من باب المصادفة وإنما لأنها تخصصت في دراسة العلوم المالية والمصرفية وتحمل شهادة في هذا المجال. يضاف إلى كل ذلك إتقانها اللغة الإنجليزية، ما كان يؤهلها للترشح لمثل هذا العمل.

فبعد عودتها من النمسا مباشرة، أشرت بطاقة سفر أسبوعية توفر لها فرصة القيام برحلات غير محدودة بالقطارات والباصات داخل المدينة، وراحت تنتقل من مكان إلى آخر، وتتردد إلى المحلات ومكاتب المؤسسات، وتتوقف في مراكز الشغل التي توفرها وزارة العمل والتقاعد البريطانية لمساعدة العاطلين عن العمل على إيجاد مناصب شغل.

ولم يطل انتظارها. ابتسم لها الحظ مبكرا بمنصب عمل في وسط لندن. لم يكن هذا العمل في مصرف كما كانت تحلم، لكنه على الأقل، كان عملا إداريا كما كانت تريد. كان ذلك في قسم البريد التابع لمحل (رايمن) الواقع في شارع (جرايز إن راود) على بعد أمتار قليلة من محطة مترو (تشانسري لاين) في قلب المدينة. وها هي اليوم تتعلم من تجربة تغيير الوظيفة أن

الإنسان إن لم يكن راضيا على شيء ما ينبغي عليه أن يتخلى عنه، وإن لم يكن سعيدا في مكان ما ينبغي عليه أن يرحل عنه.

وهل من العدل أن يرضى الإنسان بالمعاناة والتألم في صمت إن كان الرضا والهناء على بعد خطوات منه! صحيح أنه قد يصعب على المرء التخلي عن أشياء تعود عليها في حياته فصارت شيئا من ذاته، لكن هذا التغيير بلا ريب يستحق اهتمامه وجهده لأن ذلك قد يفتح له آفاقا جديدة وقد يعود عليه بالخير والفائدة. وقد يتبين له مع مرور الوقت أن هذا التغيير الذي لم يكن يريد أن يجربه هو في الواقع أجمل وأفضل من ذلك الروتين الممل المقاتل الذي حبس نفسه فيه معتقدا أنه لا يوجد عالم آخر خارج قضبان هذا القفص الصغير الذي حكم على نفسه بالمكوث فيه.

ها هي أنجلينا اليوم تقطف ثمار هذا التغيير الذي خرجت تبحث عنه. فهي اليوم مع زملاء عمل من خلفيات مختلفة: شاب إنجليزي وفتاة من نيجيريا وواحدة من البرازيل وأخرى من سريلانكا. أشخاص من مشارق الدنيا ومغاربها، لهم لغاتهم الخاصة، لكنهم، في هذا المكان الذي يجمعهم، يتحدثون ويمزحون جميعا بلغة مشتركة يفهمها كل فرد منهم. ويشتركون جميعا في الاحترام المتبادل والتعاون وحسن المعاملة.

واليوم صارت أنجلينا تقبض أجرا يفوق كثيرا ما كانت تقبضه من قبل، ما يسمح لها بتغطية المصاريف اليومية وحتى التوفير للمستقبل. وهذا العمل أسهل بكثير من العمل في المطاعم.

فبينما كان عملها في المطعم الصيني اللعين يتطلب الوقوف لساعات طويلة، وحمل صينيات مثقلة بالمأكولات والمشروبات، ونقل الأطباق الفارغة، وتنظيف المائدة، وغير ذلك من المهام المجهدّة، ها هي اليوم تقوم بخدمة الزبائن براحة وهي جالسة في مكانها.

وبعدما كانت تنهي عملها في ساعة متأخرة من الليل فتعود أدراجها مرهقة، منهارة نفسياً، لا تجد وقتاً لحبيبها ولا لنفسها، ولا تجد متعة في الأكل أو الشرب، ولا رغبة في الخوض في حديث أو دردشة أو مزاح، ولا تشتهي في الواقع شيئاً عدا الصمت والنوم، ها هي اليوم تعمل من التاسعة صباحاً إلى الرابعة والنصف، ما يسمح لها بالرجوع إلى البيت في وقت مبكر وأخذ متسع من الراحة والقيام بواجباتها المنزلية وهواياتها التي لم يكن في وسعها القيام بها في وظيفتها السابقة.

صارت أنجلينا اليوم تملك متسعاً من الوقت للخروج معه للتسوق والمشي في الحديقة المجاورة الهادئة والسفر إلى لندن والتجول في الشوارع المزدهمة والتردد إلى قاعات المسرح والسينما وزيارة المتاحف.

كان آخرها المتحف البريطاني في شارع (جرايت راسل ستريت)، أكبر متحف في المملكة المتحدة وأول متحف من نوعه في العالم ومن أبرز آثار التاج البريطاني والامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، يعود تأسيسه إلى القرن الثامن عشر. زارها هذا المتحف في مطلع آذار باقتراح

منها. وقد أعجبت فيه بأثار ما قبل التاريخ وآثار الشرق الأوسط والقطع المعدنية القديمة...

بعد حصولها على الوظيفة الجديدة، صارت أنجلينا أيضا تقوى على الخروج معه إلى الحديقة للعب والمرح أو القيام بتمارين رياضية في البيت على أنغام موسيقية راقصة متنوعة وبلغات مختلفة. كان بعضها باللغة العربية من اقتراح شفيق. وهكذا اكتشفت رفقته موسيقى الرأي الجزائرية. وصارت تجد الوقت والطاقة للسهر ومشاهدة أفلام معه. كانا يشاهدان هذه الأفلام على الفضائيتين الألمانية (فوكس) و(أر تي أل ٢). وكانا أيضًا يستأجران أشرطة فيديو من محل (أبولو) المحلي.

وهكذا صارت أنجلينا تجد وقتا وطاقة لتقريبا كل شيء عدا متعة الفراش.

منذ مدة، صار للفراش معنى واحد فحسب بالنسبة لها وهو النوم، ولا يعني لها شيئا آخر غير النوم. وما زال الفراش يحمل معنيين متجانسين لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر بالنسبة له هو، وهما المتعة والنوم. هذه المتعة كانت في الواقع تسبق نومه أحيانا، وتتبعه أحيانا أخرى، وتتخلله في بعض الأوقات أيضا. كانت هذه المتعة ترافق نومه ولا تكاد تفارقه حتى بدت جزء لا يتجزأ منه!

وهذا الفراش، الذي كان ينام فيه ويعيش فيه نشوة المتعة، كان بالنسبة له بساطا طائرا يحلق به في فضاء من غير قيود، ويطير به إلى جنات متعة لا

تحدها في الكون حدود. كانت نفسه تفيض برغبة جامحة وطاقة كاسحة لا تعرف النضوب ولا السكون، ما جعل أنجلينا تطلق عليه - ليس من باب المرح والمبالغة بل عن صدق واستحقاق اسم «كازانوفا»! هكذا كان يحلو لها أن تدعوه وهكذا كانت الحال في كثير من الأوقات في بداية الأمر. آنذاك، كم كانت دفاعات هذه الفتاة هشة في مواجهته! تنطلق من أغوار جسده الملهب أشباح المتعة، كالجيوش المحترفة من ثكناتها، فتحترق أسوارها وتغزوها وتبسط نفوذها عليها، فلا تجد بدا من الخضوع لسلطانها. لكن الظروف اليوم منحتها حقنة مناعة وقوة وجأش، فلم يعد يرهبها ذلك الوحش المفترس القابع في أعماقه والذي كان يستفيق من سباته وسط الظلام فيلاحقها وينقض عليها. صارت حملاته الليلية تتعثر في طريقها إليها. وإن نجت وشقت طريقها نحوها، انهارت تباعا أمام أسوار قلعتها المحصنة.

كان في بداية الأمر يخال تصرفها طبيعيا بحكم ظروف عملها الطويل والمتعب وعودتها المتأخرة إلى البيت. فتفهم أمرها وتطلع إلى تحسن الأمور بتغير عملها، واستقرارها في وظيفتها الجديدة المريحة والملائمة، وتحسن أوضاعها، دون جدوى.

تسارع دقات قلبه إثارة، ويزداد جسده حرارة، ويحترق قلبه حسرة، وهو ممدد على السرير الوثير بجانب امرأة ناعمة نائمة في قميص رفيف مثير، لا يستطيع لمسها!

يستبدّ بخاطره طيفُ الغريزة متدمرا منها ومن جفائها، مطلقا صرخة استياءٍ وغيظ، مغرقا نفسه في بحر الوسوس والهواجس.

أيعقل، إذا، أن يستمر وضعٌ كهذا؟! وإلى متى؟! وما ذنبه حتى يصبر على العذاب هكذا والدنيا من حوله تعج بالنساء مثلما تعج البحار بالأسماك؟! وما جدوى الصبر أساسا إن كانت تشيح بوجهها عنه غير مكترثة بحاله؟! ويتدخل عقله ليرسم له صورةً مغايرة لهذه الفتاة بريشة المنطق وبألوان زاهية. وهل من المنطق أو العدل أن ينظر إلى شريكة حياته أنجيلينا على أنها مجرد جسد أو مجرد شيء مصنوع للعب والمرح والمتعة؟! أنجلينا أعظم من ذلك بكثير!.. أنجلينا شريكة حياته، تقاسمه اللحظات الحلوة والمرّة.. وأنجلينا بشر وروح وعقل وبحر من المشاعر الطاهرة العذبة الرقيقة! فإن لم ينظر إلى كل ذلك معا فهو بالتأكيد كمن ينظر إلى جزء من الكل، أو ربما كمن ينظر إلى القشرة المحيطة بالجوزة وينسى اللب الكامن بداخلها! لا، لا، لن ينظر إلى السطح وينسى الجوهر! ولن ينظر إلى الجسد وينسى الروح والإحساس وطبيعتها البشرية. ليس الجنس الزائل هو كل ما يربطه بهذه الفتاة! يربطه بها حب وإخلاص وتضحية وحسن نية وحياة مشتركة وتفاؤل بالخير واليمن وغد أفضل وأكثر إشراقا وبهاء، قد يكون على الأبواب.

كان عندما تتتابه أشباح الغريزة في عتمة الغرفة وتدحرجه نحوها، وتدفع جسده عليها، وترده هي عنها وتستغرق في نومها الهادئ الجميل، لا يجد

بدا من الهروب منها ومن عتمة تلك الغرفة ومن ذلك الواقع الرهيب هروب الجندي الجريح المنهزم في ساحة المعركة، المتطلع إلى تضميد جراحه والحياة. يخرج من السرير وينزل إلى الصالون.

وفي الصالون، بعيدا عن هذه الفتاة المثيرة، يسعى الفتى لمقاومة غرائزه المتأججة وتهدئتها بالانشغال بكتابة فصل جديد من قصته هذه التي يعيشها مع هذه الفتاة بكل ما تحمله من لحظات جميلة ومشاعل وهموم.. قصة ليست ككل القصص.. فإن كان كل كاتب يتطلع إلى إنهاء فصول روايته لنشرها وتوزيعها، فهو على عكس ذلك تماما، كان يريد أن تستمر، فتتوالى أحداثها يوما بعد يوم وأسبوعا بعد آخر من غير نهاية إلى آخر لحظة في عمره.. قصة لا تنشر في حياته وإنما بعد نهايته.. قصة يعيش لحظاتها ويسجل تفاصيلها بكل عفوية وصدق مثلما تجري في الواقع دون تدخله ودون تنقيح أو حذف أو تعديل أو مغالاة أو ماكياج.. قصة تلقائية يشارك في أدوارها، ويسجل أطوارها على المباشر وهو لا يدري ما ينتظره هنالك في منعطف الطريق، ولا في أي اتجاه تسير.. قصة يكتبها وفق عمران روائي مختلف يعتمد على تصوير الأحداث لحظة وقوعها بكل دقة وأمانة حتى وإن صدمت تفاصيلها المجتمع من حوله. كان يؤمن بأن الأعمال الروائية الواقعية درجات وأن أعلاها مرتبة وأكثرها نزاهة وصدقا هو ما صوّر أحداثا بكل تفاصيلها لحظة وقوعها في الحاضر مثلما تصوّر عدسات الكاميرا المادة الحية والجامدة في الطبيعة.

يقاوم غرائزه تارة وتارة أخرى يهادنها ويلبي رغبتها بمشاهدة أفلام مثيرة اكتشف أنها تعرض على قناة (أر تي أل ٢) وقناة (فوكس) بعد منتصف الليل وأخذت شيئاً فشيئاً تثير اهتمامه وتسري في عروقه مثل الدم. كان بذلك يؤجج نار غرائزه، لكنه كان يلقي فيها متعة وسهوا عن مشاغله وهمومه والدنيا من حوله. لقد علمته هذه التجربة الجديدة أنّ المتعة في واقع الأمر في تناول كل البشر بشكل أو بآخر، وبدرجة أو بأخرى، كل حسب ظروفه وطاقته. حتى ذلك السجين المكبل بأغلال في أبشع زنزانة في الدنيا يستطيع أن ينال قدراً من المتعة والسعادة في لحظة ما ولو للحظة. إن لم يستطع أن ينالها المرء بجسده، نالها بعينه. وإن لم يستطع أن يدركها ببصره، أدركها بخياله. والخيال أيسر وأوفر. وهو فضلاً عن ذلك مجاني، لا يكلف البشر شيئاً. فالخيال لا يتطلب جهداً ولا مالاً، ولا نقاشاً ولا جدالاً، ولا مساومة ولا تضحية، ولا مخططات ولا حسابات، ولا إذناً من أحد، يسبح الإنسان في فضائه الفسيح والمريح حراً طليقاً وقتما يشاء، ويداعب فيه من يشاء، في أي مكان يشاء، وفي أي وقت يشاء. والخيال هو الوسيلة الوحيدة التي يستطيع أن يدخل بها الإنسان أي بيت يشاء وأن يغازل من يشاء في المجتمع، حتى إن تعلق الأمر بفنانة شهيرة أو أميرة ساحرة خلف أسوار قلعة منيعة، ومع ذلك لا يتعرض لعقاب أحد!!

لطالما تحدث شفيق مع أنجلينا عن الحياة وعن أولئك الذين يرحلون عنها قبل الأوان. من هؤلاء أطفال أبرياء شاءت الأقدار أن يروا نور الحياة في وسط تستشري فيه الأوبئة، أو تحاصره المجاعة، أو تمزقه الحروب. يرون نور الحياة وسرعان ما ينطفئ أمام أنظارهم البريئة الحائرة، وينطفئ معه في قلوبهم نبض الحياة.. أطفال من لحم ودم ومشاعر يأتون إلى الحياة للحظات قليلة ثم يرحلون عنها في هلع.. ويرحلون عن الحياة وهم لا يدركون ما تعنيه كلمات «سلام» أو «أمن» أو «راحة» أو «سعادة»، ببساطة لأنهم لم يشهدوا السلام، ولم يعرفوا الراحة، ولم يذوقوا طعم السعادة في حياتهم الوجيزة... ويرحلون عن الحياة وهم لا يدركون حتى معنى الحياة أو لماذا بعثوا إلى هذه الحياة إذا كانوا سيغادرونها بعد لحظات قليلة لا يشعرون فيها إلا بالألم والخوف والعذاب!

كانت أنجلينا آنذاك، تردد بصوت صادق متأثر عبارة «ليست الحياة عادلة». لم يكن شفيق يختلف معها في الرأي، في عالم يميّزه، منذ فجر الإنسانية، اختلال التوازن وعدم تكافؤ الفرص وما لا حد له من التناقضات. يفارق طفل الدنيا بعد ساعات من ولادته، ويحيا آخر إلى أن يسأم من حياته. ويُحبس هذا في كرسي متحرك مدى الحياة، وينعم ذاك بالمشي

والجري وكل الحركات. ويحرم هذا من حاسة البصر، وينعم ذاك بمشاهدة الألوان والمناظر... لقد علّمته هذه التناقضات أنه لا مفرّ للإنسان من تقبّل الأشياء التي لم يخترها ولا يملك سلطانا عليها في عالم أبعد ما يكون عن العدل والكمال. وهل اختار الإنسان بدايته حتى يختار مصيره؟! وهل يعقل أن يبحث الإنسان عن الكمال في عالم مجرد من الكمال؟! فالقناعة في مثل هذا العالم هي مفتاح السعادة وسبيل البقاء.

لا، لا مفرّ للإنسان، الذي رمته الأقدار في هذا العالم دون استشارته، من الرضا بنفسه وبما لديه! فمهما كانت ظروفه قاسية، يوجد في هذه الدنيا بالتأكيد مَنْ هو في وضع أصعب منه. عبّر شفيق عن ذلك كتابيا في إحدى الليالي بكلمات إنجليزية صارت مبدأ وشعارا له في هذه الحياة، بل ضرورة له للاستمرار في الحياة:

ALWAYS BE THANKFUL FOR WHAT YOU HAVE IN LIFE.

ALWAYS REMEMBER THAT

THERE ARE OTHERS IN THE WORLD WHO ARE FAR
WORSE OFF THAN YOU.

(كن دائما شاكرا لما لديك في الحياة. تذكر دائما أنه يوجد في العالم
مَنْ هو في وضع أسوأ منك بكثير)

وهكذا، رغم عدم رضاه الجنسي، استمرت حياته رفقة هذه الفتاة التي صار يشعر مع مرور الزمن أنها جزء منه ومن حياته لا يستطيع العيش من

غيرها. كان في جل الأوقات يعمل لساعات طويلة، يعود بعدها مباشرة إلى البيت للقاء حبيبته.

وفي ذلك اليوم في مطلع شهر مايو عندما انصرف من عمله في مطار هيثرو مبكرا على غير العادة بعد إلغاء إحدى مقابلات الهجرة المبرمجة في المساء لعدم حضور الشخص المعني، وفي رحلة قطار النفق الطويلة باتجاه وسط المدينة، وعلى أنغام المطربة الأمريكية (ناتالي كول) «مس يو ليك كريزي» (اشتقت إليك إلى حد الجنون) المتعالية من سماعات الرأس، رحل فكره إليها وظلّ، عالقا بها لا يعرف الانصراف عنها. وبدلا من التوجه نحو محطة فيكتوريا والعودة إلى المنزل مباشرة ككل مرة، ارتأى المرور بمكان عملها وانتظار ساعة خروجها ومصاحبته إلى البيت.

كانت عقارب الساعة تقترب من الرابعة عندما وصل إلى محل رايمن. اقترب من المدخل وجلّى بصره إلى الداخل مفتشا عن حبيبته. كان المركز في تلك الساعة ممتلئا بالزبائن. بدا من خلال هياكلهم ولباسهم واستعجالهم أنهم من موظفي المكاتب المجاورة يمرون في طريقهم بدار البريد لقضاء حاجاتهم فيها بعد انصرافهم من العمل في مدينة تميزها الحركة المتواصلة والحياة السريعة. وفي ساعة الذروة هذه، بدت أنجلينا منهمكة في خدمة الزبائن، لا تجد وقتا حتى لرفع بصرها والنظر حولها ومشاهدته. فلم تره إلا بعد أن أنهت عملها. ارتسمت الدهشة والفرحة على وجهها وهي تشاهده واقفا في انتظارها خارج المحل.

«يا لها من مفاجأة! ماذا تفعل هنا حبيبي؟! لم أكن أتوقع مشاهدتك في هذا المكان!» قالت له وارتسمت بسمة كبيرة على شفيتها.

قَبَّلَهَا عَلَى وَجْهِهَا وَقَالَ:

«أَنْهَيْتِ الْعَمَلَ مُبَكِّرًا هَذَا الْمَسَاءَ لِحَسَنِ الْحِظِّ، فَفَكَّرْتُ فِيكَ. خَطَرٌ بِبَالِي الْمُرُورِ عَلَيْكَ فِي طَرِيقِي وَاصْطَحَابِكَ إِلَى الْبَيْتِ».

«هَذَا مِنْ لَطْفِكَ!»

«لَكِنْ، أَنْتَظِرِي! أَظُنُّ أَنَّ هُنَاكَ تَغْيِيرٌ فِي الْخُطَّةِ الْآنَ! لَنْ نَذْهَبَ إِلَى الْبَيْتِ مُبَاشَرَةً! تَعَالِي مَعِي!»

«تَغْيِيرٌ فِي الْخُطَّةِ! إِلَى أَيْنَ تَرِيدُ أَنْ تَذْهَبِ؟!»

«جَوْلَةٌ قَصِيرَةٌ فِي الْمَدِينَةِ مَا دَمْنَا هُنَا!» رَدَّ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَضَافَ بِنبرة واثقة: «ثُمَّ أَنَا جَوْعَانٌ.. وَأَنْتِ أَيْضًا! إِذَا دَعَيْنَا نَآكُلَ شَيْئًا مَا فِي الْمَدِينَةِ قَبْلَ الْعُودَةِ إِلَى الْبَيْتِ! نَخْرُجُ قَلِيلًا مِنَ الرُّوتَيْنِ الْيَوْمِيَّ الْمُتَعَبِ! كُلَّ يَوْمٍ، عِنْدَمَا نَخْرُجُ مِنَ الْعَمَلِ نَذْهَبُ إِلَى الْبَيْتِ.. وَفِي الْبَيْتِ، نَطْبِخُ وَنَغْسِلُ الْأَوَانِي وَنَنْظِفُ الْمَطْبَخَ، وَلَا نَعْرِفُ الرَّاحَةَ! وَتَضِيعُ فِي كُلِّ ذَلِكَ لِحِظَاتٌ ثَمِينَةٌ مِنْ عَمْرِنَا! تَعَالِي نَغَيِّرِ الْجَوَّ قَلِيلًا!»

«جَمِيلٌ! لَكِنْ أَيْنَ نَآكُلُ؟!» صَاحَتْ أَنْجَلِينَا وَهُمَا يَسِيرَانِ بِعَجَلٍ بِاتِّجَاهِ مَحْطَةِ تَشَانْسِرِي لَآيِنِ الْقَرِيبَةِ الَّتِي بَدَتْ مَزْدَحْمَةٌ فِي سَاعَةِ الذَّرْوَةِ هَذِهِ...

بَعْدَ دَقَائِقَ، خَرَجَا مِنْ مَحْطَةِ لَيْسْتِرْ سَكُوِيرَ، وَمِنْهَا دَخَلَا تَشَايِنَا تَاوَنَ الَّتِي كَانَتْ تَعَجَّ بِالْجَمَاهِيرِ وَالْحَرَكَةِ كَكُلِّ مَرَّةٍ. أَكَلَا فِي أَحَدِ الْمَطَاعِمِ الْمَكْتَنَظَةِ بِالزَّبَائِنِ.

رَغْمَ وَجُودِ مَطَاعِمٍ كَثِيرَةٍ تَعْرُضُ خِدْمَةَ الْبُوفيهِ الْمَفْتُوحِ إِلَّا أَنَّهُ فَضَّلَ أَخَذَهَا إِلَى مَطْعَمٍ اخْتَارَاهُ فِيهِ وَجِبْتُهُمَا مِنْ قَائِمَةِ الطَّعَامِ. صَارَ الْيَوْمَ حَرِيصًا

على مراقبة نظام غذائه والتقيّد بالأكل الصحي بقدر المستطاع. فبينما تناولت أنجلينا أرز حلو وحامض - الذي صار اليوم طبقها الصيني المفضل - وحلويات صينية، فقد فضل هو تناول شوربة فواكه البحر وأرز بالخضار، وشربا معا الشاي الصيني بالياسمين.

بعدها مرا بميدان ترافالغار الذي بدا هو أيضا مزدحما. ومن ثم سارا ويدا باتجاه حديقة سانت جيمس بارك. وعلى عكس ميدان ترافالغار والأماكن المجاورة المزدحمة في هذه الساعة، بدت الحديقة غارقة في هدوء لم تكن تقطعه إلا أصوات بط وبجع تحركت بغتة في البحيرة عند اقترابهما منها. قالت له أنجلينا مازحة وهما يجلسان على مقعد مقابل للبحيرة:

«لست أدري لماذا نختار العيش في المدينة إذا كنا، سنفرّ من صخبها إلى هدوء الحديقة!»

«لست أدري يا أنجلينا، فأنا لم أعد أحتمل كثيرا صخب المدينة وضغطها! أشعر براحة وسعادة أكثر في مثل هذا الفضاء الأخضر والهادئ!»

«تقول هذا مع أنك نشأت في مدينة وأنت بذلك متعود على أجواء المدينة! قالت مندهشة. «ماذا عني أنا التي نشأت في مزرعة كبيرة في منطقة ريفية هادئة على الحدود بين النمسا وسلوفينيا؟!»

«لكن أتصور الظروف مختلفة يا أنجلينا. فقد سئمت الحياة في المدينة لطول الزمن الذي أمضيته فيها. لكنك أنت جديدة في المدينة، والعيش فيها يفترض أن يكون عبارة عن تغيير جو بالنسبة لك! أنت اليوم تكتشفين عالما

مختلفا! كثير من الأجانب الذين التقيت في لندن عبروا عن انبهارهم بالحياة في هذه المدينة يا أنجلينا!»

«أعلم أنّ لندن مدينة تاريخية وجميلة يقصدها السياح من كل أنحاء الدنيا. لكنني لست أدري!.. أعجبتني كثيرا عندما نزلت فيها أول مرة، لكن احساسني اليوم تغير بعدما أصبحت أعيش فيها وأعمل فيها!»

«بالتأكيد ضغط العمل والروتين القاتل هو ما يشعرك بهذا الإحباط. أنا أيضا تعبت من ضغط العمل ومن الحياة السريعة جدا في هذه المدينة! أتصور نحتاج إلى استراحة بعيدا عن أجواء العمل والروتين اليومي والصخب وكل شيء هنا يا أنجلينا! نحتاج إلى عطلة بعيدا عن هذه المدينة!»

«عطلة؟!» صاحت أنجلينا بدهشة. «لكن إلى أين؟ وكم ستكلف؟ لا تنس أن لنا قرض عقاري!»

«أعلم ذلك فلا تحملي هما! ستكون الرحلة هدية مني لك، فما رأيك في ذلك؟! أنا اتحمل كل التكاليف لأن عملي في الترجمة زاد كثيرا! أنا واثق أننا نستطيع الاستمتاع بأسبوع جميل في مكان جميل، ولو مرة في الحياة!»

«شكرا حبيبي.. أنا في الواقع لم أزر في حياتي إلا سلوفينيا ولندن.. أنا أيضا أشعر برغبة في السفر.. لكنني كنت أفكر في التكاليف!»

«قلت لك لا تشغلي بالك بالتكاليف!»

«أو كي.. وإلى أين سنذهب إذا؟!»

«ما رأيك لو تقاسمنا المهمة.. أنا أقترح موضوع العطلة.. وأنا أتحمّل التكاليف.. وأنت تختارين الاتجاه!»

هزّت أنجلينا رأسها بارتياح قائلة:

«هل أنت متأكد من ذلك؟»

«أجل! لك حرية الاختيار! لكن، لي رجاء بسيط!...».

«ماذا؟»

«أن تكون الوجهة دافئة. فمناخ هذا البلد الغائم والممطر يملأ نفسي غما! أرغب في مشاهدة السماء الزرقاء والشمس والبحر! سأحضر لك كتيبات عطلة تختارين منها منتجعا مشمساً!...».

أنجلينا أيضاً لم تكن تحب هذا الطقس المعروف في هذه الديار باسم «الطقس البريطاني». وكانت تنظر إلى هذا المناخ على أنه قدر محتوم مسلط على هذه الجزر الممتدة في عرض المحيط الأطلنطي.. جزر تتعرض باستمرار لتيارات المحيط الأطلسي الباردة ولاجتياح الضغط المنخفض الذي كثيراً ما يحوم حول هذه الجزر لأيام طويلة، كما لو لم يكن في الدنيا أجواء وأقاليم غيرها. فلا ترى في هذه الأوقات الكثيية غير الغيوم الكثيفة المنخفضة والأمطار الخفيفة المتساقطة بغير انقطاع في أرض تسقيها الأنهار، وتحيط بها البحار، وهي حتماً في غنى عن كل هذا الفائض المائي المنذر بوقوع فيضانات وخسائر وتعطيل حركة المرور. أمطار بدت وكأنها عمياء ضلّت الطريق وأخطأت العنوان فنزلت في غير محلها بعيداً عن مناطق منكوبة في أفريقيا هدها القحط ومزقتها الجوع، فهي حتماً في أمس الحاجة إليها، وأحق باستقبالها. فأبي عدل هذا في الطبيعة!

صيف لندن مع أنه غير مستقر ويعرف تقلبات طقس كبيرة وكثيرة تكاد تكون يومية أحيانا ويشهد سقوط الأمطار بنسب متفاوتة في كل شهر، يبقى بالنسبة لشقيق وأنجلينا معا أرحم فصول السنة. فهو أكثرها إشراقا ودفئا، وأفضلها للخروج والجوال، والاستمتاع بالحدائق الساحرة الكثيرة في أرجاء هذه المدينة.

كان لابد من إمضاء هذا الفصل في بريطانيا وإرجاء العطلة إلى ما بعد الصيف والإسراع إلى حجزها ووضع كل الترتيبات لها من الآن ربحا للوقت وتجنبنا للأسعار المرتفعة عند الحجز في آخر لحظة.

تصفّحت أنجلينا كتيبات العطلة السمكية التي أحضرها لها شقيق من مكاتب وكالات السفر في المدينة. اتسعت عينها إعجابا وهي تنظر إلى إحدى صفحات كتيب وكالة أسفار (أير تورز).

«أعتقد أنني وجدت المدينة ! انظر!» صاحت بإثارة.

ترك شقيق ما كان بين يديه وهرع نحوها.

«انظر إلى هذه الصور! انظر إلى هذه الشواطئ الذهبية! كم هي جميلة!» هتفت بإثارة ثم رفعت بصرها نحوه.

لمعت عيناه إعجابا وهو ينظر إلى تلك الصور التي ذكرته بشواطئ بلاده.

«واو! واو! واو!.. برافو أنجلينا! روعة!..». صاح فوراً في عفوية. ولم يكذب بصره على اسم المدينة حتى انقبض صدره، وابتسر وجهه، وانعقد لسانه فلم ينبس ببنت شفة.

أنجلينا المنشغلة بالإشهار ومنتجعات البحر وفنادقها بين يديها لم تنتبه إلى ردة فعله هذا.

«أعجبني فندق كنعان سبا هوتل لكنه يبدو مرتفع التكلفة! دعني أريك فندقاً آخر يبدو مناسباً لنا من حيث القرب من وسط المدينة والمرافق والتكلفة، ويبدو رائعاً من خلال الصور!» هتفت وهي تقلب الصفحات. «إنه فندق عدن! أقل من ميل واحد من وسط المدينة ويؤمن خدمة النقل من المطار. وهو قريب من الشواطئ وكل المرافق في المدينة. ويقع على بعد عشر دقائق فقط من متحف العلوم والتكنولوجيا والفضاء الوطني الإسرائيلي في مدينة حيفا.. لن نجد أفضل من ذلك!»

وقف شفيق أمامها مشدوها، ملجم اللسان، لا يدري ما يقوله لها. رحل بوجوده بغتة إلى مهد الحضارات البشرية والديانات السماوية الممتدة عبر آلاف السنين.. إلى أرض طاهرة عكّر صفوها الصراع.. وإلى أرض سلام خيمت فيها طويلاً أشباح الحرب..

وبينما كان يفكر في كل ذلك، لم يكن يدري لماذا سرح فكره فجأة إلى كلمات أغنية «تخيّل» ل جون لينون:

«تخيّل أنّ كل البشر يعيشون لأجل اليوم..

تخيّل أنه لا توجد دول..

ليس ذلك صعباً..

لا شيء تقتل أو تموت لأجله..

ولا دين..

وتخيّل أنّ كل البشر يحيون حياتهم في سلام...».

ما أسهل تخيل هذا العالم الجميل وما أصعب تجسيده في واقع مرير
تميزه الاختلافات والنزاعات منذ فجر الإنسانية، في كامل أرجاء الدنيا!
لقد وهبت الطبيعة الإنسان خيالا واسعا، وعقلا عظيما. فهل أحسن
الإنسان استخدامهما؟!!

إن كان في وسع الإنسان أن يستخدم هذا الخيال والسباحة به إلى أبعد
الحدود، وإلى حد تشييد عالم جميل وآمن مجرد من الحدود وكل ما من
شأنه أن يفرّق شمل البشر وينشر الضغينة والشر بينهم، على منوال عالم
«تخيل ل جون لينون»، فقد ظلّ هذا الإنسان، على ما يبدو، عاجزا عن
استخدام العقل لإحلال الأمن ونشر رسالة المحبة والسلام في العالم! وكان
من النتائج المنطقية لغياب السلام في هذا العالم إقامة مزيد من الحدود،
ونصب الحواجز، ونشر الأسلاك الشائكة بين الأمم بدلا من فتح الحدود
ومدّ جسور المحبة والصداقة والتعاون بينها، وهي جميعا تشترك في امتلاك
العقل والمشاعر، والقدرة على التفكير وحل المشاكل ومراعاة للمشاعر.
وتشارك هذه الشعوب بكل أعراقها وألوانها ولغاتها، وبمعتقداتها ومن غير
معتقداتها، في انتمائها إلى الجنس البشري!

أنجلينا كانت بريئة عندما اختارت سواحل جميلة أثارت إعجابها. وكان
شقيق نفسه بريئا في تلك اللحظة عندما نظر إليها نظرة طبيعية عفوية مجردة من
ثوب الخلفيات، ودنس الحسابات، وكل المؤثرات، فعلق بها بصره، وتعلقت

بها روحه، إلى أن تدخل عقله بجبروته فأزاح نظره عنها، وشوّه له منظرها بحبر
أحكام لم يساهم هو في إصدارها، وخلفيات وخلافات لا ذنب له فيها!
وها هو عقله يأمره بوجد الأبواب في وجهها، وصرف باله عنها، ويحذره
من عواقب اجتياز الخط الأحمر المحاط بها، ويذكره أنّ في منطق الأذهان
المتعصبة، من يقرب المحرم، لا يُرحم.

تغيّرت ملامح أنجلينا فجأة وهي تراه منشغل البال، متوترا على غير
العادة في مثل هذه الساعة الجميلة وهي تحدثه عن موضوع السفر المفرح
والمثير، وهو من كاد يطير من شدة الفرح لأجله.

«ماذا حصل؟ هل أنت على ما يرام؟» سألته في حيرة.

«لا بأس، لا تشغلي بالك.. لكن إسرائيل.. أعذر!..».

أنجلينا التي فهمت المسألة الآن، ألقت الكتيب على الأرض دون تفكير،
وراحت تعتذر كما لو أنها ارتكبت أكبر ذنب في الدنيا.

شفيق سارع فوراً إلى طمأنتها أنّ الخطأ لم يكن منها ولا منه هو، وإنما
من الأجواء السياسية السلبية، والأفكار المتعصبة، والمواقف المتصلبة،
والتصورات الخاطئة التي ما زالت، إلى زمننا هذا، تؤمن بإمكانية طرد
شعوب برمتها من أرض تحيا فيها منذ آلاف السنين وإلقائها في عرض
البحر، تغرقها الأمواج، وتنهشها الحيتان في عالم يتسع لكل البشر!

لم تكن تلك الشواطئ الذهبية الخلافة هي كل ما أثار اهتمامه بل أيضاً
مدينة القدس التي شهدت عبر تاريخها الطويل تعاقب الامبراطوريات

والحضارات. لشدّ ما أعجب بالتنوع الثقافي والثراء الفكري في تلك المدينة. وذلك التنوع يذكره حتما بالتنوع الموجود في العاصمة البريطانية لندن التي تتعايش فيها كل أجناس الدنيا ودياناتها في أمن وسلام. فهو اليوم يشعر أن «أورشليم/ القدس» تستطيع أن تكون في يوم من الأيام أفضل نموذج للتعايش والمحبة والتسامح في العالم وكيف لا وهي تجمع أكبر ديانات في الدنيا!

أبلغ شفيق أنجلينا أن إيمانه بمدينة قدس آمنة متعددة الأجناس والديانات والثقافات ألهمه يوما لأن يكتب مقالة بعنوان «مدينة التسامح والسلام». وكم كانت سعادته لما شاهد مقالته في إحدى الصحف العربية الصادرة في لندن. عرضها على صديقه جمال عندما زاره ذات مساء. وكان متعلما متخرجاً من معهد اللغات في الجامعة المركزية بالجزائر العاصمة، شغوفاً باللغة والأدب. فالتمس منه رأيه في المقال.

قرأ صديقه المقال بتمهل وإمعان وهو يهز رأسه من حين إلى آخر متعجباً، وما إن بلغ نهايته حتى انفجر ضاحكاً حتى دمعت عيناه.

«أقول بالمختصر المفيد...». قال له وهو يمسح دمه بطرف كمّه. «لو أنّك وقفت الآن أمام عساكر إسرائيليين وقرأت مقالاتك هذه، لما أطلقوا عليك رصاصة واحدة!»

لم يفهم شفيق حينئذ ما كان يقصده صديقه، ولا علاقة المقال بالعساكر ونقطة التفتيش والرصاص، ولم يحفل بشيء. وسرعان ما غيّر

الموضوع لينشغلا بالحديث عن مشاغل أخرى لا تنتهي. وفي وقت لاحق، وفي سكون غرفته، استحضر ذلك المشهد الذي صورّه له صحبه عندما فرغ من قراءة مقاله. لم يكن ذلك المقال، على ما يبدو، عند حسن ظن هذا الرجل لأنه لم يكن بتلك اللهجة التي كان يتطلع إلى مشاهدتها في كتابه. فالتعامل مع الخصم لا يكون إلاّ بالسلاح، وهو يملك سلاحا فتاكاً يتمثل في القلم، ومع ذلك لم يشهره في وجه «الأعداء». هكذا كان ينظر صديقه إلى موقفه. وهكذا سينظر مجتمعه إلى مقاله وإلى مواقفه التي صقلتها الحياة في بيئة بعيدة عن مجتمعه يحيا فيها كل أعراق الدنيا وألوانها ودياناتها في انسجام لا يوصف.

ما أقصر نظر هذا الصديق إن لم يستطع أن يمتد خلف قشرة الجوزة إلى اللب الكامن في أعماق ذاته! وما أضيق فكره إن لم يتسع لفهم ما يجول في خاطره وإدراك أفكاره ومواقفه! وما أجهله! فمع أنه يعرفه منذ أمد طويل، لم يكن يعرف عنه، على ما يبدو، إلاّ القليل!

سنوات طويلة من الصداقة واللقاءات المتتالية والزيارات المتكررة والأحاديث التي لا تكاد تنقطع، لم تمنعه على فهم طبعه! فهو حتى الآن، لم يدرك بعد أنّ روحه تطفح إكباراً وإجلالاً للمحبة والإنسانية والحضارة التي لا مكان فيها ولا معنى في قاموسها العظيم للتفكير الأحادي الضيق والشعور العدائي وأسلوب القوة والعنف. لم يكن يدري لماذا في هذه اللحظات، وأكثر من أي وقت مضى، امتلكه شعور غريب بالتعلق بأنغام كلمات أغنية

«تخيّل» لجون لينون. تغمره سيولها العذبة، فتطهّر روحه من الأفكار السلبية،
وتفعم نفسه بالمشاعر الإنسانية الحميدة. كان يعيش كل كلمة وكل نعمة منها
بكل جوارحه، فيشعر بالتأثر حيناً، والطرب إلى حد الجنون أحياناً:

«تخيّل أنّ كل البشر يعيشون لأجل اليوم..

تخيّل أنه لا توجد دول..

ليس ذلك بالأمر العسير..

ليس ثمة ما تقتل أو تموت لأجله..

وليس ثمة دين..

وتخيّل أنّ كل البشر يحيون حياتهم في سلام..».

جون لينون

كان الجو مكفهرًا وممطرًا في الرابع من شهر نوفمبر عندما وصل شفيق وأنجلينا إلى مطار ستانستد. وعلى متن طائرة «اير تورز» العملاقة تعرفا على زوج آخر، رجل قدّم نفسه إليهما على أنه مستر ريتشارد شامير، بريطاني من أصل يهودي، من منطقة (بارني) في شمال لندن، يشتغل مساعد مدير في مؤسسة (بي سكاي بي) الفضائية، وزوجته ديان، أسترالية الجنسية، مديرة في أحد فنادق (هوليدي إن) في لندن. كانا هما أيضًا مسافرين إلى جزيرة (جران كناريا). وشاءت الصدفة أن يحجزا هما أيضًا في فندق (سيسايد ساندي بيتش) القريب من شاطئ البحر في منتجع (بلايا ديل إنغلز) في جنوب الجزيرة.

بعد إقلاع الطائرة في هذه الرحلة التي تستغرق أربع ساعات، انشغلت أنجلينا بالقراءة، هوايتها المفضلة، وانشغل شفيق من جهته في الحديث مع ريتشارد. كانت هذه أول رحلة لشفيق خارج بريطانيا منذ حلوله بهذا البلد بينما ريتشارد كان متعودًا على الأسفار مع زوجته الشقراء الجميلة. أخبر ريتشارد شفيق أنه رغم سفره إلى بلدان كثيرة في أوروبا وأمريكا والشرق الأوسط، تبقى جزر كناري في أعلى قائمة البلدان المفضلة لديه لقضاء عطلة. ولكثرة أسفاره إلى هذه الجزر، صار يعرف مدنها وشواطئها وفنادقها وأماكن الراحة والاستجمام وكل شبر فيها. كان يحدثه عنها بكل التفاصيل كما لو كان حقًا من أهلها. حدثه عن جزيرة كناريا الكبرى هذه ومنتجع

بلايا ديل إنغلز، ونصحته بزيارة حماسبالوماس. قال له إنها تشبه الصحراء بمناخها وكثبانها الرملية، ويمكنه ركوب الجمال فيها، وهي ليست بعيدة عن المنتجع. فأثار بحديثه هذا فضوله، وفتح به شهيته، فاتفق فؤاده إثارة وشوقا إلى الوصول إلى هذه البلاد البعيدة واكتشافها والاستمتاع بها. سرّ شفيق بالتعرف على هذا الرجل اللطيف والمساعد الذي تكرم عليه بمعلومات متنوعة عن الجزيرة بغير حساب.

كان الجو في إنجلترا في تلك الأيام مغيما وممطرا وباردا. تيارات هوائية منخفضة، شاهدها شفيق على خريطة نشرة الأحوال الجوية على شاشة (سكاي نيوز)، ما انفكت تتوالى على هذه الجزر، كالأموج الهوجاء الغاضبة المتلاطمة على صخور الشواطئ.. منذ أسابيع وهذه التيارات تتوالى على هذه الجزر بغير رحمة. فتتوالى معها السحب الداكنة الكثيفة وزخات المطر المتساقطة بغير شفقة ودرجات الحرارة المنخفضة إلى حد التجمد.. وما زال مركز الأحوال الجوية يترقّب استمرار هذه الاضطرابات خلال الأيام القادمة. ولا يلوح في الأفق بصيص أمل في بزوغ قريب للشمس التي لم يعد يذكر آخر مرة شاهدها في سماء هذه المدينة.. شمس رحلت ولم تعد.. ولن تعود إلاّ وقد رحلت هذه التيارات الباردة الرهيبة كما لو كان وجودها يزعجها ويث الرعب فيها.. شمس لا تستطيع الحياة بين الغيوم الداكنة الكثيفة المتراكمة في الأفق، وهل تستطيع شعلة من النار البقاء بين سيول مياه جارفة؟!

سيول جارفة من مشاعر الغم والاكتئاب والتشاؤم تغمر نفسه كلما شاهد مثل هذه النشرات. لكن لم تكن الحال كذلك هذه المرة! فهذه

المرة، ولأول مرة، لم يكن يفكر في بريطانيا! ولا في مناخ بريطانيا! ولم يكن يشغل باله في واقع الأمر إلاّ شغل واحد وهو السفر المرتقب. ولعل كلمة «سفر» ليست الكلمة المناسبة في مثل هذا السياق، واللفظة الأنسب والأدق هي بالأحرى «الهروب» من الجزر البريطانية، والهروب من ضغط العمل والحياة الروتينية القاتلة والفرار من الظروف الجوية السيئة، وأخذ قسط من الراحة في مكان ما بعيد.

كان يشعر أنّ الطقس في جزر كناري أو في أي مكان آخر في الدنيا حتى إن لم يكن لطيفا، سيكون حتما أقل قساوة وأقل بشاعة وأقل كآبة من الجو البريطاني الرديء. حتى الإنجليز أنفسهم يعترفون برداء المناخ البريطاني ويفرون منه إلى البلدان المشمسة ومنها جزر كناري على منوال هؤلاء المسافرين على متن هذه الطائرة. هؤلاء الإنجليز عندما تضطرب الأحوال الجوية، يشيرون إلى ذلك بعبارة ما فتئت تتردد على مسمعه منذ دخوله بريطانيا وهي: «الطقس البريطاني النموذجي» أو الاعتيادي. فقد حكمت عليه الأقدار أن يحيا بقية عمره في هذا «النموذج المناخي البريطاني» المفتوح على المحيط الأطلسي في الغرب والمعرض لكل التيارات الهوائية الباردة التي لا تحمل في طريقها غير الغيوم والأمطار والقرّ، بعيدا عن وكره الأصلي «النموذج المتوسطي» الشمال إفريقي في الشرق المعروف بسمائه الزرقاء وشمسه ودفئه. ذلك هو قدره الذي لا مفر منه، وتلك هي الحياة. وتستمر الحياة، التي لم يخترها أحد، بجمالها وقبحها، وفرحها وترحها، وإيجابياتها وسلبياتها، وفي كل الظروف الجوية الموجودة فيها.

في إحدى حلقات مسلسل الحياة هذا الذي يعيشه ولا يدري أين يقوده، يجد نفسه بين السماء والأرض في رحلة طويلة من سواحل أوروبا الغربية إلى سواحل أفريقيا الغربية. وها هو قبطان الطائرة في الأخير يأمر طاقمه بالجلوس وقد شرعت الطائرة في الهبوط شيئاً فشيئاً في مطار (لاس بالماس) الدولي بعد نحو أربع ساعات في الجو.

وقف شقيق مشدوها أمام المشهد المنبسط أمامه وهو يقف في أعلى سلم الطائرة. كانت السماء تبدو زرقاء ناصعة، تسطع فيها أشعة الشمس البنفسجية. تهب نسمة هواء دافئة فتتهز شعره وتلاعب وجهه وهو يخطو خطواته الأولى على السلم. أمسك أنجلينا من ذراعها وصاح بإثارة وقد تفرق الدمع في عينيه:

«انظري إلى هذا! يا إلهي! لا أصدق!»

لم يكن يصدق ما يشاهده أمامه. أيعقل أن يكون ما يشاهده الآن واقعا؟! هل هذه السماء الزرقاء الصافية التي لا تشوبها سحابة واحدة واقع؟! وماذا عن كل هذه الأجواء المشرقة الدافئة التي تغمره الآن، هل هي كلها واقع؟! أيعقل أن تكون كل هذه الأشياء الجميلة أمامه واقعا؟! أليس الواقع هو ذلك الذي يعيشه كل يوم في لندن ويتسم ببرودة الطقس والغيوم والأمطار والجو الذي لا يعرف السكون والاستقرار؟! أليس ذلك هو الواقع الذي يعرفه ولم يعرف غيره لسنوات طويلة؟! أيعقل أن يوجد محيط بمثل هذا الدفء والبهاء؟! محيط ما زال ينعم بأجواء فصل الصيف في وقت تخيم فيه الأجواء الشتوية على الجزر البريطانية وقسم من أوروبا؟!

كان يبدو جلياً أن السنوات الماضية التي قضاها تحت سماء لندن الممطرة والباردة قد طبعت أثرها في وجدانه وأنسته أن هنالك عالم آخر مختلف خارج الجزر البريطانية.. عالم آخر بعيد مشرق ودافئ مثل هذا العالم الذي يوجد فيه الآن.. عالم آخر مختلف عن العالم الذي قدم منه اختلاف الشتاء والصيف، والقرّ والحرّ، والليل والنهار، والظلام والأنوار، لا يبعد إلاّ بساعات قليلة عن لندن!

كان تأثير هذا العالم أعظم مما يستطيع أن يحتمل وأشدّ مما كان يتصور. لم يتمالك نفسه، ففاضت الدموع من عينيه، سارع لإخفائها عن أنجلينا التي بدت مرهقة من السفر ولم تعد تركز كثيراً أو بالأحرى ترغب في التركيز. لكن صوته المتأثر خانته وأثار انتباهها. التفتت نحوه وجذبت من ذراعه واستوقفته وضمته إلى صدرها بعطف وحنان، ثم نظرت إلى وجهه المبلبل بالعبرات نظرة تنم عن أسى وانشغال.

«ماذا حصل حبيبي؟!» صاحت وعلامات الحيرة بادية عليها. «هل أنت على ما يرام؟! هذه في الحقيقة أول مرة أرى فيها دموعك! ما الذي يحزنك هكذا؟! «لست أدري! ربما دموع فرح.. لم أستطع!.. تدفقت هكذا عندما شاهدت هذه الأجواء الجميلة!..». قال ضاحكاً وهو لا يقوى على حبس دموعه أو ضبط صوته المخنوق بالبكاء. «هذه السماء الزرقاء!... هذه الشمس في الأفق! هذا الدفء المحيط بنا! كل هذه الأشياء حولنا حركت عاطفتي!.. لم أستطع أن احتمل! أشعر كما لو أنني خرجت من نفق مظلم طويل إلى ضياء النهار!»

ومسح عينيه بيديه وتابع في صوت متأثر والدموع ما برحت تنهمر على خديه:
«إنه فلاش باك لإرادي! هذه المشاهد والأجواء، يا أنجلينا، هوت بي
إلى الماضي! أخذتني إلى بلادي! وذكرني بتلك الأيام التي كنت فيها
أتجول في الشوارع في مثل هذا الوقت من السنة وأنا أرتدي تي شيرت!
لكم اشتقت إلى تلك الأجواء! ولكم اشتقت إلى ارتداء لباس صيفي مثل تي
شيرت! لا أذكر آخر مرة لبست فيها تي شيرت في لندن هذه السنة! ولا لكم
من يوم أو ربما لكم من ساعة!»

«أفهم ما تقول حبيبي. وأشعر بالأسف الشديد وأنا أراك في مثل هذه
الحال». قالت أنجلينا وهي لا تفارقه ببصرها.

«أنا آسف يا أنجلينا! كان الأمر أقوى من إرادتي!..».

رحلت هذه المشاهد بشفيق إلى بلده الجزائر، وإلى مهد طفولته، فوقف
أمام طيف الذكريات مشلول الوجدان، واهن الخاطر، عاجزا عن ضبط
بركان العواطف المتأجج في صدره.

لاح الألم والأسى في عيني أنجلينا وهي تتابع مأساة عشيقها. مدت يديها
فمسحت الدموع على خديه، ثم ضمته إلى صدرها ثانية وقالت وهي تحاول
مواساته والتخفيف عنه بقدر الإمكان:

«لا تحزن حبيبي! الشيء الوحيد الذي كان ينقصنا في بريطانيا هو السفر..
ونحن لم نسافر من قبل لأننا لم نفكر في ذلك أو ربما لأننا كنا مشغولين بأمور
كثيرة مثل البحث عن العمل والمنزل. وقد سويننا كل هذه الأشياء الآن! من

الآن فصاعدا، ليس ثمة عذر! سنسافر! سنسافر إلى أماكن دافئة تروك مثل هذا المكان، ولم لا؟ كل شيء سيكون على ما يرام، أعدك بذلك!»
ونظرت إلى عينيه المحمرتين من البكاء وتابعت وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة خفيفة.

«لأبد أن تزور معي النمسا في أقرب وقت ممكن!» صاحت بحماس.
«سيعجبك المناخ هناك! الصيف في النمسا لا يشبه الصيف في بريطانيا! الحرارة أحيانا تتعدى الثلاثين! والجو هناك لا ينقلب مثل الجو في لندن حيث نعيش الفصول الأربعة في يوم واحد! لأبد أن تزور معي النمسا قريبا!»
هزّ شفيق برأسه دون أن ينبس. فأضافت أنجلينا باسمه: «على كل حال، سنتحدث عن ذلك بالتفصيل بعد عودتنا إلى لندن. أما الآن، أنس لندن وجو لندن، وأنس بريطانيا، وأنس النمسا، وكل العالم، وحاول التفكير فقط في هذا المكان الذي نوجد فيه الآن وفي الحاضر الذي نعيشه! وحاول الاستمتاع بالعطلة! الوقت يمر! كنت تبحث عن الجو المشمس الدافئ، وها هو الآن بين يديك! فاستمتع أرجوك!»

أصغى شفيق إلى أنجلينا التي بدت منطقية حكيمة في كلامها. أخذ يدخل في أجواء العطلة رفقة هذه الفتاة الرزينة الحكيمة الساحرة بمجرد أن خرجا من المطار وركبا حافلة كانت في انتظارهما لنقلهما إلى الفندق في منتجع بلايا ديل إنغلز بمساعدة مندوب وكالة إير تورز.

خلال تلك الرحلة الطويلة من شمال الجزيرة إلى جنوبها والمقدرة بنحو ساعتين، راح يستمتع بالمناظر الساحرة والطبيعة الأفريقية الفاتنة، تتردد في

خياله بغير انقطاع أنغام Happy Together (معا في منتهى السعادة)،
فترسم ابتسامة على شفتيه، وتبت شيئاً من الراحة والسعادة في نفسه المتأثرة:

«تخيلي نفسك معي، فهذا ما أفعله
أفكر فيك ليلاً ونهاراً، إذ أنه حق
أن تفكر في الفتاة التي تحب، وأن تحضنها بحرارة
معا في منتهى السعادة.

إذا هاتفتك، بأقل تكلفة،
وأبلغتني أنك لي وطمأنت
خاطري
تصوري كيف سيكون العالم
في أحسن
حال
معا في منتهى السعادة.

لا أراني أحب أحداً سواك
طول حياتي

عندما تكونين معي حبيبتى،
تكون السماء زرقاء
طول حياتي.

أنا وأنت، وأنت وأنا
لا يهم كم من مرة يرمون النرد،
لا بد أن يكون
قدري الوحيد أنت، وأنت قدري.
معافى منتهى السعادة..».

ما أفخم هذا الفندق! وما أحلى هذه الأطباق المتنوعة المعروضة على
الموائد ضمن خدمة البوفيه! وما أجمل الاسترخاء على رمال الشواطئ
والاستماع إلى هدير الأمواج المنكسرة على الشاطئ والاستمتاع بأشعة
الشمس الدافئة!

ها قد وجد شفيق كل ما كان يحتاجه على بعد أمتار قليلة منه! لم يكن في
حاجة إلى السفر بعيدا في تلك الجزيرة ليجد المتعة، فكل شيء كان متوفرا
في الفندق والشواطئ القريبة!

وهكذا، باستثناء تلك الرحلات المنظمة إلى منتزهات مثل حديقة
(بالميتوس) وحديقة التمساح، كان ينفق وقته في السباحة والاسترخاء
في المسبح بالفندق أو على رمال الشواطئ. صار ينفق ساعات طويلة
من وقته مستلقيا تحت أشعة الشمس، كما لو كان يسابق الزمن لشحن
بطارياته من هذه الشمس قبل الرحيل عن بلاد الشمس والعودة إلى بلاد
الضباب والسحاب.

أنجلينا، من جهتها، كانت تفضل الاسترخاء تحت المظلة متجنبه أشعة
الشمس التي، مثلما أبلغت حبيبها، كانت تؤثر في بشرتها البيضاء الحساسة.

كانت في أوقات الفراغ هذه تحرص على القراءة مثلما كانت تفعل في لندن. ما جذبها أيضا في هذه الجزيرة كان التجول في شوارع المدينة والتسوق. وبينما كانا يتجولان في أحد أروقة أحد مراكز التسوق في المدينة، أستوقفهما شاب أشقر قال إنه يعمل لدى مكتب سياحي وعرض عليهما المشاركة في مسابقة لنيل إحدى جوائز المكتب. قدم لهما كيسا فيه مجموعة من الوريقات المطوية ودعاهما إلى سحب إحداها. لم يكدا يفتحها حتى لمعت عيناه دهشة وإعجابا. صاح بإثارة معلنا فوزهما بأكبر جائزة، تتمثل في الإقامة لمدة أسبوع في فندق خمس نجوم في هذه الجزيرة. ودعاهما إلى زيارة هذا الفندق لمعايته ولاستلام القسيمة موضحا أنها صالحة للاستعمال لمدة سنة. وأوقف أول سيارة أجرة يشاهدها، وأخذهما إلى أحد الفنادق الفخمة في المدينة، ليعرض عليهما بعد ذلك شراء «تايم شير» أو حق الانتفاع من إقامة مجانية لمدة أسبوع كل سنة في فنادق خمس نجوم تشترك في مشروع «تايم شير» منتشرة في كامل أنحاء العالم. كان العرض يبدو مغريا لا سيما لشقيق الذي كان يحترق رغبة في السفر إلى البلدان الدافئة مثل جزر كناري فرارا من المناخ القاسي في الجزر البريطانية. وها هي فرصة الإقامة المجانية لمدة أسبوع كامل مرة في السنة في أفخم فنادق العالم تعرض عليه، مع أن بريطانيا علمته أنه لا يوجد شيء مجاني في هذه الدنيا. وبينما كان مستغرقا في قراءة العقد الطويل والمعقد بين يديه والذي يلزمه بدفع عربون ببطاقة ائتمان والتعهد بدفع مبالغ أخرى بعد عودته إلى بريطانيا تصل إلى آلاف الجنيهات، سأله ذلك الشاب من باب الفضول عن

بلده الأصلي. وبمجرد أن أخبره شفيق، تغيرت ملامحه وبدأ عليه شيء من الانشغال والتوتر. نظر حوله كما لو كان يرغب في التأكد أنه لا يراقبه أحد ثم قال لشفيق باللغة العربية:

«أهلا بك يا ابن بلادي! أعرفك بنفسي.. إسمي نزيـم.. جزائري مثلك.. من مدينة البويرة!»

«واو! ما كنت أتصور ذلك أبدا! لو لم تحدثني بهذه اللغة لما صدقتك! لو طلبت مني التخمين لقلت ربما من ألمانيا أو إسكندينايا!»

«أعلم ذلك! كل الناس يقولون لي هذا!» قال ذلك ضاحك، مضيفا:
«لأنني في الواقع من أصل أمازيغي. إنها جينات والدي الأشقر! هذا كل ما في الأمر!..».

«أنت إذا مقيم في هذه الجزيرة؟» سأله شفيق.

«أنا هنا بشكل مؤقت، ولا أملك إقامة في هذا البلد. دخلت بطريقة غير شرعية. كنت مطلوبا للخدمة العسكرية الإجبارية في الجزائر. وكما تعلم، البلاد في حالة حرب وفوضى، ودخول الجيش يعني أن أكون قاتلا أو مقتولا.. فاخترت سبيل الهجرة غير الشرعية مثل كثير من الشبان الجزائريين الذين عبروا الحدود إلى المغرب وتونس وليبيا، والذين تمتلئ بهم اليوم أقسام الشرطة والسجون في أوروبا!»

«وكيف حصلت على هذا العمل هنا من غير وثائق؟»

«أنا هنا أعمل ببطاقة هوية فرنسية اشتريتها من مهرّب استبدل فيها الصورة الأصلية بصورتي. كنت مضطرا إلى ذلك! أحتاج إلى العمل هنا لجمع بعض

المال استخدمه للسفر إلى فرنسا. ومنها سأحاول الدخول إلى بريطانيا عن طريق ميناء كاليه مثلما فعل بعض الأصدقاء!...».

وتفقد المكان حوله بنظره ثانية ثم تابع:

«اسمعي جيدا! إياك أن تشتري عقد (المشاركة بالوقت) هذا! أنا الآن أغامر بوظيفتي! إذا علموا أنني أبلغك بهذه الحقيقة طردوني فورا! لكن لا بد أن أحذرك لأنك ابن بلادي وتهمني مصلحتك! ما نفعله هنا مجرد كوميديا! ومجرد سرقة! هذا بيع وهمي وتحايل على السياح الأبرياء للاستيلاء على أموالهم فحسب! قد تلومني طبعاً لأنني بعلمي هذا أشارك في النصب والاحتيال، لكنني كنت مضطراً إلى ذلك.. لا يوجد عمل! لقد قطعت عهداً على نفسي أن أتجنب الحرام والمال الحرام للأبد بمجرد سفري إلى بريطانيا.. أنا حشيشة طالبة معيشة!...»

لشدّ ما أثار انتباهه التعبير الشعبي الجزائري «حشيشة طالبة معيشة» الذي لم يطرق سمعه منذ رحيله عن أرض الوطن قبل سنوات. هذا التعبير المتداول في سياق الحديث عن القناعة والبراءة والذي يعني «شخص بسيط يرغب في الحياة» ينطبق بالتأكيد على هذا الشاب وكثير من الشباب الآخرين الذين شاهدهم شفيق يعملون في المراكز التجارية ويبيعون أشياء بسيطة مثل النظارات الشمسية ومنتجات يدوية بسيطة وعقاقير وأشياء أخرى. كثير من هؤلاء تدفقوا من المغرب وموريتانيا ودول أفريقية مجاورة، كهؤلاء البدو الرحل الذين يتولون تجارة ركوب الجمال في صحراء ماسبالوماس. كان لشفيق حديث مع هؤلاء الرجال البسطاء الكرام

أثناء الرحلة الهادئة والممتعة على ظهر الجمال حيث أخبروه أنهم قدموا من (بئر أنزان) بالصحراء الغربية غير بعيد عن هذه الجزر. بعض هؤلاء الأجانب قطع مسافات طويلة للوصول إلى هذه الجزر مثل هؤلاء التجار الوافدين من مصر ولبنان والهند وباكستان.

يختلف هؤلاء البشر حتماً في الانتماءات العرقية، واللغات الأصلية، والثقافات، والمعتقدات، والعادات والتقاليد، وطرق التفكير، لكنهم جميعاً يشتركون في بساطة الحال والصراع اليومي لأجل كسب لقمة العيش والحياة. كان شفيق يلتقي هؤلاء العرب والأفارقة في المتاجر والأسواق والشوارع والأماكن العامة حيث يعملون لساعات طويلة لأجل كسب دخل يقتاتون منه ويعيلون به أسرهم في أوطانهم.. وبينما يوجد السياح في هذه الجزر للاستمتاع بالشمس والدفء والراحة والاستجمام، فإن هؤلاء الأجانب موجودون فيها لغاية مختلفة وهي السهر على خدمتهم، وتوفير سبل الراحة والمتعة لهم.. وإنهم يفعلون ذلك لكسب لقمة العيش بعرقهم وجهدهم، متحملين ويلات البعد عن أوطانهم وأهاليهم. بعض هؤلاء البؤساء لا يرى أطفاله إلا مرة في السنة أو السنتين، لبعد المسافة وارتفاع تكلفة السفر والحاجة إلى العمل المستمر للبقاء.

أما في الفندق الفخم، فكان يشاهد أصنافاً أخرى من البشر. سياح يتدفقون من بريطانيا وإيرلندا وألمانيا على وجه الخصوص، فضلاً عن دول إسكندينايا وروسيا والبلطيق، كهذا الفوج الأخير الذي وصل رفقة مندوبه

السياحي من فنلندا، يرتدي أفرادهم معاطف سميكة وأحذية طويلة وقبعات صوفية، تخالهم نزلوا من ألاسكا أو سيبيريا! يشترك هؤلاء السياح جميعا في فرارهم من الأجواء الشتوية الباردة، التي بدأت تجتاح هذه الدول، وبحثهم عن الشمس والحرارة والراحة والمتعة، وهو ما يتوفر طبعا في مثل هذه الجزر المشمسة، ما يجعلها تنبض بالحركة والحياة طيلة أيام السنة، ويجعلها قبلة للسياح والعمال الساهرين على خدمتهم.

كان الفندق يوفر نشاطات ترفيهية متعددة للنزلاء. من جملة ذلك سهرات موسيقى ورقص تحييها فرق محلية، تتردد فيها أنغام انجليزية وإسبانية وأخرى، هادئة حيناً وصاخبة أحيانا.. أنغام من السبعينات والثمانينات والتسعينات من أقطار غربية مختلفة.. أنغام متنوعة أضفت على تلك الأجواء طابعا عالميا بديعا، وأثارت اهتمام وإعجاب شفيق وأنجلينا، فراحا يترددان إلى قاعة الاحتفالات الكبيرة والفخمة كل ليلة بعد العشاء، فيستمتعان بالأجواء الموسيقية المثيرة إلى ما بعد منتصف الليل أحيانا.

وفي إحدى هذه السهرات الجميلة، وخلال استراحة قصيرة للفرقة الموسيقية، خطر ببال شفيق سؤال لم تكن تتوقعه أنجلينا.

«دعيني أطرح عليك سؤالاً يا أنجلينا» قال لها وهو ينظر إلى كأس البيرة الذي كانت تحمله بين يديها. «إذا دخل شخص ما حانة أو ملهى في أوروبا وكان فقيرا وكان يرغب في شرب بيرة مثل هذه التي بين يديك، هل يستطيع ذلك وهو لا يملك ستيما واحدا في جيبه، أم لا؟»

ضحكت أنجلينا من أعماق قلبها على هذا السؤال الساذج وقالت:
«أي سؤال هذا! بالتأكيد لا! لا شيء مجاني! خاصة في أماكن مثل
الملاهي! الناس تذهب هناك للترفيه عن النفس وليس للتسول!»
«وأفكك الرأي تماما أنجلينا» قال بهدوء وهو يهز برأسه. «وأضيف فقط
أنه إذا أزعج الناس بتسوله، أقل ما يمكنهم فعله إبلاغ رجال الأمن الساهرين
على أمنهم وراحتهم، ولن يتردد هؤلاء في طرده!..»
«فلماذا سألتني هذا السؤال؟!» قاطعته أنجلينا.

«تذكرت زبونا غريبا كان يزورني في المطعم الذي كنت أشتغل فيه في
ليستر سكوير. في ذلك الوقت كنت أعمل من الصباح حتى الليل. كان
زميلي في إجازة، فكنت أعمل ساعات طويلة ولا أنني عملي حتى وقت
متأخر من الليل.

كان هذا الزبون ضابطا في الشرطة الجزائرية متقاعدا، أعيد استدعاؤه
إلى الخدمة بعد اندلاع الحرب الأهلية في الجزائر. في هذه الحرب التي
لا ترحم أحدا، صار جنود الخدمة العسكرية العزل ورجال الشرطة، بما
في ذلك رجال شرطة المرور الذين يؤدون واجبه المهنى ولا دخل لهم
بالحرب، عرضة للاعتداءات والاعتقالات! فصار كثير من هؤلاء يمكث في
الثكنة أو في قسم الشرطة بعيدا عن أسرته! بعض هؤلاء كان محظوظا مثل
هذا الزبون الذي كان يشغل منصبا عاليا في الشرطة، فكان يحق له أن يقيم
رفقة أسرته في أحياء سكنية مخصصة للشرطة وتنعم بالحماية.

«إلى هذا الحد؟!» صاحبت أنجلينا متعجبة.

«بل أكثر من ذلك! ردّ بحزم قاطع. «هذه الحرب، يا أنجلينا، حكمت بالسجن على المجتمع برمته!.. المجتمع بأسره وجد نفسه بين عشية وضحاها في سجن كبير تلتهمه النيران من كل جهة.. وهذا السجن يتمثل في الحرب الأهلية نفسها.. هذه الحرب المدمرة التي لا يعرف الخروج من أسرها!

وبعدما كانت الأحياء تعج بالجماهير إلى ساعة متأخرة من الليل، صارت خالية قبل حلول الظلام. صار المواطن أسير بيته، والجندي أسير ثكنته، والشرطي أسير مركزه.. ومن يجازف بالخروج يحكم على نفسه بالموت وهو ربما لا يدري! حتى هذا الزبون، رغم سلاحه وقوته ونفوذه كان يشعر أنه مقيد الحركة والحياة! فهو أيضا كان أحد أسرى هذه الحرب وهو ربما لا يدري. وكيف لا إن كان لا يتحرك خطوة إلا وهو يحمل سلاحه؟! ويحسب حسابا لكل تحركاته، ولا يأتمن شيئا من حوله، ولا يشعر بالأمن المطلق والحرية إلا خارج تراب بلاده! مثل رحلته هذه إلى لندن.

أخبرني هذا الزبون أنه كان يزور لندن كل سنة تقريبا لقضاء أسبوع أو أسبوعين بعيدا عن ضغط العمل المجهد والخطير، وبعيدا عن الأسرة المتطلبة. قال لي إنه كان يرغب في الاستمتاع بتلك العطلة بقدر المستطاع قبل ذهابه السنة التالية لأداء فريضة الحج رفقة زوجته التقية وبإلحاح منها.. زوجته التي لم تكن ترى مكانا في الدنيا أفضل وأطهر من مكة، يستحق الزيارة. لكن، هذا الرجل كان يجد متعة كبيرة في شرب الخمر وكان يفعل ذلك خفية عن زوجته وأسرته، كلما وجد فرصة. والأسفار خارج الجزائر،

مثل هذا السفر إلى لندن، كانت تمنحه أعظم فرصة للهروب من الأسرة والتحرر والشرب.

أتى إلى المطعم في إحدى الليالي قبيل عودته إلى الجزائر بيوم أو يومين، وقال إنه كان يرغب في دخول أحد الملاهي والاستمتاع بالشرب والرقص بقدر المستطاع قبل عودته إلى الروتين اليومي في الجزائر، أسره المعتاد. لكن لسوء حظه لم يكن معه مال!

«هذه نكتة! لن يستطيع فعل ذلك طبعاً! صاحت أنجلينا مندهشة.

«هل تصدقين يا أنجلينا أنه استطاع الدخول والشرب معاً ولم يكن يملك مليماً واحداً!»

«غير معقول!»

«لا شيء في الدنيا مستحيل يا أنجلينا! كانت عندي قسيمة تسمح بدخول شخص مجاناً إلى ملهى هيبودروم القريب من المطعم قدمها لي أحد الزبائن كان يعمل مساعد مدير في ذلك الملهى، وكان هو أيضاً أحد زبائني..».

«أو كي، ذلك معقول.. لكن كيف يشرب وليس معه مال؟!»

«هذا ما حيرني أنا أيضاً.. كانت دهشتي كبيرة عندما شاهدته يسير نحوي قبيل منتصف الليل وهو سكران يتمايل ويتعثر في مشيه. سألته كيف حصل ذلك، فأخبرني أنه كان في هذا الملهى المزدهم يتقاسم طاولة كبيرة مع عدد من الأشخاص، فكلما قام الأشخاص للرقص استغل ذلك للارتواء من كؤوسهم! وطبعاً لم يكن في وسعهم الانتباه إلى ذلك في نشوة السكر!»

هم يدفعون ويملؤون الكؤوس وهو يحتسيها معهم، ويتقاسم نشوة السكر والمتعة وإياهم مجاناً!»

سحب شفيق أنجلينا من يدها وسار بها إلى أرضية الرقص التي بدت ممتلئة بالراقصين ما إن استأنفت الفرقة الموسيقية حفلتها وسمع الأنغام الأولى لأغنيته المفضلة، والأغنية التي لم تعد تفارق وجدانه منذ وصوله إلى هذه الجزيرة، والأغنية التي صارت تُقرن في خياله بهذه الجزيرة وهذه العطلة وهذه الفتاة التي معه، أنجلينا، أغنية Happy Together

(معا في منتهى السعادة).

«لست أدري لماذا صارت هذه الأغنية أغنيتي المفضلة يا أنجلينا!» قال ذلك في سعادة وإثارة.

«ربما لأن الأغنية عن السعادة!» ردت أنجلينا مخمنة.

«بل لأنني أشعر بالسعادة!» قال بثقة وحزم. «لا أذكر أنني بلغت هذا القدر من السعادة من قبل يا أنجلينا!»

«أنا أيضاً أشعر بسعادة كبيرة في هذه الجزيرة!»

«تمنيت لو كان في وسعي الاحتفاظ بهذا الشعور الجميل للأبد!» قال ذلك بابتهاج وإثارة وهو يرقص معها في هدوء تحت الأضواء الملونة المتراقصة الساطعة المنعكسة على وجوه الحاضرين في تلك الأرضية الرحبة.

من بين كل هؤلاء الغرباء السعداء، تعرّف على وجهين: الرجل الإنجليزي الذي التقى به في الطائرة، ريتشارد وزوجته الحسناء ديان. ريتشارد لم يكن

يبدو رجلا مثقفا، واسع الاطلاع على جزر كناري فحسب، بل كان أيضا يبدو راقصا ماهرا رفقة زوجته.

«كيف هي الأمور؟! أرجو أن تكون قد أعجبتك هذه الجزيرة!» صاح ريتشارد باتجاه شفيق بمجرد أن لمحّه.

«أكيد! أكيد!» ردّ شفيق. «كل شيء هنا رائع! أروع بكثير مما كنت أتصور!»

«كنت واثقا أنها ستعجبك!»

«كيف لا تعجبني! يكفيني هذا الطقس المشمس! أكاد لا أصدق أن درجة الحرارة بلغت ٣٠ اليوم! ٣٠ درجة هنا، وفي لندن ٣!»

«لهذا نأتي إلى هنا من الشمال في فصل الشتاء! هذه الجزر تحيا بفضلنا! البريطانيون يكادون يملكون هذه الجزر!.. يملكون عقارات ويديرون محلات ويملؤون الشواطئ والمراكز التجارية والمطاعم والمقاهي!... لا أحد يحتاج إلى تكلم الإسبانية هنا!.. الجميع يتحدث الإنجليزية!»

«هذا ما لاحظته أنا أيضا! تعلمت بعض العبارات باللغة الإسبانية، لكني كلما دخلت محلا وجدت أن صاحبه إنجليزي أو يتقن الإنجليزية، فلم أشعر بالحاجة إلى استخدام الإسبانية!»

«اعتني بنفسك وإن احتجت معرفة أي شيء عن الجزيرة والتنقل فيها، لا تردد! أنا هنا كل يوم! سنلتقي! استمتع بعطلتك!»

مما لا شك فيه أنّ شفيق كان يستمتع بكل لحظة في هذه الجزيرة، في الشواطئ، والحدائق، والمراكز التجارية، وفي هذا الفندق الفخم، وفي هذه القاعة المثيرة التي عاد إليها بعد العشاء في الليلة التالية رفقة أنجلينا لحضور سهرة غنائية جديدة تحييها فرقة قيل إنها متجولة قادمة من جنوب إسبانيا.

التحق بهما في الطاولة المستديرة الكبيرة ريتشارد وديان. جلس ريتشارد بجانب شفيق، وجلست ديان بجانب أنجلينا في الجهة المقابلة.

أخذ ريتشارد يتحدث عن أماكن سياحية في الجزيرة زارها في الأيام الأخيرة وأخرى ينوي زيارتها في الأيام المتبقية من العطلة. من خلال كل هذه المعلومات والتفاصيل الدقيقة، بدا وكأنّ ما يعرفه عن هذه الجزيرة يفوق ما يعرفه أكبر مرشد سياحي في هذا الفندق والجزيرة كلها!

حتى الحديقة النباتية في جزيرة كناري التي اقترح على شفيق زيارتها، أطلعها عليها بدقة متناهية، كما لو كان يقرأ عليه كتاباً أو موسوعة! أبلغه بدقة وتفصيل عن موقعها في شمال الجزيرة في الطريق المؤدية إلى العاصمة لاس بالماس. وأخبره أنها ثرية بثروتها النباتية المتكونة من نحو ٢٠٠٠ صنف من النباتات المحلية والعالمية!

وذهب إلى حد ذكر بعض الأصناف المعروفة في الجزيرة والتي لم يسمع بها قط إلا الساعة!

على أنغام Best That You Can Do (أفضل ما يمكنك القيام به) للمطرب كريستوفر كروس المتعالية في هذه اللحظات، مد شفيق بصره نحو الفتاتين الجالستين أمامه. بدتا غارقتين في دردشة هادئة لم تثر اهتمامه الذي انصرف مباشرة إلى ملامحهما الجذابة.

الجمال، مثلما يراه الآن أمامه، لا يشمل أجناسا دون أخرى، ولا يسكن قارات وأوطانا دون أخرى، ولا تحده حدود دولية، ولا تفصله المسافات. فمسافة ١٤ ألف كم الفاصلة بين النمسا وأستراليا لم تمنع هذا الجمال النمساوي الساحر من الانصهار في هذا البهاء الأسترالي الفاتن، ليرسم أمامه صورة ساحرة مثيرة يعلق بها البصر، ويشتهيها خاطر. ويسهو إلى هذا المشهد الفاتن أمامه في حيرة وذهول.. لم يعد يرى أمامه جمالين، ولا منتظرين، وإنما جمالا واحدا منسجما، ومنظرا واحدا متكاملا، تماما مثل المناظر الجميلة المتألفة في الطبيعة.

لطالما نظر الإنسان في مجتمعه إلى الجمال نظرة متحفظة كما لو كان جمال البشر من المحرمات. فالرجل المرتبط بامرأة، لا يحق له أن ينظر إلى جمال امرأة أخرى. وإن فعل، فذلك خداع دميم، وإثم عظيم.. وها هي نفسه تتمرد فتبيح له أن يشاهد الجمال حيثما كان، وأن يستمتع بالجمال ما أمكن.. دون أفكار مسبقة أو تحفظ أو قيود.. وها هو عقله اليوم يصور له

جمال البشر على أنه كل متكامل حتى وإن اختلف من شخص إلى آخر. وهو بذلك مثل جمال الطبيعة التي حتى وإن اختلفت العناصر المؤلفة لها من حيث الشكل والحجم واللون، فإنها تترايط وتنسجم على نحو عجيب لتؤلف مشهدا واحدا وجمالا واحدا منصهرا بعضه في بعض، ولا يمكن فصل بعضه عن بعض. فالإنسان الذي يقف أمام مشهد في الطبيعة، لن ينحصر بصره في مشاهدة شيء واحد في هذا المنظر كالأشجار أو الأزهار أو الأنهار أو التلال أو الجبال أو الرمال. بل سيجول نظره حتما في كامل أنحاء المنظر مستمتعا بكل هذه الأشياء الجميلة المتألفة فيه كافة. حتى اللوحة الزيتية التي تصور منظرا طبيعيا، إذا أخذت منها قطعة بسيطة تصور عنصرا واحدا فيها - قد يكون شجرة أو نهرا أو شيئا آخر - وعرضت تلك القطعة الصغيرة على أحد، فإنها لن تثير الانتباه مثل اللوحة الكبيرة المتألفة من عناصر متألفة. فهي كلٌّ متكامل، وكلُّ عنصر فيها امتداد بعضه لبعض. جمال البشر مثل جمال الطبيعة تماما، فهو عالمي، شامل، متكامل، بكل ما فيه من أشكال وألوان، لا يمكن فصل بعضه عن بعض. وما يشد الانتباه في الطبيعة أيضا أن كل شيء فيها موجود لغاية ما. فإن كانت الثمار للأكل، والماء للشرب، والهواء للتنفس، فإن الجمال موجود لمتعة البصر والنفس. فالجمال لم يخلق لكي يمتلكه الإنسان ويتصرف فيه باستبداد وأنانية. ولم يوجد لكي يقيده الإنسان بأغلال حديدية، أو أن يلفّه في ثياب أو أن يحيطه بأسوار عالية. الجمال خلق ليحيا حرّا طليقا في الطبيعة، تحلق نسائمه العليلة في الفضاء، تنعم بها النفوس العاشقة للجمال.

ويصحو من حلمه الجميل هذا على صوت ديان تستأذن للعودة إلى غرفتها. قالت لزوجها ريتشارد وهي تقوم من الطاولة:

«سأنتظرك، فلا تشرب كثيرا!»

أنجلينا، التي كان يبدو عليها التعب بعد يوم طويل أمضته في السير من شاطئ إلى شاطئ، بدورها استأذنت. ولم يبق إلا ريتشارد الذي التفت نحو شفيق وسأل:

«أين توقفنا في الحديث؟». ودون أن ينتظر رده، نادى النادل الذي كان يمر بالقرب من الطاولة، والتفت نحو شفيق ثانية وسأله:

«ماذا تريد أن تشرب؟ ستكون ضيفي هذه الأمسية، فلا تقلق! ما رأيك لو تقاسمنا زجاجة نبيذ؟»

«لا، شكرا، أنا لا أشرب الكحول. ربما كأس كوكاكولا لايت»

طلب ريتشارد زجاجة نبيذ أحمر له وكوكاكولا لايت لضيفه ثم قال:

«لا ألوئك أبدا! الكحول أصبحت مرتبطة بجملة من الأمراض! قرأت في صحيفة التايمز أن الوفيات المرتبطة بالكحول أصبحت تتجاوز ٨ آلاف سنويا!»

«ماذا؟! إلى هذا الحد؟! سمعت أن الكحول يحصد أرواحا.. لكن لم أكن أتصور أن يبلغ هذا المستوى!»

«بل وأكثر من ذلك! لكن المشكلة، أظن، ليست في الكحول في حد ذاته، مثلما يتصور كثير من الناس، وإنما في إدمان الكحول!»

ملاً ريتشارد كأسه من زجاجة نبيذ أحمر فرنسي من نوع (شاتو مارغو) وضعها النادل على الطاولة أمامه، ثم تابع وهو يمسك الكأس بين يديه ونظره عالق بها:

«لم يخطئ الطبيب باراسيليس في القرن السادس عشر عندما قال النبيذ غذاء ودواء وسمّ! الكمية التي يستهلكها الإنسان هي التي تحدد ذلك! دراسات كثيرة أثبتت أنّ تناول مقدار معتدل من هذا النبيذ له منافع لا تصدق! تصور أنّ هذا النبيذ يساهم في توسيع الأوعية الدموية، ويساعد على منع تصلب الشرايين، ويعمل على تخفيض مستوى الكوليسترول، وتقوية جهاز المناعة، وتخفيض الوزن!»

ريتشارد خرج من العلوم ليتدخل في الأديان. قال لشقيق وهو يصب مزيداً من النبيذ:

«لا أدري لماذا يسعى بعض الأديان لمنع الخمر بالقوة والوعيد بدلاً من نهّي الإنسان عن الإسراف في الشرب، ومنحه حرية الاختيار والتصرف!»

لم يكن شقيق يعلم كل ذلك وربما لم يكن يشعر أنه معني بسماع ذلك أو أنّ له الرغبة في معرفة فوائد خمرٍ لم يشربها ولن يشربها في حياته! أفضل له بلا ريب التقيد بما تعلمه في مجتمعه، وهو أنها من الكبائر ورجس من أعمال الشيطان لا بد له أن يجتنبه!

وتعالت في هذه اللحظات أنغام أغنية Hazard (خطر) لريتشارد ماركس، فأثارت انتباه شقيق الذي رمى ببصره نحو الفرقة العازفة ثم التفت نحو ريتشارد وقال:

«هذه إحدى الأغاني المفضلة لدي! أنا من عشاق إذاعة (مالودي أف أم) وهذه الأغنية تتردد على أمواج هذه المحطة يوميا!»

«أكيد!» قال ريتشارد موافقا. «لأنّ هذه الأغنية حققت نجاحا كبيرا في السنوات الماضية. إن لم تخني الذاكرة، استطاعت أن تحتل المركز السادس أو السابع في قائمة الأغاني المنفردة سنة ١٩٩٢ أو ١٩٩٣.. لا أذكر جيدا!» وأمسك عن الحديث هنيئة ثم تابع مبتسما وهو يحملق في رفيقه:

«لم أكن أتصور أن تهتم بالأغاني الإنجليزية هكذا!»

«الحق أني لم أكن أستمع إلى هذه الأغاني قبل وصولي إلى بريطانيا. واليوم لا أهتم بأي موسيقى أخرى! وأنا اليوم، لا أكتفي بالاستماع إلى الموسيقى. أحاول دائما أن أفهم معنى كل أغنية أستمع إليها.. لكن، لست أدري لماذا وجدت صعوبة في فهم هذه الأغنية بالذات مع أني أصغيت إليها مرارا! أفهم عبارات مثل 'قال سكان المدينة، بأعين جاحفة، إن ذلك الولد ليس على ما يرام'. ويذكر الراوي فتاة تدعى (ماري). يقول عنها: 'كنا نسير بالقرب من النهر.. كانت تحب مشاهدة غروب الشمس'.. ويقسم أنه تركها في عافية وأمان... أشياء من هذا القبيل. فماذا يقصد بالضبط؟ أسأل من باب الفضول فحسب».

«لا ألوّمك أبداً إن لم تفهم هذه الأغنية!» قال ريتشارد وهو يسكب النبيذ في كأسه مجددا. «حتى الإنجليز أنفسهم لا يفهمون لغزها! هذه الأغنية تروي علاقة بين الراوي وفتاة تدعى ماري. كان سكان المدينة يسخرون منه ويقولون

إنه ليس على ما يرام. وبعدها تعرف على هذه الفتاة، صار يخرج للتجول معها بالقرب من النهر ويسبحان في حلمهما بعيدا عن أجواء تلك المدينة. ويذكر الراوي رجل آمن يقول إنه كان يلاحقها. ويعبر الراوي عن حسرتة وألمه لمشاهدة ماري في سيارة في حضان رجل آخر، وهو ما ذكره بمرحلة الطفولة الصعبة التي عاشها حيث تورطت أمه في علاقة مماثلة مع رجل غريب. وفي أحد الأيام، اختفت الفتاة ماري في ظروف غامضة، فوجهت له التهمة. فنراه يدافع عن براءته إلى نهاية الأغنية. ويبقى السؤال المحير: من قتل ماري؟ هل هو الرجل الذي شاهده ريتشارد معها في السيارة؟ أم الراوي ريتشارد نفسه الذي كان يُعتبر مريضا نفسيا؟ أم رجل الأمن الذي كان يراقبها وكانت تخاف منه؟ أم أنها قتلت نفسها؟.. من يدري؟!»

رفع ريتشارد الكأس وأخذ جرعة كبيرة ثم صاح في صوت مثقل من الشراب:

«دعنا من قصة ريتشارد وماري الحزينة! دعنا نتحدث عن شيء جميل! نحن في هذه الجزيرة وهذه السهرة لأجل المتعة! المتعة فحسب! لماذا نهتم كثيرا بمشاكل الدنيا؟! الحياة قصيرة! وما دامت الحياة قصيرة، ينبغي علينا أن نبحث فيها عن المتعة! وليس صعبا الحصول على المتعة في الحياة! نجدها في الأكل.. في الشرب.. في السفر.. في حديث ممتع كهذا.. وفي الجنس طبعاً!»

وأمسك عن الحديث هنيهة ثم تابع:

«هل تعلم أنّ المرأة تفوق على الرجل في المتعة الجنسية؟!»

«لا، أبدا! كيف ذلك؟!»

«أولا، الرعشة لدى المرأة تستمر لزمن أطول من الرعشة لدى الرجل. ثانيا،

عدد الرعشات لا مجال للمقارنة! الرقم القياسي الذي حطمه الرجل كان ٢٦

رعشة خلال ٢٤ ساعة، أما المرأة فقد تصل إلى ٦٠ أو ٦٥ رعشة في الساعة!»

«واو! هذا أمر لا يصدق! من أين لك كل هذه المعلومات؟!»

«إنها الحقيقة! كل هذه المعلومات موثّق. لكن قل لي إن لم يكن لديك

مانع! هل أنت مختون؟»

تفاجأ شفيق بهذا السؤال الشخصي من رجل غريب تعرّف إليه قبل

أيام قليلة فقط ولا يعرف عنه شيئا يذكر! شفيق لم يكن يرغب في التسرع

إلى إصدار أحكام. فهذا الرجل أمامه ينتمي إلى ثقافة مختلفة أراد من باب

الفضول الاطلاع على هذه الممارسة الدينية القديمة. فرد عليه قائلا:

«نعم، كل الرجال يختنون في مجتمعاتنا...».

فصاح ريتشارد:

«كنت أتصور ذلك! أردت فقط التأكد! التأكد فحسب...».

واحتسى جرعة طويلة ثم تابع بصوت متناقل من تأثير الشرب:

«سألتك لأنّ بعض النساء يستمتعن بالجنس أكثر مع الرجال المختونين!

زوجتي أيضا مولعة بالرجل المختون ويسعدها الاستئناس برجل مختون في

هذه الجزيرة.. وفي هذه الليلة.. إن لم تمنع طبعاً؟

ارتجت الكأس بين يدي شفيق، وغصَّ بالشراب فسعل فتطاير الشراب على الطاولة وكادت أنفاسه تنقطع عند سماعه ذلك. نظر بذهول وحيرة إلى هذا الرجل المثقف الجالس أمامه، متسائلاً ما إذا كان جادا في الأمر أم يمزح معه. لكن أيعقل أن يمزح الرجل بكلام مماثل واقتراح غير لائق على حساب زوجته وشرف زوجته وسمعته؟! أو لعله يقول ذلك وهو متأثر بالخمير، لا يعني ما يقول؟! وإن كان جادا، أيعقل أن يعرض زوجته على رجل آخر؟! وأي رجل؟! مجرد غريب تعرف عليه قبل أيام فقط ولا يعرف عنه شيئا!! ويمضي بفكره إلى مجتمعه مستحضرا صور أولئك الرجال الذين يحسبون نساءهم بين جدران البيوت بعيدا عن أعين الرجال، ولا يسمحون لهم بمصافحة الرجال أو مجالستهم أو الاختلاط بهم بأي شكل من الأشكال، لأن ذلك لا يجوز! لم تكن تلك حال الغرباء فحسب، بل أيضا الأقارب. كان يشعر بالإحراج وهو يمد يده لمصافحة بناتهم فيتفاجأ برفضهن، لأن ذلك لا يجوز. وكان يشعر بالضيق وهو يحل ضيفا في بيوت الأقارب في مناسبات مثل الأعياد، فبدلاً من الترحيب به، كان يشاهد النساء والبنات يركضن في كل الاتجاهات هرباً منه، فيختبئن في غرف النوم والمطبخ والحمام، كما لو طراً بالبيت حيوانٌ مفترس جائع، يفتش عن فريسة بينهن ينهشها! كان عليه أن يحتمل ذلك، لأن الاختلاط لا يجوز. حتى جارتة هدى التي كانت زميلة له في المدرسة، كان كلما احتاج إلى استشارتها في موضوع يخص الدراسة، سألها عن طريق أحد أشقائها، فالاتصال بها مباشرة أمر لا يجوز! وكان في الأعياد والأعراس وبقية المناسبات الأخرى يجتمع رفقة الرجال في غرفة،

وتلتقي النساء في غرفة أخرى. ولا يدخل غرفة النساء إلا الأطفال والأقرباء. وحتى في بيوت الأقارب، كان في موعد الأكل يتناول الرجال الطعام على مائدة، والنساء على مائدة أخرى. ولكثرة ما شهد ذلك في حياته، فقد رسخ في ذهنه الاعتقاد أنّ انفصال الرجال والنساء هو القاعدة، واختلاطهم شذوذاً عن القاعدة وأمر لا يجوز! والويل لمن تفوّه بكلام بذيء في الشارع عند مرور رجل وزوجته أو ابنته أو شقيقته، لأن ذلك قد يضرم نيران الغضب، ويفجّر بركان الحرب، ويملأ الأجواء ضوضاء، والشوارع دماء! فالتلفظ بكلمات فاحشة أمامها، ولو من غير قصد، لا يجوز، في مجتمعات خمد فيها صوتُ المرأة الذي لا يجوز!

فإن كان مجتمعه مغلقاً في نظرته إلى العلاقة بين الرجل والمرأة إلى هذا الحد، أيعقل أن تكون المجتمعات الغربية منفتحة إلى درجة أن يلتبس منه رجل غريب أن يضاجع مع زوجته، حبيبة عمره، بكل عفوية وراحة وسعادة كما لو كانت لا تعنيه؟!

ثم ما مصلحة هذا الرجل في ذلك؟! شعر برغبة في السؤال لكن الكلمات أبت أن تخرج من فمه. وإذا بالرجل الغريب يفاجئه بالرد على سؤاله، كما لو أنه قرأ أفكاره:

«أنا وزوجتي لا يجمعنا الحب فحسب، بل أيضاً الصراحة واحترام حرية الآخر.. اتفقنا منذ البداية على أن تكون علاقتنا حرة، تراعى فيها حرية الطرف الآخر وميوله ورغباته. فزواجنا، على سبيل المثال، لا يمنعني من

قضاء نهاية أسبوع مع امرأة أخرى في مكان ما، ولا يمنعها هي أيضا من قضاء ذلك الوقت رفقة رجل آخر!»

فصاح شفيق وهو يبدو مشدوها، عاجزا عن تصديق ما يسمعه:
«لا يمكن أن تكون جادا! هذه زوجتك! هل تقبل حقيقة أن يلمسها رجل آخر! أين الحب والشرف؟!»

ضحك ريتشارد عندما سمع ذلك وقال:

«في تصوري الشخصي، إذا كانت العلاقة بين الزوجين جيدة، لن تتأثر بشيء في الدنيا. إنها مجرد رغبة جنسية، ورغبة في المتعة، ورغبة في إشباع الحاجة الجنسية.. تماما مثل الرغبة في إشباع الحاجة إلى الطعام والشراب... وهل يؤثر إشباع غريزة الأكل والشرب، وما يصحب ذلك من متعة وراحة، في علاقاتنا؟!»

أما ما نعتبره شرفا أو عارا، فذلك كله أحكام من صنع عقل الإنسان وتأثير الأديان. وتصوراتنا لهذه الأشياء قد تختلف وهذا أمر طبيعي!»

أمسك ريتشارد عن الحديث قليلا، فشرب ما تبقى في كأسه ثم أضاف وهو يملأ كأسه مجددا:

«زوجتي معجبة بك منذ أن شاهدتك! أتدري لماذا؟! قالت إنك ذكرتها بشاب مغربي تعرفنا إليه في أحد فنادق مدينة طنجة قبل سنتين، له ملامح تشبه ملامحك! زارنا في غرفة الفندق يوما. وفي لحظة من اللحظات استأذنت بحجة الرغبة في المرور بالبنك لإجراء تحويل مالي عاجل قبل أن يقفل. ولما عدت بعد نحو ساعتين وجدت زوجتي مستلقية في الفراش.

بدت متعبة لكن في غاية السعادة والطرب. قالت إنها لم تستمتع بجنس كهذا في حياتها! لم أدرك ما كانت تقصده زوجتي إلا في اليوم التالي حينما عدت من النادي الرياضي للفندق وشاهدتها بأمر عيني وهي ساجدة على حافة السرير وهو من خلفها رابض عليها كالحيوان المفترس. شاهدتها تستمتع بذلك وتطلب منه المزيد وبقوة. ولا أذكر أنني شاهدتها في مثل هذه الإثارة من قبل! أعترف أن ذلك المشهد شد انتباهي وأثار شهواتي.. شعرت وكأنني أمام فيديو جنس من نوع خاص ومن أعلى طراز!

قطب شفيق ما بين حاجبيه وصاح مندهشا:

«لكنها زوجتك! كيف تفعل ذلك؟! لا أفهم كيف تستمتع بمشاهدة

زوجتك في حضن غريب؟!»

نظر ريتشارد إلى شفيق مطولا ثم قال:

«دعني أسألك سؤالاً لأساعدك على فهم ما أقصد! هل توافق أن زوجتي

جميلة وفاتنة؟»

تردد شفيق قليلاً ثم قال:

«بالتأكيد! وهذا بالضبط ما يجعلني أسأل لماذا تنظر إلى امرأة أخرى

إذا كان لديك امرأة فاتنة مثل زوجتك.. ومثلما أخبرتني، فهي أيضاً مولعة

بالجنس. فأنت بذلك محظوظ! لك زوجة توفر لك الجمال والمتعة معا! ألا

ترضيك هذه المرأة؟!»

«أفهم ما تقول يا صديقي! أفهم ما تقول! لكن قل لي صراحة، هل ترضى

أن تأكل بيتزا ليلاً ونهاراً سبعة أيام في الأسبوع؟! الأمر يتعلق أيضاً بالبحث

عن شيء جديد! أو شيء مختلف! تماما مثلما نبحت عن أكل مختلف! ولو
أكلنا طعاما واحدا كل يوم لمللناه!..».

ومديده إلى جيبه فأخرج مفاتيح. بسطها على الطاولة بالقرب من شفيق،
وصاح قائلاً:

«اذهب إلى الغرفة ٣١٢ ستجدها في انتظارك! أوكد لك أنك ستشعر
بإثارة مختلفة! لمسات جديدة!.. ردود فعل مختلفة!.. أصوات مختلفة!..
اذهب ولو لدقائق!.. زوجتي ماهرة في ذلك، وتستطيع القيام بكل شيء،
فلا تتردد!.. عندما تجرب امرأة جديدة، ستكون لك طاقة جديدة! وستشعر
بمتعة مختلفة! والسر في ذلك يكمن في أنك الآن مع امرأة مختلفة! الإنسان
بطبعه يحب التغيير.. إنها طبيعة البشر يا صديقي! هذا ما قصدته..».

استغرب شفيق تصرف صديقه ريتشارد. أيعقل أن يصل إيمان الرجل بحقوق المرأة وحريتها إلى حد السماح لها بالنوم مع رجل آخر؟! ثم كيف يمكنه أن يلقي متعة وهو حاضر في المكان يشاهد زوجته عارية في حضن رجل غريب؟!

ريتشارد كان منفتحاً وصريحاً.

«أفعل ذلك بكل بساطة لأن زوجتي امرأة فاتنة!» رد ريتشارد بنبرة واثقة عندما سأله شفيق والدهشة تغمر وجهه. «هذا مشهد طبيعي، حي، على بعد بضع بوصات مني! فيديو لا أشاهده فحسب، بل أوجد فيه أيضاً مشهداً أشاهده، وأشم رائحته، وأشعر بلهيب الحر المنبعث منه على مقربة مني! إنه شريط طبيعي مختلف عن كل الأشرطة الجنسية المصطنعة التي تغزو محلات حي (سوهو) بلندن، والتي شاهدتها وحدي أو رفقة زوجتي.. أشاهد فيها ممثلات الجنس تؤدي أدواراً مقابل أجر! إذا كان هناك لعب أدوار وأجر كان هناك تكلف!

أدوار وأجر كان هناك تكلف! ثمة تكلف ومبالغة في هذه الأفلام والغرض منها متعة المشاهد!»

وتنفس بعمق ثم قال:

«أنا أعتقد أن زوجتي هي أجمل امرأة في الدنيا، وأحبها حبا أبديا. وبدلاً من مشاهدة فيلم جنس مثير، بطلته امرأة غريبة تؤدي دوراً يحدده لها المخرج، أفضّل أن تكون زوجتي هي البطلّة! زوجتي هي من اختارت هذا الدور.. واختارته لأجل المتعة!.. وتتصرف فيه بكل حرية وتلقائية!.. لا بد أن أقول إنّ زوجتي أحسنت لعب دورها في هذا الفيديو! استمتعتُ بمشاهدتها ومشاهدة ردّة فعلها مع كل لمسة من لمسائه وكل حركة من حركاته. وبعد ذلك استمتعتُ بالنوم معها وصور ذلك الفيديو راسخة في ذاكرتي، ترفعني إلى أعلى قمم المتعة! شعرت أيضاً بزيادة رغبتها الجنسية كما لو أنّ ذلك الرجل ألهب ميولها الجنسية! على كل حال، لم يؤثر ذلك في علاقتنا أبداً! هذه الحرية قربتنا أكثر وجعلت علاقتنا أكثر متانة ومتعة وسعادة! وإني سعيد معها وفخور بها!»

ها هو ريتشارد يعبر عن سعادته وفخره وهو يشاهد زوجته بين أحضان رجل آخر!

إنه واقع جديد ينكشف أمامه.. واقع غريب عنه ومناقض لما عهده وتعلمه. ويا له من تناقض؟! في مجتمعه، قد تنفق الأسر مبالغ خيالية على صالونات التجميل والحلاقة لإعداد المرأة لليلة زفافها والتفاخر بها، لتظهر بعد ذلك في أحلى هيأتها. ولن ينعم في الأخير بمشاهدة حسناتها وأناقتهما وسحرها إلا أهلها وزوجها..

زوجها هو ربما الغريب الوحيد الذي يستطيع أن يشاهد جسدها، ويلمس شعرها وشفتيها في حياتها! وهذا الرجل المحفوظ بالخلو إليها في الغرفة، ما زال يستحي من النوم معها إن كان المصباح مشعلا!.. وما زال يستحي من التحدث معها عن الجنس أو مشاهدته! وما زال ينظر إليها على أنها في بيته لأجل لعب أدوار: خدمته والسهر على راحته وإشباع رغباته وتربية أطفاله!.. فتراها يقودها إلى الفراش متى يشاء، ويتسلّى بها كيفما يشاء، ولأي مدة يشاء، غير مكترث بمشاعرها وميولها ورغباتها وطموحاتها! وما زال ينظر إليها على أنها في بيته لأجل إنجاب الأطفال وتربيتهم وخدمتهم. وكم من امرأة طردت من بيتها لأنها لم تحظ بالإنجاب وما كان ذلك ذنبها! وكأنّ هذه المرأة محكوم عليها أن تحيا حياتها «ربة بيت» مقيدة، منتقلة من نفوذ أهلها إلى سلطان زوجها! كل ذلك في وقت حرر فيه هذا الرجل الغربي زوجته إلى حد السماح لها بالاستمتاع برجل آخر! هذا الرجل الغربي لا ينظر إلى المرأة والجنس وأفلام الجنس والشرف والعار والوفاء والخداع وبقاء المرأة في العزوية نظرة الرجل الشرقي.

ها هو اليوم يدرك أن الحق والباطل جملة من الأحكام يؤمن بها البشر ويسرون بها حياتهم وهي حتما ذاتية ونسبية. وما دامت أفكار البشر وثقافتهم تختلف فإن هذه الأحكام تختلف حتما، وتختلف معها تصورات البشر للأشياء والتصرفات وحتى مفاهيم الكلمات. فلا عجب كلمة «عانس»، التي كان يسميها كثيرا في مجتمعه، تُهان بها المرأة التي تجاوزت سن الزواج ولم تحظ بعريس غيرها من النساء، غير موجودة في المعجم الإنجليزي! وليس

لها معنى في ثقافة هذا المجتمع! ولا عجب هذا الرجل أمامه لا يرى مطلقاً أي مانع لارتداء زوجته في حضن رجل آخر. فالمتعة الجنسية بالنسبة له مثل أي متعة أخرى في الدنيا لا تخرج عن إطار المتعة ولا تؤثر في مفاهيم الحب والوفاء والشرف. هذا الرجل الغربي أمامه أباح هذه الحرية الجنسية لأنه لا يرى فيها ضرراً له أو للبشر من حوله. فالشريك يملك حرية الشخصية، وله الحق في الانغماس في المتعة الجنسية مع آخرين. ومع ذلك تبقى علاقة الحب بين الشريكين وثيقة، لا تهز أركانها أفكاراً مسبقة، ولا هواجس، ولا وساوس، ولا غيرة، ولا خوف من أحد!

لم يكن شفيق يوافق ريتشارد الرأي في كل ما كان يقوله له وإن كان يفهمه وهو من تعلّم في بريطانيا مبدأً جديداً يتمثل في الاجتهاد لمشاهدة الحياة بأعين الآخرين بعيداً عن الأفكار المسبقة والخلفيات. كان يشعر أنّ أشياء كثيرة تجمع بهذا الرجل ومنها الرغبة في استخدام العقل والمنطق. فعندما كان يحدثه ريتشارد عن الحرية الجنسية والصواب والباطل لم يستشهد بفلاسفة ولا بمعتقدات ولا بشيء عدا المنطق وشواهد من الواقع تؤكد أنّ علاقته بزوجه لم تتأثر بما كانت تفعله هذه المرأة. لقد أصبح يشعر الآن أكثر من أي وقت مضى أنّ عقل الإنسان هو الأحق في تحديد ما هو حق وما هو باطل. وما يؤمن به عقل الإنسان هو الصواب. والإنسان ليس مطالباً بأن يكون نسخة للمجتمع من حوله أو لمن عاش قبله. يحق له أن يفكر ويقرر ويكون ما يريد أن يكون، ولا يمكنه أن يكون نسخة لغيره، أو أن يكون ما ليس عليه... وتتردد في ذهنه كلمات:

(مهما يقولون لنا،

مهما يفعلون،

مهما يعلموننا،

فإنّ ما نؤمن به هو صحيح...

لا يمكنني أن أنكر ما أؤمن به،

لا يمكنني أن أكون ما لست عليه...)

ويستفيق من سهوه على وقع صوت ريتشارد من أمامه. نداء بصوت بدا
بطيئاً مثقلاً بالسكر أكثر من أي وقت مضى:

«خذ المفاتيح!» وبحركة بطيئة غير منتظمة مدّ يده نحو المفاتيح ودفعها
بالقرب منه: «خذها! امرأة جميلة في انتظارك! لا تضيع الفرصة!»

مدّ شفيق يده ببطء وتحسس المفاتيح، مفكراً في تلك المرأة الجميلة،
مستعيداً في ذهنه ملامح وجهها الجذاب، متخيلاً جسدها الرشيق المثير
بين أحضانها.

وسرعان ما رحل بخياله عنها ليحط في غرفة حبيبته. أيعقل أن يكون في
الساعات القادمة مع غيرها في غيابها، ودون علمها؟! وما عسى أن تكون
ردّة فعلها إن علمت؟! كانت حياته، قبل مجيء أنجلينا مجرد فراغ وروتين
قاتل. كانت مليئة بالملل والتشاؤم، فبثت فيها الإثارة والتفاؤل. وكانت

راكدة ركود مياه بحيرة الحديقة المجاورة لمنزله في الليالي المظلمة حينما يهجرها الطيور ويخيم عليها الصمت والسكون، فملأتها حركة وانتعاشا. وكانت بائسة يائسة فأفعمتها حبا واشتياقا. وكانت كئيبة متألمة فملأتها غبطة وابتهاجا. أنجلينا تحملت ألم الرحيل عن وطنها والبعد عن أهلها لأجله مثلما قالت له غير مرة. فلولاه، لما بقيت كل هذا الوقت في لندن التي لم تكن تحبها، ولم تكن تحتل حياتها السريعة، المجهدة، الصاخبة، وهي التي نشأت في مزرعة فسيحة، في منطقة هادئة بعيدة عن المدينة في جنوب النمسا، مثلما أخبرته. أنجلينا سعت كل مسعى لإسعاده. فرغم عملها المتعب البعيد في قلب لندن وسفرها الروتيني المجهد خمسة أيام في الأسبوع، كانت تنفق شطرا من وقتها بعد رجوعها إلى البيت وفي أيام العطلة، في الطبخ وتنظيف المنزل وغسل الثياب وكَي قمصانه وسراويله التي يحتاجها لعمله في الترجمة... وكما لو لم يكن ذلك كافيا، اجتهدت الفتاة لأسابيع طويلة لتصنع له وشاحا من صوف، اعتبره أجمل هدية في الدنيا وكيف لا وهو من صنع يدها، ويشهد على مقدار جهدها. وقد انبهرت والدته بطبع هذه الفتاة، وحسن سيرتها، واجتهادها في عملها في البيت إلى درجة أنها قالت له يوما: «زوجتك يا ابني تشبه في سلوكها المرأة العربية!» وهكذا، كادت أنجلينا، بجمالها وذكاؤها وحسن طبعها وطيبة خاطرها وحرصها واهتمامها، أن تكون ملاك في نظر شقيق لو لم تكن غريزتها ولم تهجرها الرغبة في المتعة! شاءت الأقدار أن يكون الوحش المفترس المتطلب العنيد الكامن في أعماقه أقوى من رغبته. حاولت منذ البداية

إرضاءه إلى أن نفذت طاقتها، وخرّت قوتها، وانهارت مقاومتها، وتلاشت رغبتها في لقاء هذا الوحش. وها هو الوحش في هذه الساعة المتأخرة من الليل يستفيق من سباته الطويل، وقد سمع ما دار بين مولاه والرجل الغريب من حديث، مفتشا عن فريسة جديدة يشبع نهمه فيها! هذا الوحش الضال لا يفهم لغة العقل والمنطق، ولا يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، ولا يحفل بشيء! فكل ما يشبع نهمه صوابٌ وحق مبين! ولا يحيا في الواقع إلا ليومه، فأحبيه الليلة ولبي رغبتَه، واشبع شهيتَه، ثم اقله إن شئت!

وتتلاطم الأفكار في وجدانه. يفكر في أنجلينا ومشاعر أنجلينا حينا، ثم يسهو عنها ليفكر في حاله أحيانا. فيتساءل في جنون: ما الذي يرغمه على قهر رغباته واحتمال الكبت والمعاناة؟! وليس العمر قصيرا؟! ثم أليس هذا الرجل الجالس أمامه محقا عندما يقول له إن المتعة الجنسية مثل متعة الطعام والشراب والتسلية وأي متعة أخرى في الدنيا، لا تؤثر في شيء؟!!

فأي ذنب هذا الذي سيرتكبه إن استمتع بجسد امرأة فاتنة لساعة أو ساعتين، إن لم يكن يعرف الاستمتاع بجسد فتاته؟! ألا يمكنه كسر هذه القواعد التي حفظها ولو لليلة واحدة والاستمتاع بحياته بغير قيود، وإدارة أفعاله بعقله وليس بما ورثه عن غيره؟! أليس من حقه أن يحتفظ ببعض الأسرار لنفسه؟!!

ويعود بذكرته إلى أيام الصبا والشباب، فيستحضر صور أولئك الذين كانوا ينهونه عن الفحشاء والمنكر، مرددين على مسامعه كلاما لشدة ما سمعه حفظه، وكلما سألهم سؤالاً في الدين لا يعرفون الجواب عنه، ألقوا

باللوم على الشيطان حيناً: «هذه وسوسة الشيطان!»، وعليه أحياناً: «كيف تسأل سؤالاً كهذا؟! الله يهديك!»

ينهونه عن المعصية والمنكر، وإن مرت بجانبهم امرأة حسناء، لاحقتها أبصارهم لتمزق ثيابها، وتنهش جسدها، كما تنهش الذئب الجائعة فريستها بعد مطاردتها ومحاصرتها والانقضاض عليها!

ها هو شفيق الآن يقارن بين هؤلاء البشر وهذا الرجل الغربي الجالس أمامه.. فلا شك أن القاسم المشترك بينهم هو البحث عن المتعة الجنسية. هذا الرجل أمامه بجسده، وذاك بفكره! وهذا علانية، وذاك خفية! وهذا صريح مع نفسه، وذاك يخادع نفسه! فإن كانت الفاحشة من المعاصي، فهي كذلك سواء ارتكب المرء ذلك بجسده أو فكره! وإن كانت الخيانة ذنباً، فكل البشر خائن بشكل من الأشكال!

فالإنسان، إن لم يخن بجسده، خان ببصره، وإن لم يخن بنظره، خان بأذنه، وإن لم يخن بأذنه، خان بإحساسه، وإن لم يخن بشعوره، خان بأفكاره، وإن لم يخن بأفكاره، خان بخياله، وإن لم يخن بخياله، خان بلسانه، وإن لم يخن بلسانه خان بقلمه، وإن لم يخن في يقظته خان في حلمه. وفي كل ذلك، شيء من الخيانة!

ها هي البيئة الجديدة تؤكد له أنّ مفاهيم كلمات مثل الجنس والشرف والخيانة تختلف اختلاف البيئة والثقافة.. فنظرة هذا الرجل الأوروبي الجالس أمامه الآن إلى الشرف تختلف اختلافاً عن نظرة ذلك الرجل المتعصب لمبدأ

الشرف في مجتمعه، والذي تجده مستعدا لزهاق أرواح البشر، والزج بنفسه في السجون، والحكم على أطفاله باليتم والضياع، لأجل الشرف!
وباختلاف البيئة والثقافة، تختلف أيضا نظرة البشر إلى مفاهيم أخرى كالحق والباطل والحقيقة. لقد أيقن الآن أنّ لهذه الكلمات أكثر من معنى وحكم في دنيا البشر.

فلكل موضوع قولان،

وفي كل مسألة رأيان،

وفي كل قصّة وجهان،

وليس للعالم لون بل ألوان.

فالحقيقة جملة متغيرة من الأحكام يصدرها الإنسان ببوصلة عقله. وما أكثر هذه العقول وهذه البوصلات في دنيا البشر! كثيرة هي أحكام البشر! وكثيرة هي قواعدهم!

ويتساءل في أعماق نفسه: في عالم متعدد النظم والأفكار والقيم والقواعد، ألا يمكنه كسر أغلاله، والتخلص من قبضته، والخروج من جاذبيته، والارتقاء إلى دنيا أخرى بعيدة لا أثر فيها لقواعد الماضي.. دنيا أخرى مستقلة، يسود فيها عقله، وتتححر في أحضانها غرائزه.. دنيا أخرى متحررة، يشيّد فيها واقعه، ويتكر فيها قواعده. وتتعالى من أعماق نفسه صرخة صادقة معبرة عن شعوره الغريب بالرغبة الشديدة في التحرر من ذلك الواقع المثقل بقواعد شبيهة بالثياب القديمة الممزقة التي آن الألوان

للتخلص منها ورميها في سلة مهملات الماضي، واستبدالها بتصميمات
مبتكرة راقية تواكب صيحات موضحة هذا العصر:

There are too many rules in reality.

So, I have decided to create my own

Reality and make my own rules.

(ثمة كثير من القواعد في الواقع.

لذا، فقد قررت ابتكار واقعي الخاص

وقواعدي الخاصة)

ما أجمل جزر كناري وهي ترتدي ثوب الصيف الناعم بألوانه المشرقة،
ونسائمه المنعشة. لشدّ ما تعلّق فؤاده بها، وبشمسها، وهوائها، وبحرها،
وتلالها، وكل شيء فيها. في حرارة أشعة شمسها، شعر بدفء الحياة، وفي
ضياء قمرها، أبصر نور السعادة، ومن شذى رحيق حدائقها وورودها تنفس
عطر الوجود.

رغم أنه كان يزورها لأول مرة في حياته، انتابه شعور غريب أنّه كان
يعرفها منذ الأزل. وامتلكه إحساس قوي أنّه قد عثر أخيراً عن الوسط الذي
كان يحلم بالعيش فيه.. وسط هادئ ودافئ ومشرق، يلوح في أفقه ضياء
الراحة والسعادة والطرب.

لكن ما أقصر عمر الأوقات الجميلة الطيبة في الحياة، وما أطول عمر
الذكريات النابعة منها!

ها هو اليوم نور السعادة الذي أضاء الدنيا من حوله ينطفئ في عينيه وهو
يشد الرحال عنها. كم هي صعبة ومؤلمة رحلة العودة هذه من لاس بالماس
إلى لندن! يشقّ عليه مغادرة كل هذه التضاريس الأفريقية، والسماء الزرقاء
الصفافية، والأجواء الصيفية التي لا تبرح هذه الأرض! وكيف لا ودرجة
الحرارة في موعد الرحيل هذا ٣١ درجة مئوية!

انتابه شعور بالفزع وهو يفكر أنه بعد ساعات قليلة سينزل في مدينة لا تتعدى فيها درجات الحرارة الصفر.. مدينة تغمر سماءها الكثبية غيوم داكنة كثيفة، وتتساقط منها أمطار غزيرة، كأنها دموع حزينة من أعين الطبيعة الكثبية. فلا يزيده ذلك إلاّ حزنا وغما ودمارا. كان يشعر في أعماقه أنّ رحلة الأربع ساعات من هذه الجزر إلى الجزر البريطانية ليست رحلة من بلد إلى آخر أو من قارة إلى أخرى فحسب، بل أيضا رحلة من فصل إلى آخر، ومن طبيعة إلى أخرى، ومن نمط حياة إلى آخر، ومن وتيرة حياة هادئة إلى وتيرة حياة سريعة ومجهدة..

ها هو الآن يترك صيفا جميلا ممتعا خلفه ويمضي في طريقه إلى شتاء مقيت ممل.. شتاء كان محكوما عليه بأن ينفقه وحده هذه المرة أيضاً، محبوساً بين جدران منزله الكبير. ولن يستأنس في وحدته هذه إلاّ بالحديقة الموحشة المجاورة لبيته نهاراً، وأشباح السكون والهواجس الساكنة في بيته وفي نفسه ليلاً، بعد أن سافرت أنجلينا إلى النمسا أواخر شهر ديسمبر لقضاء أعياد نهاية العام رفقة أهلها مثلما فعلت السنة الماضية.

حتى عمله بالترجمة توقف بسبب أعياد نهاية السنة. إنها فترة استراحة تقفل فيها المدارس أبوابها وتخفّض فيها المؤسسات الإدارية نشاطاتها. حتى حركة المرور بدت في هذه الفترة في مجملها ساكنة. حتى قطارات السكك الحديدية التي تربط وسط لندن بالضاحية والمدن الأخرى - وعادة ما تعج بالركاب لا سيما العمال الذين يشتغلون في لندن - بدت هذه المرة

فارغة، مثل هذا القطار الذي عاد به إلى البيت من محطة فيكتوريا بعد آخر وظيفة ترجمة له هذه السنة في مطار هيثرو. عاد من هيثرو بثمانين جنيتها ومجموعة من بطاقات التهاني وأصنافا من الشوكولاتة أحضرها زملاء في الترجمة وموظفو هجرة بريطانيون. في هذه الفترة، يتقاسم جميع الناس الحلويات والشوكولاتة، ويتقاسمون معها اللحظات السعيدة احتفالا بانقضاء سنة وحلول عام جديد.

ليلة رأس السنة، التي كانت تعيشها الأسر والأصدقاء في سعادة، لم يلمح فيها أبدا نور السعادة منذ وصوله إلى هذا البلد. ففي السنوات الأولى، صرف ليلة رأس السنة في العمل والجهد والصراع لأجل الوجود في هذا المجتمع الجديد. وصرف هذه الليلة في الستين الآخريتين وحيدا بين جدران المنزل. حتى بعد دخول أنجلينا حياته، لم يتغير هذا الروتين. فأنجلينا كانت تنظر إلى هذه العطلة كما لو كانت شيئا مقدسا، تعيشه رفقة أسرته، ولا يمكنها أن تفرط فيه. أنجلينا كانت متفتحة، متقبلة لكل الأديان، مثل هؤلاء البريطانيين الذين كانوا ينظرون إلى هذه الاحتفالات على أنها حدث اجتماعي وفرصة لتبادل الهدايا، وتناول عشاء مشترك، والراحة والمتعة مع أفراد الأسرة والأصدقاء.

كان سيمضي هذه الليلة وحيدا كعادته لولا أنّ صديقه جمال اتصل به في اللحظة الأخيرة ليلبغه برغبته في زيارته والسهر رفقة وربما إمضاء الليلة في بيته الكبير، في غياب أنجلينا.

جمال لم يكن في هذه الفترة وحيدا مثله. كان متزوجا من زميلة تدعى صونيا، تعرّف عليها في الجامعة المركزية بالجزائر حيث كان يدرس قبل سنوات، وكان جميع الناس يحسده على هذه العلاقة الوثيقة، «علاقة قيس ولبنى» كما كان يقول بعض الطلبة، و«روميو وجوليت» كما كان يردد آخرون. حظي جمال بالحصول على تأشيرة دخول إلى بريطانيا بعد تخرجه مباشرة وقبل تدهور الوضع في الجزائر.

وقبل انتهاء صلاحية تأشيرته بأسابيع التقى بامرأة إيرلندية في سن والدته في إحدى حانات لندن، تزوجها لأجل تسوية وضعيته القانونية. وما إن حقق حلمه ونال الإقامة حتى طلقها ليتزوج حبيبة العمر الجزائرية التي لم يكف يوما عن الاتصال بها والتفكير فيها أثناء علاقته بالمرأة الإيرلندية. فضّل الجزائرية على الإيرلندية، والشابة على المتقدمة في السن، والمصلحة الشخصية على المبادئ والإنسانية، ولم يراعي أبدا مشاعر امرأة إيرلندية وثقت به، ووقفت بجانبه، وضحت في سبيله. عندئذ، عبّر له شفيق عن أسفه لحال المرأة الإيرلندية البريئة، وما ذنب المسكينة حتى تتألم؟ فكان رده على ذلك:

«لتذهب إلى الجحيم! لا شأن لي بها الآن! بنت بلادي المسلمة خير من الكافرة!»

كان شفيق وجمال في بعض الأوقات يلتقيان في أحد المقاهي الجزائرية القليلة في لندن التي بادر بفتحها أفراد جدد من الجالية الجزائرية التي أخذت تتسع مع استمرار توافد اللاجئين من الحرب الأهلية في الجزائر.

كان الرجلان أيضا يتبادلان الزيارات. صاحبت أنجلينا شفيق في إحداها حيث طبخت لهما صونيا أطباقا جزائرية كان يشتهيها ولا يحسن طبخها مثل الكسكس القبائلي الذي كانت تتصاعد منه رائحة زيت الزيتون، فتثير شهيته وتثير إلى حد ما اشمزاز أنجلينا التي لم تكن متعودة على مثل هذا الطعام وهذه الرائحة القوية المنبعثة منه.

استغلت صونيا فرصة خروجه لاقتناء السجائر لتلتمس من شفيق التحدث إليه ونصحه بحسن معاملتها. شمرت عن ساعدها وقالت له وهي تشير إلى كدمات في أعلى ذراعها:

«هذا من آثار الضرب المبرح!»

فصاح شفيق مندهشا:

«لا، لا، لا! كيف يفعل ذلك؟! لم أر سوءا منه منذ أن عرفته قبل سنوات طويلة! هو دوما لطيف، عذب اللسان!»

«هذا صحيح! هو حقا مثل الملاك.. إلى أن يشرب! الشراب الكثير هو الذي يغير سلوكه! عندما يعود في وقت متأخر وهو سكران يتهجم علي بمجرد أن يراني كما لو كنتُ عدوة له وأنا أطبخ وأنظف ولا أستريح لأجله!»

صاحت صونيا شاكية، ثم التفتت خلفها وأشارت بيدها إلى باب المطبخ:

«انظر كيف كسر الباب! حاولت أن أحمي نفسي وهو يطاردني، فلجأت إلى المطبخ وقفلت الباب خلفي، فقام بكسره! حتى الأواني لم تسلم منه! أنا أقتصد وأشتري الأواني وهو يقوم بكسرها!»

تفاجأ شفيق بما طرق سمعه. أيعقل أن يتحول «روميو جامعة الجزائر» إلى وحش مفترس ينهش بأنيابه الحادة هذه الفتاة الرقيقة التي قطعت في سبيله كل هذه المسافة وتحملت لأجله ويلات الغربة؟! لم يكن يتصور أبداً أن يسلك صديقه، الذي كان يبدو له دائماً طيباً حلو اللسان، سلوكاً دنيئاً كهذا! وها هو الرجل يزوره في بيته في كينت في ليلة رأس السنة. فهذه بلا ريب خير فرصة للجلوس معه بعيداً عن زوجته وكل العالم لمحاولة نهيهِ وإرشاده. كان شفيق جالسا في الصالون يشاهد أخبار السادسة على شاشة (بي بي سي ١)، التي صار يحب متابعتها كلما سمح وقته، عندما وصل صديقه. كان يحمل حقيبة ظهر، أخرج منها بعد العشاء زجاجة نبيذ أحمر أسترالي (شيراز) فاجأ بها صديقه، وقال مبتسماً وهو يضعها برفق فوق المائدة في الصالون: «إن لم يكن لديك مانع يا صديقي، أود أن أشرب قليلاً الليلة.. إنها ليلة رأس السنة!»

شفيق، الذي كان قبل أسابيع قليلة جالسا في فندق بجزر كناري رفقة رجل غربي استغرق في الشرب أمامه حتى الثمالة، لم يكن يرى مانعا في أن يفعل ذلك مواطنه وصديقه. فالأمر في نهاية المطاف يعني صديقه ولا يعنيه شخصيا. ما كان يهمه حقيقة هو موضوع اعتدائه المتكرر على زوجته، شريكة حياته، وإلحاق الضرر ببيته وممتلكاته. كان يشعر أن هذا اللقاء فرصة مواتية لإثارة الموضوع وتسويته.

حتى لا يخرج صديقه، ولا يشعره أن زوجته أبلغته بما فعله، كان من الضروري أن يسعى لاستدراجه في الحديث بذكاء. فانطلق من موضوع هذا النبيذ الذي شاهده يستمتع به أمامه:

«أعترف لك يا صديقي أن رائحة النبيذ الأحمر تستهويني! فلا عجب عصير العنب هو المشروب المفضل عندي، منذ صغري! لم يكن هذا العصير يفارق بيتي. لكنني منذ أن شرعت في تطبيق نظام غذائي، توقفت عن شربه لما يحتويه من سكر! هل تعلم مقدار السكر في كأس صغير من عصير العنب الطبيعي؟!

«لا! كم؟» قال جمال بغير اكتراث.

«٣٦ غرام! هل تصدق ذلك؟! لهذا لم أعد أشرب هذا العصير إلا في أوقات قليلة مع أبي أشتهيه..».

رفع صاحبه كأسه الممتلئة وصاح مبتسما وهو ينظر إليها:

«أنا مبدئي في الحياة ثابت لا يتغير! لا أحرم نفسي من أي شيء أشتهيه! إذا أعجبني ثوب أو حذاء اشتريته حتى وإن كان غاليا! إذا أعجبني الخمر، أشرب! وليذهب أي شيء في الدنيا إلى الجحيم! آخرها موت يا صديقي!»
«لكن، الشرب الكثير يستطيع أن يؤثر في تصرفاتنا وفي علاقاتنا بغيرنا.. هذه حقيقة.. لا تقل لي إنه لا يؤثر فيك وفي علاقتك بزوجتك! هل يحصل لك أن تشعر بتوتر الأعصاب والأفعال..».

أمسك جمال عن الحديث لحظة وشزره، ثم قال له بنبرة جادة وهو يتناول كأسه:

«لا أتصور أنني قطعت هذه المسافة الليلة لأنحدث عن الخمر وتأثيرها في علاقتي بزوجتي! هل لديك موضوع آخر أفضل من هذا؟!» وأخذ جرعة طويلة ثم صاح مبتسما:

«النيبذ.. لا أتحدث عنه! النيبذ.. أشربه! وما دمت أجد فيه متعتي أشربه حتى وإن قتلتني! الليلة ليلة سعيدة! إنها ليلة رأس السنة! أريد أن أنسى كل هموم هذه السنة وأدخل السنة الجديدة في سعادة! فدعنا من ذلك أرجوك!» إضافة إلى حسن مظهره ولياقته وأناقته وعذوبة لسانه، كان صاحبه رجلا فائق الذكاء، بعيد النظر، صلب الإرادة، قوي الشخصية. كان يحسن قراءة أفكار الآخرين ويحسن المراوغة والخروج من الأوضاع الصعبة، والتهرب من المواقف المحرجة بأقل الأضرار. وهكذا، وببراعته المذهلة، استطاع أن يفلت من موضوع كان شفيق يتطّلع إلى التحدث فيه.

وبدلاً من ذلك، خاضا في مواضيع مختلفة بما في ذلك الحرب في الجزائر التي كانت تحصد عشرات الأرواح كل يوم من أبناء الوطن الواحد. الدردشة أيضاً تناولت الجديد والمسلّي في عمل شفيق في الترجمة وعمل جمال في النقل العمومي. مثل كثير من الجزائريين القادمين إلى لندن، اشتغل جمال في بداية المشوار في المطاعم. ومثل كثير من الجزائريين أيضاً، بعد حصوله على الإقامة الدائمة، اشتغل سائق تاكسي من نوع (ميني كاب). ومثل كثير من سائقي التاكسي الجزائريين، كان يفضل العمل ليلاً تجنباً لازدحام طرقات المدينة وزيادة الطلب على سيارات الأجرة ليلاً لقلّة المواصلات العمومية.

بدا جلياً في وقت لاحق أنّ تأثير الشرب حرّر أفكاره ولسانه، فراح يبوح ببعض الأسرار التي ما كان سيكشفها في أوقات وعيه مثل توقفه غير مرة

على حافة الطريق في أماكن خالية لممارسة الجنس في المقعد الخلفي للسيارة مع فتيات سكرانات يرغبن في المرح والمتعة بعد مغادرتهن حانات أو ملاهي ليلية.

ولعل أغرب ما حل به مؤخرا وأكثره طرافة قصته مع المرأة الأسكتلندية التي نقلها إلى بيتها في ساعة متأخرة من الليل. وفي الطريق أخبرته أنها كانت منفصلة عن زوجها وتعيش وحدها في منزل كبير في ضواحي العاصمة ودعته في نهاية المشوار إلى بيتها. كان بيتها عتيقا في حي هادئ في منطقة (نيوبيري بارك). تركته جالسا في الصالون بالأسفل وصعدت السلم الحلزوني لتستحم وتغير ثيابها. وفي لحظات غيابها، راحت الهواجس تتشعب وتنداح في مخيلته وهو يجلي ببصره في أرجاء هذا المنزل العتيق الغارق في السكون. وامتلكه القلق والخوف وهو يستحضر في ذاكرته صور أحد افلام الرعب التي شاهدها مؤخرا وارتاع لها خاطره.

انتابه شعور غريب لم يعرف له تفسيراً أنه الآن يعيش مأساة ذلك البطل الذي جرفته سيول الغريزة إلى أحوال المتاعب لتوقعه في فخ امرأة ورجل مختلين عقليا. امرأة حسناء ومثيرة مثل هذه المرأة تماما تدعوه إلى بيت مماثل لهذا البيت الكبير. وفي لحظة من اللحظات ينزل زوجها وهو يحمل سلاحا ناريا. فتقوم المرأة بربطه. ويقوم زوجها بعد ذلك باغتصابه على مرأى من زوجته المبتهجة لذلك المشهد! انتابته هذه الصور المرعبة وخشي أن يحل به ما حل بذلك الرجل الشقي، فراح يفكر في عذر ما للانصراف، ينجيه من كيدها ومكرها. نزلت المرأة السلم في لباس داخلي أسود شفاف مثير يترأى

من خلاله ثدياها الممتلئان وكل جسدها. لكن ذلك لم يثر اهتمامه في غمرة الهواجس التي أَلَمَّت به، فكل همه الفرار من تلك المرأة بأي عذر كان.

جلست بجانبه وراحت تغازله وهو مرتبك خائف. وفجأة، خطرت بباله مأساة بلاده. فراح يحدثها عن أهوال الحرب من مذابح وصور رؤوس مقطوعة معلّقة على أسلاك الإنارة والهاتف وأشلاء متعفنة ألقي بها على الأرصفة ودماء تملأ الشوارع... أصغت إليه وأمارات الصدمة على وجهها. وفي لحظة من اللحظات، عيل صبرها، فهبّت واقفة وصاحت في وجهه ونيران الغيظ تتقد في عينيها:

«أخرج! أخرج!»

«لكني، لم أكمل بعد...!» قال بنبرة جادة وهو ينهض من مكانه. فصاحت بأعلى صوتها وشرارة الغضب تسطع في عينيها، مشيرة بيدها إلى الباب:

«قلت لك أخرج! أخرج من هنا حالا!»

عجّل جمال بالخروج وهو يلتفت خلفه خوفا من المرأة و«زوجها المسلح الوهمي المختبئ بالأعلى»!

ما ألطف هذا الصديق وما أظرفه وهو في نشوة السكر! أبعد ما يكون عن تلك الصورة القبيحة التي رسمتها له زوجته صونيا في ذلك اليوم! قال شفيق في نفسه وهو يتأمل سلوك هذا الرجل الهادئ الجالس بالقرب منه. أيعقل أن يكون هذا الرجل المسالم والمسلّي هو ذلك الرجل العنيف الذي يضرب زوجته ويعيث في بيته فسادا، الذي حدثته عنه صونيا؟!

قال كل ذلك في سرّه وهو، على ما يبدو، يجهل المثل البولندي القائل:
«لا تمدح اليوم قبل غروب الشمس». ولما كان رفقة صديقه بعد غروب
الشمس، فالأصح ربما هو: «لا تمدح الليل قبل شروق الشمس»!

ها هي عقارب الساعة تقترب من منتصف الليل. كانت قناة بي بي سي
١ تبث حفلاً ساهرا على المباشر لاستقبال العام الجديد بحضور جماهير
واسعة، ازدادت أهازيجها مع بداية العد التنازلي من عشرة إلى الصفر. وما
إن دقت الساعة منتصف الليل معلنة ولادة يوم جديد في عام جديد حتى
دوّت الألعاب النارية متنوعة الأشكال والألوان أرجاء المدينة وأنارت
سماءها، وعمّ الصخب والأفراح أجواءها، وغمر الطرب وجوه الحاضرين
المتجمهرين في الساحة. وراح الحاضرون في تلك الساعة يتعانقون
ويرقصون على أنغام الفرقة الموسيقية الحاضرة معهم، تتعالى أصواتهم
وتنصهر مع الأنغام الموسيقية وطلقات الألعاب النارية، لترسم أجواء
عجيبة، لا مثيل لها.

شعر شفيق بغتة كما لو أنه سافر عبر تلك الشاشة البهيجة أمامه، ليحط
بين تلك الجماهير ويشاركها أفراحها ورقصها وطربها. وما زال معها في
تلك الأجواء الرائعة حتى تعالى صوت جمال فأيقظه من حلمه وأعاده من
ذلك العالم البهيج إلى بيته.

«تبدو سعيدا للغاية هذه الليلة، أليس كذلك!» صاح جمال متعجبا.
«أحاول.. أحاول أن أكون كذلك! آخرها موت، مثلما ذكرت سابقا».

«لابد أن تكون سعيدا! وكيف لا وأنت اليوم تملك بيتا كبيرا كهذا، متكونا من طابقين وعدة غرف وحديقة خلفية وأخرى أمامية!..». قال جمال وهو يرمي ببصره في أرجاء المنزل الفسيح. «أنت لست مثل هذا الرجل الفاشل أمامك! بعد سنوات طويلة في ديار الغرب لم يستطع شراء منزل مثلك! وهو اليوم يسكن في بيت مستأجر صغير حقير تابع للبلدية!» قال ذلك بشيء من الاستياء والمرارة، ثم مدّ يده وتناول تفاحة من وعاء الفاكهة على المائدة بالقرب منه ثم التفت نحو شفيق وقال:

«أحتاج سكيناً لأقطع هذه التفاحة»

همّ شفيق بالقيام لإحضار السكين، لكنّ جمال أوقفه. قال مبتسما:

«لا تتعب نفسك! أحتاج إلى الحمام! سأحضره في طريق عودتي! تذكر ما قلته لي عندما وصلت! قلت لي: أشعر براحتك.. كما لو كنت في بيتك! دعني إذا أتصرف كما لو كنت في بيتي!»

عاد بعد ذلك من المطبخ يحمل في يده سكيناً كبيراً يستخدمه شفيق لتقطيع اللحم. قال وهو منشغل بتقطيع التفاحة:

«أنت تملك أيضاً وظيفة جيدة! تعمل مترجماً لدى وزارة الداخلية! هل تعلم معنى ذلك؟! معنى ذلك أنك تحظى بالعمل لدى الحكومة البريطانية! وطبعاً تقبض أجراً جيداً! وتستطيع طبعاً ان تسافر وتكتشف العالم! أفضل مني!»

«لا! أبدا! ماذا تقول يا صديقي؟! حصلت على هذا المنزل بقرض من البنك وفوائد عالية!» قال شفيق بدهشة محاولاً إبراز بعض المشاكل المادية

التي يعاني منها. لكنّ جمال قاطعه بشكل مباغت وعنيف. هب من مكانه فجأة وهو يحمل السكين الخطير في يده وصاح بغضب:

«اسكت، ولا تقاطعني عندما أتحدث! لقد حققت الكثير! لكن هل تعلم أن كل هذا الجهد قد يضيع هكذا! كل ما حققته قد يضيع الليلة وفي هذه الساعة! وفي الساعات الأولى للعام الجديد!»

شعر شفيق بالقلق والخوف وهو يرى صديقه في هذا الموقف المعادي. تذكر ما قالته له صونيا قبل أيام فقط واستحضر صور آثار الضرب المبرح في جسدها. شعر أنّ ذلك الصديق الوديع قد تحول إلى وحش مفترس قادر على كل شيء. وازداد خوفه عندما اقترب منه «الرجل المتوحش» وهو يلوح السكين في وجهه مردداً:

«ماذا لو مزقت جسديك وقطعت أنفاسك الآن؟!...».

«أرجوك اهدأ وضع السكين على المائدة! نحن صديقان والأمر لا يستحق كل هذا! تذكر اني فتحت لك بيتي! أنت الوحيد الذي فتحت له بيتي وعرفته على زوجتي! أنا مستعد لأن أساعدك إن احتجت مساعدتي...».

واستطاع شفيق بأعجوبة أن يهدئ صحبه وأن يقنعه بإبعاد السكين والجلوس ثانية. وهكذا استطاع أن يفلت من وضع خطير لم يشهد مثله في حياته، أشبه ما يكون بأفلام الرعب التي كان يشاهدها أحياناً على الفضائيات الألمانية.

بعد نحو ساعتين من حلول العام الجديد، ترك صديقه لينام في الصالون وصعد هو إلى غرفة نومه وقلبه يرتعش خوفاً، تطارد مخيلته الهواجس. ماذا

لو لحق به في غرفته وهو يحمل ذلك السكين المرعب؟! وما الذي يمنعه من التهجم عليه في أي وقت من الأوقات أثناء نومه؟! يتمزق فواده حسرة على وجود هاتف المنزل بالأسفل في الصالون. فكيف يمكنه طلب المساعدة والهاتف بعيد عنه؟! يدخل الغرفة ويدفع الباب خلفه، فيتضاعف خوفه عندما يتذكر أنه لم يكن لباب غرفته قفل من الداخل.

يندفع إلى الداخل ويسحب خزانة ذات أدراج متوسطة الحجم عليها مرآة تستخدمها أنجلينا للتجميل، ويسندها بكل قواه على الباب، ثم يدفع سريره ويسنده على تلك الخزانة، مؤمِّنا المكان.

بعد رحيله عن الأوطان واستقراره في الجزر البريطانية انصهر شفيق شيئا فشيئا في المجتمع البريطاني وأدرك طريقة تفكيره، واعتاد نمط حياته، وانجرف في سبيل الحياة السريعة فيه.

وفي هذا المجتمع الجديد الذي فتح له أبواب الإقامة والسكن والعمل والحياة وعامله مثلما يعامل أبناءه، تعلّم أنّ هذا الغريب ليس سيئا كما كان ينظر إليه بعض أفراد مجتمعه.

وهذا الغريب الذي اخترع السيارة والقطار والطائرة فأوصل مناطق العالم بعضها ببعض، واخترع الاتصالات اللاسلكية فأوصل البشر في أنحاء المعمورة بعضهم ببعض، واكتشف الأدوية والتطعيمات لعلاج الأمراض والوقاية منها لفائدة البشر، ليس عدو الله ولا عدو أحد، ولا يعادي بالضرورة إلاّ من كان متشددا معاديا للسلام والحرية والإنسانية، وخطرا على التقدم والازدهار والحضارة.

ها هي ألوان التجارب السابقة في مجتمعه القديم وألوان التجارب الجديدة في مجتمعه الجديد تمتزج لترسم له صورة جديدة مختلفة لطبيعة البشر، مثلما شاهدها في الواقع من خلال احتكاكه بشعوب الدنيا في مدينة يجتمع فيها كل أجناس الدنيا، وليس اعتمادا على ما سمعه وسلّم به مجتمعه.

مجتمعه لم يُسلّم بأشياء فحسب، بل أحاط هذه الأشياء بجدران واقية وخطوط حمراء لا يحق لأي كاتب أو مفكر في الدنيا أن يجتازها. ولا بأس إن تهجّم على مقومات أمم أخرى أو انتقد معتقدات الآخرين! أولئك جميعا في ظلال مبین! فتعالّت صيحة من أعماق نفسه:

«عجبتُ من قوم..»

إن نقدَ المفكرُ التاريخ قالوا أساء إلى سمعة أجداده،

وإن نقد الموروث قالوا تنكر لأصله.

وإن نقد الدين قالوا هذا عدو ربه،

وإن دافع عن الانفتاح قالوا خدم مصالح أعدائه،

وإن سكت عن كل ذلك، قالوا تخلى عن أداء رسالته!»

لقد أدرك الآن أنّ الغريب في أوقات كثيرة خير من القريب في أفكاره ومواقفه وتصرفاته.

ولن يحتاج إلى السفر إلى الماضي البعيد بحثا عن نماذج. فالتجربة الرهيبة التي عاشها في أول يوم من السنة الجديدة مع صديقه جمال في عقر بيته ما زالت عالقة بذاكرته، تبث القلق والفرع في ذاته.

كما لو أنّ تعرّضه للتهديد بالسكين لم يكن كافيا، فقد تعرّض لصدمة أخرى في الشهر التالي. كان في العمل عندما اتصلت به أنجلينا لتبلغه بوصول فاتورة هاتف بمبلغ ٣٧٥ جنيها! مع أنه، منذ امتلاكه خط الهاتف هذا، لم يسبق له أبدا أن دفع فاتورة تفوق ثلاثين جنيها! ولما اتصل بشركة

الاتصالات البريطانية (بي تي) مستفسرا آملاً أن يكون ذلك مجرد خطأ حتى يُصحح ويعفى من دفع ذلك المبلغ الرهيب، قيل له لسوء حظه إنه لم يكن خطأً. كان ذلك نتيجة اتصالات طويلة بخطوط جنسية ساخنة باهظة التكلفة في الساعات الأولى من الفاتح يناير!

في لحظة خيبة الأمل والحسرة والألم، لم يجد بداً من التفكير في ذلك الرجل الغريب الذي التقى به يوماً في رحلة جزر كناري، ريتشارد. فكر في ذلك الرجل الغريب، وفكر في هذا الرجل القريب، فوجد أنّ كلاهما كان يشترك في الشرب والسكر. وبينما أحسن الرجل الغريب معاملته، وأهداه زوجته لأجل المتعة والسعادة، ها هو هذا الرجل القريب، المحترق لزوجته، يهدده ويهربه في عقر داره، وبعد ذلك، ودون إذن، يجري اتصالات هاتفية مكلفة لأجل ممارسة الجنس في عالم افتراضي، على حساب هاتفه، غير مكترث بالأضرار المادية التي يلحقها بصديق ائتمنه وفتح له بيته!!

فما العيب في غريب إن كان حسن الطبع؟! وما جدوى قريب إن كان سيء الخلق؟!.. ربّ غريب صادق، خير من ألف قريب منافق!

هكذا مع مرور الزمن، تغيرت نظرة شفيق إلى الغريب وإلى المجتمعات الأجنبية، لا سيما بريطانيا التي يحيا فيها.

صار اسم بريطانيا لا يقرن بالعلوم والمعارف والصناعة والتكنولوجيا والحرية والحضارة والرقي فحسب، بل أيضاً بالزمن الذي يحيا فيه:

«الحاضر»، هذا الواقع الجديد الذي يعيشه. أما الجزائر التي تركها خلفه، فصارت مع مرور الزمن تُقرن في ذهنه بماضيه وذاكراته.

كان في أيامه الأولى بديار الغربه يسافر بوجدانه إلى بلاده، ويحنّ إلى الارتقاء في حضن وطنه والبكاء بلهفة وحرارة بكاء الطفل الصغير المشتاق إلى صدر أمه الحنون. فالرحيل عن الأوطان بدا أصعب وأمرّ مما كان يتصور.. كان هذا الرحيل طعنة خنجر في صدره. ويا ليتها كانت طعنة مميتة خمدت أنفاسه، وأنهت مأساته! طعنة الرحيل هذه لم تكن شديدة إلى حد مسح من الوجود، لكنها كانت كافية لتمزق قلبه، وتسيل دمه ثم تتركه مطروحا على الأرض، يتخبط في حوض من الدماء، لا هو ميت ولا هو حي! كان في ذلك أشبه بجندي جريح، منهار القوى، محاصر، يعلم أنه إذا تعرض للاعتقال، سيكون مصيره الحبس والتعذيب، وهو بذلك يحن إلى الارتقاء في حضن الموت والخلاص من كل عذاب!

لقد أدرك الفتى في غمرة الوحدة والضياع والألم واليأس أنّه «أحيانا في هذه الحياة، البحث عن طريق أسهل للموت، أرحم من عذاب التفكير ومشقة البحث عن سبيل للنجاة».

وفي غمرة البؤس والعذاب أيضا، سعى للسفر إلى أغوار نفسه للقاء «الألم» والسعي لمعرفته، ومحاولة إدراك مصدره، والعثور على أفضل السبل لإيقافه. فقطرات الماء التي تتسرب من سقف المنزل لها مصدر، وهذا المصدر قد يكون شروخا صغيرة في السقف. فلا سبيل إلى وضع حد

للتسرب دون وضع حد لهذه الشروخ. الألم أيضا له مصدر، ومعرفة مصدر الألم نصف علاجه.

وفي رحلة البحث هذه، أدرك أن مصدر ألمه في واقع الأمر ليس الرحيل عن الأوطان. فالإنسان بطبعه حيوان متنقل، ومحكوم عليه بالحركة والأسفار... فمصدر الألم ليس الرحيل نفسه وإنما التفكير في هذا الرحيل والرجوع بالذاكرة إلى الورا وتذكر الوسط الذي رحل عنه، وأجوائه، وأهله، وكل شيء جميل فيه. وكل ذلك يشعر الإنسان بالمرارة والألم. فكان عليه أن يصمم حقنته الخاصة المضادة لهذا الألم.. حقنة شديدة المفعول تعمل على تحصين الذهن لكي لا يفكر في الماضي المظلم وإنما في الحاضر المشرق. فالماضي انجلى ولم يعد موجودا، مثل السحب الحالكة الكثيفة التي تغزو السماء ثم تتلاشى لتترك وراءها سماء زرقاء صافية تشرق فيها الشمس فتملأ النفس دفئا ودعة وسعادة.

وهكذا أوصد الفتى باب الماضي وقذف مفتاحه في نهر التاييمز من أحد الجسور العالقة بالمدينة ذات مساء كي لا تحثه نفسه يوما على العودة إليه لفتحه في لحظة ضعف أو يأس. لكنه لم يكن يعلم أنّ شخصا آخر في هذا العالم كان أيضا يملك نسخة من هذا المفتاح. إنها والدته التي فتحت له هذا الباب من خلال حديثها عن الجزائر وما كان يدور فيها من أحداث. وفتحت له بذلك الجرح الدامي الذي سعى طويلا لتضميده.

وبعد رحيل والدته، هرع إلى قفل «باب الماضي» من جديد منشغلا ببناء حياته الجديدة رفقة فتاة من النمسا. حتى الفضاءية الجزائرية، التي كان

يتابع من خلالها أخبار الثامنة المحزنة رفقة والدته، صرف باله عنها ليشغل بمشاهدة القنوات البريطانية والفضائيات الألمانية التي كانت تعينه على تعلم اللغة الألمانية، هذه اللغة الصعبة التي كان يرغب في تعلمها لأجل حبيبته.

حبيبته أنجلينا هذه التي ساعدته على شراء المنزل، وشجعتة على إيجاد وظيفة أفضل، وبناء المستقبل في بريطانيا، لم تكن في واقع الأمر سعيدة في هذا البلد. فمع مرور الزمن، ازداد اشتياقها إلى الوطن الذي نشأت فيه، وما أصعب لوعة الحنين إلى الأوطان. وفي غمرة ذلك، أبلغت شقيق أنها لم تعد تحتمل كثيرا وتيرة الحياة السريعة والمجهددة في بريطانيا، وأنها لا ترى نفسها تعيش في هذا البلد بعد سنتين أو ثلاثة.

وذات مساء بعد عودتها من العمل، تخيم عليها غيوم الإرهاق والحزن، لم تمالك نفسها، فأجهشت بالبكاء وقالت بصوت تخنقه العبرات:

أنا أسفة! كثير من الناس يحلم بالحياة في مدينة مثل لندن.. لكني لا أستطيع! لست أدري! لست متعودة على حياة صاحبة سريعة كهذه!

كان شقيق يشعر بما كانت تشعر به وهو من كان ينظر إلى نفسه كما لو كان طائرا استوائيا ألقي به خارج وكره وبيئته ليحيا في بيئة باردة مدى الحياة. فهرع إليها وضمها إلى صدره بعطف وقال متعاطفا:

«أفهم ما تقولين! حتى أنا تعبت من هذه الحياة السريعة! وتعبت نفسيا من هذا المناخ! ليس هذا هو المناخ الذي أستطيع أن أحيا فيه! ولا أعرف كيف أتأقلم! لم أكن أتصور أن يكون تأثير هذا الجو بالغا في نفسي! نستطيع

أن نفكر معا في الانتقال إلى بلد آخر، ولم لا؟! ربما جنوب فرنسا حيث لدي أقارب! الحياة هناك أقل سرعة والطقس جميل!»

«الطقس في النمسا جميل أيضا!» قالت له مطلقة ابتسامة عريضة والدموع تبّل وجهها وبريق الإثارة يسطع في عينيها وعلى خديها. «الصيف فيها حار وممتع ليس مثل هنا! لا بد أن تأتي معي إلى النمسا في الصيف! أنا واثقة أنها ستعجبك! ثم، ستكون هذه فرصة لمشاهدة المنزل والمزرعة والتعرف إلى عائلتي! لقد حدثتهم عنك! تعال معي إلى النمسا! أرجوك! ليس لك عذر!..».

أثارت فكرة السفر إلى النمسا اهتمامه في وقت كان يشعر بحزنها وألمها لفراقها عن وطنها. كان هو أيضا يشعر بمعنويات منخفضة واكتئاب خاصة عندما يتذكر رحلة كناري التي بقى طيفها الجميل يطارد خياله، ويحرق فؤاده.

الطقس في بريطانيا متقلب في فصل الصيف وأنجلينا تقول إنه أفضل في تلك البقعة من أوروبا! فلماذا لا يصغي إليها ويسافر معها ويشاهد بعينه؟!

شعر في هذه اللحظات برغبة مفاجئة في عطلة أخرى.. كان واثقا أنه يستطيع أن يسافر معها. لكنه لم يكن واثقا من الفكرة الثانية المتمثلة في اقتراح الاستقرار في النمسا. كان يدرك أنه للحياة في النمسا سيحتاج حتما إلى إتقان اللغة الألمانية. لن يستطيع التواصل مع أفراد أسرتها والعمل والحياة في هذا البلد دون التمكن من هذه اللغة. صار يرغب أكثر

من أي وقت مضى في تعلمها وإتقانها، وشرع فعلا في ذلك، لكنّ الطريق بدا شاقا منذ البداية.

ومع اقتراب موعد السفر، شعر بمزيد من الإثارة، وراح يجتهد أكثر لتعلم هذه اللغة. اشترى عددا جديدا من مجلة (ديغ شبيغل) الألمانية في محل بيع صحف في وسط لندن وراح يجتهد لقراءة المقالات مستعينا بالقاموس. وصار يحمل قاموس الجيب الإنجليزي - ألماني معه إلى أماكن العمل وحيثما ذهب. وشعر برغبة متزايدة في الجلوس مع أنجلينا لمشاهدة أفلام ألمانية على الفضائيات الألمانية مثل (أر تي أل ٢) و(فوكس) و(برو ٧) لم يكن يهتم بمشاهدتها إلاّ ليلا في بعض الأوقات بحثا عن أفلام الإثارة، ولم يكن يفهم منها في كل الأحوال إلا القليل.

صار يشاهد كل البرامج، من أفلام ومسلسلات ورسوم متحركة وأشرطة وثائقية ونشرات الأخبار التي راحت تتحدث عن الحرب الأهلية في الجزائر بشكل متزايد مع تدهور الوضع الأمني في الجزائر مع مطلع العام الجديد ١٩٩٧. وإذا باسم «الجزائر»، الذي سعى طويلا لحذفه من ذاكرته وطرده من حياته، يتردد في شتى وسائل الإعلام الألمانية والبريطانية والأجنبية الأخرى التي راحت تبث أبشع صور العنف والموت القادمة من هذا البلد الشمال إفريقي.

اسم الجزائر لم يفارقه حتى أثناء سفره إلى النمسا رفقة أنجلينا وأواخر شهر آب الذي تطلع إليه طويلا، وأراده أن يكون رحلة للراحة والمتعة لا تعكّر صفوها أخبار محزنة.

استقبله مطار فيينا يوم الأحد ٣١ آب ١٩٩٧ بنسخة ورقية لصحيفة (الواشنطن بوست) بتاريخ ٣٠ آب، ملقاة على أحد المقاعد الشاغرة، يكون قد تركها أحد المسافرين الأمريكيين العابرين بهذا المطار. تصفحها شفيق أثناء الرحلة الداخلية من فيينا إلى غراتس فاستقبلته بأنباء صادمة: «مئات القتلى في مجزرة بالقرب من الجزائر» كان عنوان المقال المثير للاشمئزاز والفرع، وجاء في مطلعته: «أكثر من ثلاثمائة شخص تعرضوا للذبح ليلة الخميس في المجزرة الأكثر إراقة للدماء خلال خمس سنوات من الحرب الأهلية بين الثوار الإسلاميين والحكومة العلمانية التي يدعمها الجيش».

على وقع صدمة الخبر، حطت الطائرة في مطار غراتس حيث كان والدا أنجلينا في انتظارهما. وعلى وقع الصدمة، راحت السيارة تشق طريقها عبر الطريق السريع نحو الجنوب في يوم مشمس حار قليل السحب. انشغلت أنجلينا بالحديث مع والديها ولكنها ألمانية بدت مختلفة عن الألمانية المعهودة التي كان يسمعها في القنوات الألمانية. لم يكن آنذاك في مزاج للاستمتاع بهذه الرحلة. صورة هذه المجزرة المتماكة التضاريس احتلت مكانا بارزا في وجدانه. شلَّ ذهنه، وانعقد لسانه، وخيمت غيوم الأسى والغم في صدره بعد لسعة الخبر المؤلمة.

بعد نحو ساعة، غادرت السيارة الطريق السريع، وانحرفت يمينا، وأخذت في الصعود في منطقة جبلية عبر طريق ضيق يكاد يكون خاليا من السيارات في هذه المنطقة الريفية النائية. كان بيت والدي أنجلينا منزلا خشبيا كبيرا، شبيها بكل المنازل الريفية الخشبية الأنيقة المتباعدة المنتشرة

في هذه المنطقة الجبلية. أخذت أنجلينا شفيق إلى غرفتها بالطابق الأعلى. كانت غرفة خشبية فسيحة، أرضيتها وجدرانها وسقفها وكل أثاثها من خشب مطلي بلون صنوبر أصفر فاتح أملس، أضفى على أجواء الغرفة دفئاً مميزاً. فتحت أنجلينا الباب المطل على البلكونة، فرافقها إلى الخارج. لم يصدق عينيه وهو يرى المشهد الطبيعي المرسوم أمامه من ذلك العلو. جبال شاهقة شاسعة يكسوها غلاف خلاب تمتزج فيه ألوان الصيف الصفراء والحمراء والخضراء، تغازله خيوط أشعة الشمس المتألثة المتناثرة في الأجواء، تتخللها هنا وهناك منازل خشبية ومزارع تمتد على مدى البصر.

«واو، واو، واو!» صاح مندهشاً. «أرجوك أخبريني! هل أنا في حقيقة أم حلم يا أنجلينا؟!»

«ستعرف الآن لماذا لا أقوى على التأقلم مع الحياة في لندن!»
«أنفهم الآن أكثر من أي وقت مضى يا أنجلينا! غرفة كبيرة ومريحة كهذه! وبيت فخم كهذا! ومنطقة هادئة وخلاصة كهذه! وهواء منعش كهذا! ما أجمل النمسا!»

«لكن المنطقة التي تشاهدها أمامك ليس كلها النمسا!»

«ماذا إذا؟!»

«انظر إلى أسفل الجبال هناك؟» قالت وهي تشير بيدها أمامها. «عند تلك النقطة تنتهي حدود النمسا. كل ما تشاهده خلف ذلك تابع لسلوفينيا».

«هل هذا صحيح يا أنجلينا؟! أكاد لا أصدق ما أسمع! لو لم تخبريني بذلك لما انتبهت! لا أرى أي اختلاف في الطبيعة الجغرافية والنباتية! ولا حتى في الهندسة المعمارية! وكأنها أرض واحدة!»
في غمرة دهشته، عاد شفيق بذاكرته إلى كلمات أغنيته المفضلة «تخيل»
لجون لينون:

«تخيل أنه لا توجد دول..

ليس ذلك صعبا..

لا شيء تقتل أو تموت لأجله..

ولا دين..

وتخيل أن كل البشر يحيون حياتهم في سلام...».

لم يعد «تخيل»، فهو الآن يشاهد بعينه أنه «لا توجد دول»! فهذه المنطقة الجبلية أمامه تبدو واحدة بتضاريسها وغلافها النباتي وكل ما فيها. الإنسان فقط هو من رغب في تقسيمها، ومد الحدود بين جهتيها، وفصل شعبيها!

شفيق لم يكن يرغب في التفكير في هذا التقسيم. فهذا المشهد، بالنسبة له، أشبه باللوحة الزيتية الجميلة التي لا يمكن فصل أجزائها، بعضها عن بعض. فهي كل متكامل. هكذا كان يرغب في مشاهدة هذا المنظر المنبسط أمام عينيه.

فبصره لم يكن يحفل بهذا التقسيم السياسي، تماما مثل هذه الشمس
الساطعة في السماء التي لا تحفل بمثل هذا التقسيم، فترى أشعتها البنفسجية
تتناثر كذرات لؤلؤ على كامل أنحاء المنطقة دون تمييز!
وها هو النسيم العليل الذي يلامس وجهه، وهو جالس في هذه البلكونة
في أول ليلة له في هذا البلد، يهبّ فيلامس الأشجار الباسقة، ويراقص
الأوراق، ويداعب كل نبتة في كل أرجاء المنطقة، دون تمييز.

رحلة النمسا بدت منذ البداية فرصة للقاء الطبيعة الجميلة والطقس الممتع الذي استحضر في ذاكرته صورا من صيف الجزائر حيث كان يقضي عطلته في البادية في منطقة جبلية نائية بولاية سطيف عاصمة الهضاب العليا بوطنه الأصلي. لكنها أيضا كانت فرصة منذ اليوم الثاني للقاء أسرة أنجلينا متمثلة في والديها وجدتها وشقيقها الوحيد كريستيان.

كانت والديها تدعى إيرمغارد وكانت ربة بيت ممتازة وطباخة ماهرة. وكانت امرأة ريفية قوية الإرادة، نشيطة. كانت تستفيق في ساعة مبكرة، فتقوم بحلب البقر، وإعداد فطور الصباح الذي كان يختلف عن الفطور الإنجليزي التقليدي الذي يشمل لحم الخنزير المقدد المقلي والتفاح المقلية وبيض وفطر. الفطور النمساوي في هذه المنطقة كان يحتوي على رغيف مستدير مصنوع من دقيق الخبز الكامل وكبيرة بذور الخشخاش وزبدة البقر ومربي الفواكه لا سيما المشمش الذي كان يتم جنيّه في المزرعة، وكانت والدته أنجلينا تصنع منه كميات كبيرة في فصل الصيف، تحفظها في جرار لفصل الخريف والشتاء.

في لندن، كان شفيق حريصا على متابعة نظام غذائي صحي، متجنباً ما استطاع الدهون والسكريات وكل ما كان مضرًا بصحته. وكان في أغلب الأوقات، يتناول رقائق الذرة بحليب نصف داسم. وفي أوقات قليلة كنهاية الأسبوع، كان يتناول فنجان قهوة بالحليب مع قطعة أو قطعتين خبز محمص بالمربي. وهنا في النمسا، صار فطوره المفضل قطعة كيكة الخشخاش وكأس حليب البقر كانت تحضره له والدة أنجلينا كل صباح من زريبة البقر قبل إخراج الأبقار للرعي في المزرعة التي كانت تمتد على مساحة واسعة.

والد أنجلينا، السيد توماس، كان رجلاً قوي البنية، شديد الإرادة. كان يشتكي من صداع دائم، لكن ذلك لم يثنه عن العمل الشاق في مزرعة العنب حيث كانت تمده زوجته بيد المساعدة. وكانت الأسرة تحتاج إلى يد عاملة رخيصة في موسم الجني، فكانت تستدعي عمالاً من القرى السلوفينية المجاورة للمساعدة. بعض هؤلاء صار يأتي للعمل هنا بانتظام سنة بعد أخرى.

أخذت أنجلينا شفيق إلى كوخ ملتصق بزريبة البقر حيث شاهد أحواضاً وأنابيب وقناني زجاجية معتمدة اللون فارغة. إنه المكان الذي تنتهي إليه عناقيد العنب بعد جنيها عند نضوجها الكامل لصناعة النبيذ. شرحت له أنجلينا كيف تفصل حبات العنب من العناقيد، ثم تطرح على السطح وتعرض لأشعة الشمس لعدة أيام لإزالة الرطوبة وتركيز نسبة السكر وتنشيط عملية التخمر فيها. وبعد ذلك، تعصر في الأحواض بالأقدام الحافية وهي ساخنة.

صاح شفيق ضاحكا عند سماعه ذلك:

«بالأقدام الحافية! هذا مقزز! هذا بالتأكيد سبب إضافي يجعلني أكره
النبذ للأبد!»

لم يلتق شفيق جدة أنجلينا إلا في مساء اليوم التالي. حتى ذلك الحين لم
يكن يعرف عن هذه المرأة إلا اسمها: دوبا. كانت السيدة دوبا امرأة قصيرة
القامة، مسنة تجاوزت الثمانين، حفرت السنين التجاعيد في وجهها، ولم
تترك إلا الجلود ملتصقة بالعظام في جسدها. كانت لشدة ضعفها ومرضها،
قعيدة الفراش، حبيسة بإحدى الغرف بالأسفل. لم تكد تلمح شفيق حتى
ابتسمت ومدت ذراعيها المرتجفين تدعوه إلى التقدم نحوها، وراحت
تحضنه وتلمس يديه وتنظر إليه بتأثر كما لو كانت تعرفه منذ زمن طويل!
وأخذت تحدثه بالألمانية مرددة بإعجاب وتأثر اسم «روبرت» في صوت
بدا وكأنه صفارة قطار بخاري يدنو من آخر محطة في رحلته. نظر شفيق إلى
أنجلينا مستنجداً وهو لا يفهم من كلامها شيئاً، فقالت:

«معذرة! جدتي لم تعد تعي ما تقول! هي الآن تعتقد أنك روبرت»

«روبرت؟!»

«روبرت هو ابن أختها الكبرى. تولت تربيته بعد وفاة شقيقته بمرض
السرطان. استلمته وهو صبي لا يتجاوز الثالثة من عمره. كان يدعوها أُمي.
وكانت تعامله كما لو كان ابنها من لحمها ودمها خاصة أنها لم تنجب أطفالاً.
كان روبرت في الثالث والعشرين من عمره عندما مات في حادث مرور...».

جدة أنجلينا المسكينة هذه، هزتها الصدمة وأثقلت كاهلها السنون، فلم تعد تعي ما تقول وصارت تحتاج إلى عناية على مدار الساعة. والدة أنجلينا تولت رعايتها لسنوات، لكنها الآن لم تعد تحتمل. فلم تعد تلي كل حاجاتها. صارت عندما تناديهما، تهرع إليها حيناً، وتتجاهلها أحياناً. وصارت في بعض الأوقات تنفعل عندما تسمعها تبكي وتشتكي وتردد أن بغرتها أشباح تطاردها، وتلح على حضورها وبقائها معها. وقالت أنجلينا أن جدتها لشدة ألمها وعذابها صارت تدعو الإله إلى وضع حد لحياتها، فيخلصها من هذا العذاب. وبدلاً من الموت، لم تلق إلا مزيداً من الملل والألم والغم في هذه الحياة.

تأثر شفيق عندما سمع ذلك. فالمرأة العجوز أمامه لم تختبر هذا الوضع الذي وجدت نفسها فيه واهنة، معاقة، لا حول لها ولا قوة. حتى قواها العقلية خانتها فلم تعد تدرك ما تشاهد، ولا تدري ما تقول. هذه المرأة العجوز أمامه هي لعبة من لعب السماء، تقذفها إلى الوجود وقتما تشاء، وتلعب بها وتعبث بمصيرها كما تشاء. ثم تخرب جسدها، وتفسد عقلها، وتدمرها كيفما تشاء ووقتاً تشاء! أي عدل هذا في الحياة إن كان هذا سليم الجسم قادراً على السير والجري، وذاك عليل البدن معوقاً حبيساً في مكان! وهذا سليم البصر ينعم بمشاهدة ألوان الطبيعة، وذاك فاقد البصر لا يرى أمامه إلا الظلمة المريعة! وهذا يحيا إلى أن يهرم ويسأم العيش ويشاق إلى الموت، وذاك يموت وهو لم ير بعد نور الحياة!

نظر شفيق إلى الخلف من فوق كتفه وهو يغادر الغرفة فرأى الحزن يرتسم في وجه السيدة دوفاء. وسرعان ما امتلأت عيناها بالدموع وتعالى صوتها المبحوح المرتجف متوسلا:

«ابق معي روبرت! لا تتركني وحدي يا ابني! أرجوك!»

تنشد اسم روبرت، ثم يتعالى صوتها الشجي لينشد الموت الذي أبى أن يحضر، مرددة:

«أمي! تعالي! خذيني معك!»

اقشعر بدنه تأثراً وأسفا على حالها. ها هي الحياة تحكم عليها بعمر أطول مما تحتاجه!.. وأطول مما تريد!.. وأطول مما تستطيع أن تتحمل! ولو كان في وسعها الاختيار، لما اختارت أن تحيا بقية عمر بلا لون، ولا طعم، ولا نكهة، ولا متعة!.. عمر لم يعد لها قوة، ولا طاقة، ولا صبر، ولا أمل لتحمل أعبائه! وما جدوى الحياة من غير غاية أو أمل؟!.. أيام متشابهة تشترك كلها في الشعور بالوحدة والملل والوجع والخوف!.. أيام تشترك في ألم لا يعرف السكون، وعذاب ليس له آخر! أي عدل هذا في الحياة، حتى يُحكّم عليها بعمر أطول مما تتحمل، ويُحكم على طفلها، أحب البشر إليها، بالرحيل في عنفوان الشباب، وقبل الأوان؟!!

لطالما تأمل كلمة «سجن» محاولا النفاذ إلى أعماقها، والإبحار في محيطها، والتحليق في عالمها، وهو من درس اللغة وكان شغوفاً بالبحث في عالمها. وفي رحلة التأمل والبحث، أدرك أنّ للسجن مفهوم يتعدى كل هذه

التعريفات المتشابهة من حيث المعنى في كل معاجم الدنيا. فالمعاجم تجمع على تعريف «السجن» بالمكان الذي يحبس فيه المتهمون أو المجرمون. مفهوم «السجن» أوسع من ذلك بكثير.. «السجن» ليس معمولا للمتهمين والمجرمين فحسب، بل لكل البشر.. «السجن» يتعدى الإطار المادي الملموس، ويتعدى إطار المبنى والأجور والإسمنت والرمل، وهذه الأسوار العالية والأسلاك الشائكة، والأبواب الفولاذية، والقضبان الحديدية، إلى ما هو غير مادي، وغير مرئي، وغير ملموس، ليكون: كل موضع أو وضع يلقي فيه الإنسان نفسه، مقيدا بشكل ما، وليس في وسعه الخروج منه.

وليس كل السجون من صنع البشر، أو بإرادة البشر، عقابا للمذنبين وحفظا للنظام والأمن والاستقرار والممتلكات. فكثير من السجون من صنع الحياة نفسها، يوضع فيها الإنسان من دون إذن، وبغير محاكمة، وبغير ذنب! وأي ذنب هذا الذي ارتكبه السيدة دوبا حتى تحكم عليها الحياة بالعيش المؤبد خلف قضبان الإعاقة والمرض المزمن والألم الدائم؟! وأي ذنب هذا الذي ارتكبه الأعمى لكي يُحكم عليه بالعيش في زنزانة الظلام مدى العمر؟! وأي ذنب للأرواح البريئة حتى تحبس في أجساد سيئة الهيئة، قبيحة المنظر، عرضة للسخرية؟! وأي عدل في ذلك إن كانت أرواح أخرى تحيا في أجساد جميلة، فاتنة، تنبهر الأنظار لمشاهدتها؟!

وأأي ذنب هذا الذي ارتكبه الإنسان أساسا حتى يُزجَّ به في سجن الوجود، يصارع فيه، ويعاني إلى آخر ساعات عمره؟! وهل سأله أحد إن كان يرغب في الوجود؟!

حتى هذا الكوكب الذي يحيا فيه الإنسان منذ ملايين السنين هو في الواقع مجرد سجن كبير - بل أكبر سجن يحيا فيه الجنس البشري - يقع في فضاء واسع! فرغم تقدم العلوم والتكنولوجيا والاكتشافات والرحلات الفضائية ونزول المركبات الفضائية المتطورة فوق سطح الكواكب، فالإنسان يبقى حبس كوكبه، لا يعرف الحياة خارج حدوده!...

بعد لقاء الجدة، جاء أخيرا دور شقيق أنجلينا الوحيد كريستيانو. كلما سأل عنه، وجدته نائما بغرفته أو خارج المنزل. التقاه عند تناول العشاء رفقة أخته ووالديه. كان كريستيانو متوسط القامة، طويل الشعر، أصغر من أخته سنا. وكان بشوشا، لا تفارق البسمة شفثيه. كان آنذاك في عطلة دراسية، مثلما أبلغ شقيق بلغة إنجليزية لم يكن يتقنها تماما مثل شقيقته، مضيفا أنه كان يسهر مع أصدقائه خارج البيت ليلا، ويصرف النهار في النوم، مما صعب لقاءه.

تفاجأ شقيق بنظام الأكل في هذا البلد، والذي بدا مختلفا جدا عن بريطانيا. كثير من الإنجليز يتناول وجبتين أساسيتين: فطور إنجليزي كامل وعشاء كبير أيضا. وبعضهم الآخر يتناول ثلاث وجبات، وهذا هو النظام الذي كان يتبعه شقيق. كان غذاؤه خفيفا في شكل ساندويتش، وكان يتطلع دائما إلى العشاء الذي كان وجبة كبيرة مثل الكسكس الذي لم يكن يحسن طهيه، أو باستا أو ستيك أو سمك مقلي أو لحم خروف محمر مع خضروات...

النظام الغذائي في النمسا كان مختلفا. فالغداء كان أهم من العشاء فكان أكبر وأكثر تنوعا وفيه أصناف مختلفة من الحساء وأطباق الخنزير الذي لم

يكن يستطيع أن يأكل، وأطباق لحم البقر ولحم الدجاج. أما العشاء فكان عادة أكلا خفيفا مثل قطع اللحم المجفف، وشرائح اللحم المدخن والجبنة. هذه الأسرة كانت مكتفية ذاتيا من حيث اللحوم. في غرفة كبيرة بالأسفل تستخدم مستودعا لتخزين الحبوب والمربى ومواد غذائية متنوعة، تفاجأ شفيق بمشاهدة عدد من المجمدات العملاقة. شرحت له أنجلينا أنها تستخدم لحفظ اللحوم. فقبيل حلول فصل الشتاء، يقوم السيد توماس بذبح بعض الخنازير وعدد من الدجاج قد يصل إلى ثلاثين دجاجة في آن واحد. بعد ذلك تنظف وتحفظ في المجمدات للاستهلاك خلال فصل الشتاء القاسي الطويل والفصول الأخرى.

بعض اللحوم كان يحفظ بطريقة مختلفة بتدخينها وتجفيفها. تتم عملية التدخين بطريقة تقليدية بالفحم المصنوع من حطب يجمع في غابة بالأسفل الجبل يشترك في الاستفادة منها عدد من الأسر التي تعيش في تلك المنطقة. كانت لشفيق فرصة زيارة هذه الغابة حيث شارك في قطع الأغصان وجمعها ونقلها إلى المزرعة. وباقتراح من أنجلينا، شارك أيضا في البحث عن فطريات برية قليلة تنمو في ظل الأشجار الباسقة. على عكس شفيق، كانت أنجلينا تحسن التمييز بين هذه الفطريات الصالحة للأكل والفطريات السامة المنتشرة أيضا بتلك الغابة. قامت والدتها لاحقا بإعداد حساء بالفطريات البرية لم يتذوق مثله في حياته.

أما الحطب، فكان السيد توماس يقوم بحرق بعضه لصناعة الفحم لتدخين اللحم في غرفة خاصة بجانب الاسطبل حيث كانت تترك شرائح

اللحم والنقانق لعدة أيام تتشبع فيها بذوق مدخن رفيع. بعد ذلك، تجفف وتحفظ للاستهلاك لاحقاً. وكان يستخدم بقية الحطب كوقود لتسخين الماء وتدفئة المنزل في فصل الشتاء القارس الطويل. وكانت الأسرة توفر كثيراً من المال من خلال نظام تدفئة يعتمد على توليد الطاقة عن طريق حرق الخشب في فرن خاص مثبت في مستودع بالطابق السفلي للمنزل.

شاهد شفيق في المزرعة وفي رحلته إلى الغابة وأثناء مرافقته أنجلينا ووالديها للتسوق في مدينة لاينيتز، وهي أقرب مدينة إلى المنطقة، حقولاً ممتلئة باليقطين، لا تكاد تخلو منها مزرعة واحدة في تلك المناطق. بدا وكأنها أضفت لمسات زيتية برتقالية على ذلك المشهد الأصفر والأخضر مترامي الأطراف، تتناثر عليه أشعة الشمس فتزيده لمعانا وإشراقاً. بالتأكيد، لم تكن هذه أول مرة يشاهد فيها اليقطين. ففي بريطانيا يزرع أيضاً لأجل الاحتفال بالهالوين في يوم ٣١ أكتوبر عشية العيد المسيحي، عيد جميع القديسين، كل سنة. لكن زراعته في بريطانيا لم تكن بتلك السعة. وهو ما أثار فضوله، فقال لأنجلينا متعجباً، لأول وهلة:

«ما كنت أتصور أنكم تحبون أكل اليقطين إلى هذه الدرجة!»

هزّت رأسها بالنفي:

«لا، لا أتصور ذلك!» وأضافت موضحة: «نطبخه أحياناً، فلا تسيء فهمي!.. أمني تصنع منه حساءاً برتقالياً اللون مقرفاً! لا أريد أن أتذكره! لا أحد يأكله عدا والدي! نحن لا نزرعه لأكله وإنما لصناعة الزيت».

«زيت؟! لم أسمع أبدا بزيت يستخرج من اليقطين!»
«إنه زيت بذور اليقطين، لونه داكن.. لا أدري إذا انتبهت؟ نستخدمه في السلطة..».

«لا، لا أتصور أنني شاهدته من قبل».
«سأريك لاحقا! هو زيت معروف في النمسا وألمانيا وأوروبا الشرقية.. غني بالفيتامينات والمواد المضادة للالتهاب، وهو مفيد للقلب ويعمل على تخفيض نسبة الكوليسترول في الدم..».

ما ذكرته أنجلينا عن هذا الزيت الطبيعي وفوائده أثار فضوله واهتمامه. ففي موعد العشاء، تطلع إلى تذوقه أكثر من أي شيء آخر. أحضرت له السيدة إيرمغارد صحنًا به طماطم وخيار وبصل من خيرات المزرعة. وأحضرت له أنجلينا قينة زيت بذور اليقطين معصور في المزرعة. سكب قدرا من الزيت في السلطة ومزجها. بدا لونه الآن، وهو مفرق في السلطة، مختلفا عما كان عليه في القينة، يميل إلى الأخضر الداكن.

في بداية الأمر عافه لأنه لم يكن متعودا على مشاهدته. لكن، بمجرد أن شرع في الأكل، لم يستطع أن يتوقف. ومنذ ذلك الحين أدمنه حتى لم يعد للسلطة طعم من غيره. كانت هذه الأسرة تنتج كمية معتبرة من هذا الزيت، تحتفظ ببعضه للاستهلاك الخاص، وتبيع البقية. وبعائدات بيع الزيت والبقر والخنازير والدواجن والخمور والحليب والخضر والفواكه، تستعين هذه الأسرة لشراء المواد الغذائية المتبقية مثل القهوة والشاي والسكر، و مواد التنظيف، والثياب، وأجهزة منزلية، ولوازم أخرى، فضلا عن دفع فواتير مثل

الكهرباء والهاتف. ومن هذا الدخل أيضا كان السيد توماس يدفع تكاليف وقود السيارة والجرار والسجائر التي أدمنها. كان يدخن بين ثلاثين وأربعين سيجارة في اليوم. ولما كانت تكاليف السجائر والبنزين عالية في النمسا، كان يتردد رفقة زوجته إلى الجارة سلوفينيا، فكان يشتري سجائره المفضلة من نوع (بوص) في الأسواق الحرة على الحدود النمساوية السلوفينية بأسعار مخفضة لكن بكمية محدودة وفق القوانين الجمركية. وكان يتزوّد بالوقود في القرى السلوفينية القريبة من الحدود.

النمسا أو بالأحرى هذه المنطقة البعيدة في جنوب النمسا كانت في نظر شفيق جنة على الأرض، أبدعت ريشة الطبيعة في رسم لوحتها بأجمل الأشكال والألوان.. وفي نشوة السعادة والطرب، انتابه شعور أنه أخيرا وجد المكان الذي كان يحلم بالعيش فيه.. وسط هادئ هدوء البادية التي كان يزور في وطنه في عطلة الصيف.. وسط مشمس لا يتقلب طقسه تقلب الطقس في بريطانيا.. وسط، مثلما يراه الآن، حار حرارة الجزائر في فصل الصيف، كيف لا وقد ناهزت درجات الحرارة في جنوب النمسا، حسب نشرة الأحوال الجوية على قناة (أو أر أف ٢)، الأربعين درجة! فهذه أول مرة يحيا فيها وسط هذه الحرارة منذ رحيله عن الأوطان قبل سنوات! وقد بلغ اشتياقه إليها مبلغا جعله يخرج للقائها، ويمضي وقتا معتبرا تحت رحمة أشعتها اللاهبة، ويأبى مفارقتها في وقت أوقف المزارعون العمل في حقولهم، واعتصموا بيوتهم فرارا من لهبها! تعجب والدا أنجلينا عندما شاهدها مستلقيا على الأرض خارج المنزل تحت أشعة الشمس الحارقة.

كان يرغب في استغلال كل ساعة وكل دقيقة وكل ثانية تحت هذه الشمس قبل عودته إلى الجزر البريطانية وطقسها المتقلب الكئيب.

كانت حرارة الطقس هذه تنهال عليه وتنفذ إلى جسده فتمتزج بنوع آخر من الحرارة المتدفقة من أعماقه: حرارة لتعلم لغة البلد، الألمانية، فاجتهد ما استطاع لتعلم المزيد من المفردات، وسعى كل مسعى لممارستها مع أفراد الأسرة وفي المحلات حيث صار يغامر بالتحدث مع العمال المساعدين، فيسألهم عن الأشياء التي يبحث عنها وأسعارها، وكلما تعذر عليه الفهم تدخلت أنجلينا لإنقاذه. وشيئا فشيئا اكتسب مزيدا من الثقة في نفسه وفي قدرته على تحقيق تقدم، ولاح في الأفق أمامه بريق أمل في أنه سيتقن هذه اللغة في يوم ما مثلما أتقن اللغة الإنجليزية. كان يعلم أنه لا سبيل له إلى الحياة في مثل هذا البلد من غير إتقان لغته.

حرارة أخرى اجتاحت كيانه منذ وصوله إلى هذا البلد.. حرارة للتقرب من أهلها وفهم طريقة تفكيرهم، والتعرف على نمط حياتهم، والاندماج في حضارتهم. صار في بعض الأوقات يخرج معهم لمساعدتهم في أشغالهم اليومية في المزرعة. شارك في تنظيف الإسطبل، وحرث الأرض، وغرس نباتات، وجني الثمار، وتقديم العلف للدواجن. وذهب أبعد من ذلك إلى حد طلب الإذن لحلب البقر. لم تصدق والدته أنجلينا ما قاله لها باللغة الألمانية وأكدته لها أنجلينا التي كانت حاضرة معه، فضحكت حتى الدموع.

بيد أنّ تلك الحرارة كانت تتبدد بشكل غريب في غرفة أنجلينا الكبيرة وفي سريرها الوثير الذي أخذت تخيّم عليه غيوم باردة برودة الطقس في لندن! صارت أنجلينا تصرف وقتا معتبرا في السهر رفقة أهلها أو في مشاهدة التلفزيون أو قراءة كتاب. ولم تكن تأتي إلى الغرفة إلى في ساعة النوم، ولأجل النوم.

ها هي الفتاة الفاتنة مستلقية معه بجسدها، غائبة عنه بفكرها، لا يعرف الاقتراب منها، ولا معانقتها، ولمسها! ومرة أخرى يفور فائر الوحش كازانوف القابع في ذاته، فلا يجد له مسكنا ولا دواء. لم يكن يخطر في باله أنّ اختلال التوازن الجنسي بين البشر يستطيع أن يؤدي إلى اختلال العلاقات بينهم! ألهذا الحد يستطيع أن يغيّر الجنس مزاجنا، ويهزّ حياتنا، ويؤثر فينا وفي علاقاتنا مع أحب البشر إلينا؟!

وفي ديجور الوحدة والسّامة والغم، كانت تلوح له صورة الطفل الصغير البريء، رمز علاقته بأنجلينا، فيبث في نفسه بعض الدفء والسكينة، ويمنحه بصيص أمل في غد قد يكون أفضل من هذا اليوم التعيس. ورغم خيبة الأمل المتكررة، يرفض التخلي عن الأمل. وهل ثمة معنى للحياة بغير أمل؟! وبتردد في خياله القول الإنجليزي: «الحياة بغير أمل، رحلة من غير بوصلة».

مع أنّه لم يسبق لشفيق أن شرب الكحول في حياته، إلّا أنّه كان مطلعاً على أعراض ما بعد الشرب من خلال احتكاكه بأشخاص يشربون مثل السيد ريتشارد في جزر كناري. فمتعة الشرب تليها في اليوم التالي آثار مزعجة مثل الشعور بالتعب والصداع والدوخة والغثيان واضطراب الحالة المزاجية والقلق والانفعال.

شفيق شعر بمثل هذه الأعراض وهو يحط في لندن ثانية بعد عطلته الممتعة في النمسا. وكأنّ للمتعة واللحظات السعيدة في الحياة ضريبة لا بد له من تسديدها! فاتورة أخرى تضاف إلى حساب الرحلة! فاتورة يدفعها بأحاسيسه المضطربة، وروحه المكتئبة!

غيوم الحزن والغم كانت أيضاً تخيم على وجه أنجلينا. وفي واقع الأمر كان شقاء أنجلينا مضاعفاً. فهي لم تفارق ذلك الوسط الهادئ الجميل فحسب، بل أيضاً أسرتها. شاهد الدموع تملأ عينيها في لحظة الفراق مع والديها في مطار فيينا حاولت إخفاءها عنهما وعنه أيضاً. بدأ حينئذ يشعر بالذنب. فهو من ساهم في إبعادها عن والديها، وعن تلك الطبيعة الساحرة، والأجواء الهادئة. وهي من قالت له أكثر من مرة إنها في لندن لأجله فحسب، ولولاه لما ترددت في الرجوع إلى النمسا. أنجلينا كانت من أسره ميسورة

الحال لها مزرعة وأملاك عقارية معتبرة ودخل، ولا تحتاج إلى تلك الملايم التي كانت تقبضها في لندن، وتضيع في المواصلات المكلفة والمجهدّة!

كان لابد لهما في مثل هذه الظروف من إيجاد بدائل للتخلص من هذه الآثار ونسيان الطقس المقرّف والتغلب على الروتين الممل والقاتل. فوجدوا في الخروج إلى وسط المدينة في أوقات الراحة ملاذاً. كانوا بشكل ما يحاولون الفرار من هذا الصمت الغريب والسكون الرهيب والفراغ القاتل المحيط بهما في منطقة كينت.

غريبة هي طبيعة الإنسان! رياح العواطف الكامنة في نفسه، تعصف بروحه في كل اتجاه ولا تعرف الاستقرار أو السكون أبداً إلى أن ترحل الروح وتسكن بعيداً في الأجواء سكونها الطبيعي الأبدي!

غريبة هي عواطف الإنسان! تتغير اتجاهات العواطف مثلما تتغير اتجاهات الرياح! ومع تغير هذه العواطف، تتغير مواقف الإنسان وقراراته واتجاهاته في الحياة! فها هي نظرة أنجلينا وشفيق لمدينة لندن المزدهمة تتغير! كانا من قبل ينظران إلى تلك الحياة المزدهمة السريعة على أنها جحيم فوق الأرض، ففرّا من جحيم المدينة إلى فردوس منطقة كانت الغارقة في السكون والصمت! وكم كانا يتمتعان بذلك! وها هما اليوم يفران من سكون إقليم كينت إلى صخب لندن!

هكذا هو الإنسان لا يستقر على حال.. يتغير مزاجه، وتتغير نظرته إلى الأشياء من حوله، وتتغير مواقفه، وتتغير أحكامه، وتتغير مع ذلك مفهوم

الحقيقة! وما الحقيقة إلا جملة من الأحكام قابلة للتغير. فالصواب قد يصبح باطلا، والباطل صوابا! ولا شيء مستقر في هذه الحياة! ومع كل ذلك تستمر الحياة!

في لندن، ترددا على المقاهي والمطاعم في (تشاينا تاون) والشارع العربي. ودخلا لأول مرة كازينوهات (جنتنج) في شارع (شافتسبري أفنيو) حيث كانت لهما عدة محاولات في ألعاب تحظى بشعبية كبيرة مثل لعبة الروليت. كانا يراهنان بجنيه واحد في كل مرة بينما كان المحترفون الكبار المدمنون على القمار يغامرون بأموال ضخمة تصل إلى أكثر من ألف جنيه مرة واحدة! أبلغه أحد الزبائن الصينيين أن بعض هؤلاء الزبائن من أصحاب محلات ومطاعم تشاينا تاون، لا يبالون كثيرا بما يضيع منهم في الكازينوهات.

وسط لندن لا يزخر بآماكن الطعام والشراب والقمار فحسب، بل أيضا بالمسارح ودور السينما. توجهنا نحو مسرح البؤساء الشهير، باقتراح من أنجلينا، لمشاهدة المسرحية الموسيقية الشهيرة (البؤساء). كانت دهشة شفيق كبيرة عندما أبلغته أنجلينا أنها قرأت أن هذه المسرحية تعتبر أطول مسرحية تعرض في لندن والثانية في العالم! وكيف لا والعرض لم يتوقف منذ ترجمتها إلى الإنجليزية ودخولها إلى لندن سنة ١٩٨٥!؟! وها هو مسرح ضخم وفخم يفتح في قلب لندن لعرض مسرحية واحدة، يوما بعد يوم وسنة بعد سنة، ولا تنقص أبدا الجماهير المتدفقة عليه، كالأمواج، في كل عرض، وفي كل يوم في مجتمع يقدر الفن ويعشق المسرح منذ أيام شكسبير!

كان ذلك المسرح الشهير يمتلئ على آخره في كل عرض، لكن مسرحية البؤساء لم تكن أهم حدث فني في أواخر عام ١٩٩٧ ومطلع عام ١٩٩٨.

فالحديث الذي أثار اهتمام وسائل الإعلام وتردد على ألسنة الجماهير في ذلك الوقت كان إصدار فيلم التيتانيك الضخم بميزانية خيالية بلغت مائتي مليار دولار أمريكي.

كانت لهما فرصة مشاهدة هذا الفيلم في سينما أوديون في ميدان ليستر في شهر آذار من السنة الجديدة. كان الفيلم ضخما من حيث التكاليف في البداية ومن حيث الأرباح لاحقا. وكان ضخما بسفينة التيتانيك العظيمة. وكان ضخما بأبطاله ونجومه من أمثال (دي كابريو). وكان ضخما في النهاية بتأثيره في المشاهدين. شعر شفيق بحزن عميق لتلك النهاية الدرامية، وتضاعف شجنه لما شاهد الدموع في عيني أنجلينا وهما يغادران قاعة العرض. قال لها مطلقا ابتسامة لم تخفِ صوته المتأثر:

«لست أدري لماذا نختار مشاهدة مسرحيات وأفلام درامية كهذا ونحن نعلم مسبقا أنها محزنة وستؤثر فينا! ألسنا نعاقب أنفسنا هكذا؟! حياتنا دراما، ومع ذلك نشاهد الدراما!! المرة المقبلة أنا الذي سأقترح الفيلم! وسيكون كوميديا حتما! نحتاج إلى شيء يضحكنا وليس العكس!»

ابتسمت أنجلينا والدموع تلمع في خديها وقالت:

«لكل شيء فوائد وأضرار. حتى هذا الحزن الذي نكره له فوائد! فوائد شبيهة بفوائد الضحك».

«هل هذا معقول؟!» صاح شفيق متعجبا.

«هذه حقيقة علمية». ردت أنجلينا. «هل سمعت بهرمون إندورفين؟»

«لا، أبدا!»

«الضحك والحزن، كلاهما يفرز هرمون يدعى إندورفين في الدماغ. إفراز هذا الهرمون يشعركنا بمتعة وسعادة، ويقوي روابطنا الاجتماعية»...

توقفا عن السير في وسط الميدان. نظر شفيق إلى أنجلينا. أشرفت في وجهها ابتسامة باهتة لم تستطع أن توارى الحزن الذي كان يغمر وجهها. ضمها إلى صدره برفق وعطف. أنجلينا كانت على حق فيما قالتة عن الحزن والصلات الاجتماعية، وإلا لماذا كان يشعر في تلك اللحظات بميل جارف نحوها، وبرغبة في ضمها، والبقاء بالقرب منها؟! إنه أثر الحزن الإيجابي في نفوس البشر الضعيفة!

ولم تخطئ الفتاة الغريبة المثقفة أنجلينا عندما ذكرت آثار الحزن الأخرى الإيجابية من خلال الهرمون الذي يفرزه. فمع أنه كان هو أيضا متأثرا بمأساة التيتانيك، كان يشعر بشيء من الراحة والسكينة في أعماق نفسه. فسفينة التيتانيك العملاقة هذه صرفت باله عن فراغه إلى فراغ المسافرين على متنها، وصرفته عن أحزانه إلى أحزان الجماهير المسافرة بعيدا بين الأمواج العاتية في عرض المحيط باتجاه موت شنيع في أعماق الأطلسي. ها قد أدرك الآن أنّ الإنسان يستطيع أحيانا أن ينسى متاعبه بمشاهدة متاعب الآخرين، ويستطيع أن يعثر على شيء من المتعة والسعادة الضائعة بين أحزان أشقياء الدنيا الكثيرين.

هذا الفيلم الدرامي الذي شاهده ليس في واقع الأمر إلا حلقة بسيطة في سلسلة طويلة من حلقات الحزن والبؤس المحيطة بالعالم. ومسرحية «البؤساء» وما ترويه من أحداث درامية في حقبة صعبة من تاريخ فرنسا حلقة أخرى. والحرب الأهلية التي ما فتئت تذبح أبناء شعبه وتمزق نسيج وطنه حلقة أخرى. ورحيل أميرة بلاد الغال دينا المؤلم قبل سنة في حادث مأسوي مزّق قلبه وقلوب الجماهير البريطانية، حلقة أخرى من تلك السلسلة. والنزاع الطائفي في إيرلندا الشمالية والأعمال الإرهابية التي يشنها الجيش الجمهوري الآيرلندي الحقيقي ويهدد بها لندن وكامل بريطانيا، وآخرها تفجير أوماه منتصف شهر أغسطس الذي أسفر عن مقتل ٢٩ شخصا وجرح ٢٢٠ حلقة من ذلك. وكل هذه النزاعات والحروب التي تهز أنحاء الدنيا وتحصد أرواحا بريئة حلقات من ذلك... والإنسان إذا ما تجرّد ولو للحظة من تأثير الأنا، وتأمل مآسي البشر من حوله في كل أنحاء الدنيا بغض النظر عن العرق أو اللون أو الدين أو اللغة أو أي اعتبار آخر عدا كونهم بشر من لحم ودم مثله، فإنّ ذلك سيوقظ حتما مشاعره الإنسانية، ويزرع في نفسه بذور المحبة، ويقوي روابطه الاجتماعية وبالتالي يشعره بالراحة والرضا والاطمئنان.

شفيق الذي وجد نفسه بين حربين، حرب في البيئة التي فرّ منها وحرب في البيئة التي وجد نفسه فيها، كان يدرك أنّ الطريق إلى السلام يمرّ أحيانا بساحة الحرب، وأهوال المعارك، واستعراض العضلات،

وتصفية الحسابات، وإراقة الدماء، وتخريب الممتلكات. وكان يتصور طريق السلام مقسمة إلى شطرين: نصف الطريق الأول عنف ودمار، ونصفه الثاني إصغاء وحوار. وكان يعتقد أنّ أسوأ شيء في العالم هو أن تكسب الحرب وتخسر السلام. فالسلام في كثير من الأوقات يتطلب تجاوز الأنا والغريزة والجانب الحيواني في طبيعة الإنسان، والاعتماد على العقل والحكمة، وإبداء حسن النية والاستعداد للتفاوض والتنازل والتضحية والبناء.

آمن شفيق بمبدأ الإصغاء والحوار والاستعداد لتقديم تنازلات لحل الخلافات. وآمن بذلك إلى درجة أنه سعى شخصياً لتطبيقه في حياته الخاصة، وبالضبط لحل مشكلته مع أنجلينا. كان حلمه أن يشيد حياته ومستقبله بجوار هذه الفتاة التي ركبت صهوة قبله، وفازت بحبه، وهي اليوم تحيا بجانبه وفي دمه وروحه. وإن غابت عنه قليلاً، رآها في مرآة خياله، وفي كل مكان من حوله.

لكن هذه الأحلام الجميلة التي ما برح يعيشها بخياله ستبقى مجرد أحلام، وقد تتبخر وتتلاشى يوماً تلاشي الدخان المتصاعد في السماء من فوهة إحدى مدخّنات لندن، إن لم يستفك من غفلته ولو للحظة لمواجهة الواقع، ومواجهة حبيبته في هذا الواقع، وتجسيد حلمه الجميل معها في الواقع. لم يكن فتح مثل هذا الموضوع الشائك والمخرج يسيراً على الإطلاق. كان ذلك يتطلب الجرأة والشجاعة. وكان ذلك يشبه فتح الباب والمجازفة بالخروج من مكان دافئ في أوقات العواصف

والأعاصير، والسير في مواجهة العواصف والأعاصير! لكن فتح الباب والاندفاع بشجاعة إلى الخارج والسير بإرادة تحت الأمطار الطوفانية، ومواجهة العواصف الهوجاء، والصراع لأجل الحياة في كثير من الأوقات أرحم من البقاء خلف ذلك الباب، وخلف قضبان الخوف، والاستسلام لأشباح الهواجس والعذاب، والموت البطيء في عتمة السجن الشنيعة.

انظر حتى استلقت بجانبه في الفراش بعد الاستحمام وهي ترتدي ملابس النوم الخفيفة واندست تحت الغطاء للنوم كعادتها. وعلى غير عادته هذه مرة، جذبها نحوه برفق وعانقها وقال لها في صوت هادئ حميم: «لا تتصورين مقدار الدفء الذي أشعر به وأنا أعانقك هكذا يا أنجلينا!» نظرت إليه في ضوء المصباح الخافت وقالت بشيء من البرودة: «أنا أيضا».

«لكن، لم نعد نجد الفرصة لذلك مع أننا نمضي وقتا معتبرا معا! ألم تلاحظي ذلك أنجلينا؟!»

«لست أدري.. لست أدري..». رددت في صوت غير واثق. «ربما التعب.. لست أدري بصراحة..».

«لكن هذا التعب لا يمكن أن يتكرر كل ليلة!» قال ذلك بشيء من التحدي. فردت بتحدٍّ مماثل:

«والجنس أيضا لا يمكن أن يتكرر كل ليلة! لست آله!.. لا أذكر ليلة عانقتني فيها ولم يفضي ذلك إلى الجنس!»

فرد ضاحك:

«أعترف بذلك! أعترف أنني أطلب كثيرا في الفراش!»

«أنت كازانوف! أنا مختلفة عنك!»

انفجر شفيق ضاحكا مرة أخرى:

«ربما لأنني من البحر المتوسط. سكان البحر المتوسط معروفون بحرارة

الدم!»

«لا أشك في ذلك أبدا! سبق لي أن سافرت رفقة صديقتي إلى جنوب فرنسا. الشباب كانوا يعترضون طريقنا ويلاحقوننا في كل مكان! الذين عرفتهم في بلادي مختلفون. صديقي السابق لم يكن متطلبا. كان يرغب في الجنس مرة في الأسبوع كأقصى حد... وصديقي الذي قبله كان باردا بشكل لا يصدق. أنا التي كنت أبادر في أغلب الأوقات! لم أر رجلا متطلبا مثلك في حياتي! أنا لست أعاتبك على ذلك فهذه طبيعتك. لكنني لا أقوى على تلبية رغباتك التي لا تشبع. هذا ما يحيرني. لست أدري ما العمل!»

عدم التوافق هذا كان شبيها بالتقاء التيارات الباردة والتيارات الدافئة، القادمة من المحيط الأطلسي، في أجواء الجزر البريطانية، مثلما كان يتابع في نشرة الأحوال الجوية على شاشة البي بي سي، وما يثيره ذلك من ضباب واضطراب.

لم يفتح شفيق هذا الموضوع الصعب مع حبيبته لأجل الجدل وتبادل اللوم والالتهام وإنما بحثا عن حل وسط يرضي الطرفين ويزيح هذا الضباب الخانق الذي غشى حياتهما. كان يرغب في إيجاد حل ينقذ جبهما من التعثر والانهيار. كان على كل واحد منهما التنازل والتضحية والاجتهاد لفهم الآخر وتخفيف الضغط عن الآخر وإسعاده. وبعد نقاش طويل يشبه نقاشات السياسيين حيث يسعى كل طرف لاستخدام أعلى المهارات الدبلوماسية للحصول على أكبر قدر من التنازلات والامتيازات، توصلا أخيرا إلى حل وسط يرسم حدود علاقتهما الجنسية.

انحنى عليها وطبع قبلات خفيفة على شفتيها وقال لها في صوت خافت منها اتفاقا معها:

«إذا اتفقنا؟ مرتين في الأسبوع؟ أوكي؟»

«أتصور أنّ ذلك مقبول». ردت بمجرد أن تحررت شفتيها من قبلاته.

«وفي هاتين المرتين أفعل كل ما أشتهيه؟ أنت تعلمين كم أحب التنوع..».

«ها أنت تتطلب كثيرا مرة أخرى! أنا لست لعبة حتى تفعل بي ما تشاء!

تذكر ذلك دائما!»

لم يرد عليها شفيق بكلمات وإنما بقبلة طويلة على شفتيها. ولما كانت شفتاه نسخة طبق الأصل له، تحبان التنوع مثله، نزلتا من شفتيها إلى رقبته، ثم ثدييها الممتلئين وبقية جسدها المثير، يشاركها في ذلك لسانه المتعطش لجسدها العذب..

كانت تلك الليلة الأولى في ذلك الأسبوع.. ليلة ساخنة، مثيرة، حاول
الاستمتاع بلحظاتها بقدر المستطاع. وفي نشوة المتعة والسعادة، تمنى لو
كان في وسعه إيقاف عقارب الساعة وتجميد تلك اللحظات الجميلة،
ليحيا فيها للأبد.

لطالما آمن أنّ العلاقة المنبثقة من حب طاهر قوي كالسماء الصافية التي لا تعكر صفوها سحابةً، إلى أن اندلع بركان الغريزة في داخله بكل طاقته، فتطايرت منه الحمم والحجارة، وتصادت السحب القاتمة لتغمر سماءه.

علمته التجارب أنّ الميول والغرائز من طبيعة البشر. ولن يكون من المنطق أو العدل مقاومتها وكتبها. فالرغبات الجنسية لم تخلق في الإنسان كي يصددها، ويحاربها، ويسعى لقهرها والتخلص منها. فهي كلها منه، وهو منها، لا غنى له عنها. وهل يولد الإنسان راهبا لكي يحكم على نفسه بكبح رغباته، والزهد عن شهواته؟!

فلا عجب أنه شعر بسعادة لا توصف في تلك الليلة التي توصل فيها إلى اتفاق مع أنجلينا طار به إلى أعلى قمم المتعة والسعادة.

وفي نشوة الراحة والغبطة، شعر أن آفاقا جديدة في علاقته بهذه الفتاة قد لاحت أمامه. شعر أن أنجلينا هي فتاة أحلامه، ونور عينيه، ونبض قلبه وكل شيء في حياته. وشعر أنه يحبها وسيحبها إلى آخر لحظة في عمره. وشعر فجأة برغبة جارفة في الارتماء في حضنها وضمها وكذا إبلاغها أنها فتنت قلبه بحسنها، وخلبت عقله بلسانها، وملكت روحه بذهنها.

انتظر إلى آخر الأسبوع ثم دعاها إلى مطعم (أغسطس هاريس)
الإيطالي في شارع (كاثرين ستريت) وسط لندن.

جلسا إلى مائدة في أحد أركان الصالة التي بدت في تلك الساعة هادئة
بحضور عدد قليل من الأزواج. كانت في وسط المائدة كأس بداخلها شمعة
بيضاء ناصعة مُضاءة، يخبو نورها تارة حتى يكاد ينطفئ، ويرتفع تارة أخرى
فيمتزج بأنوار المصابيح الخافتة، ويتراقص على وقع الأنغام الموسيقية
الإيطالية الهادئة، فيضفي على تلك الصالة أجواء رومانسية فريدة من نوعها.
رفع شفيق نظره عن تلك الكأس ليرسله باتجاه أنجلينا، فألفاها وقد
تلاأت عيناها مسرّة، وأومضت على شفيتها ابتسامة فاتنة خلّبت لبّه. انتابه
شعور في تلك اللحظة أنه يجالس أجمل وأرق وأعذب وأعظم فتاة في
الوجود.. فتاة تعلق بها خاطره وأحبها إلى أبعد الحدود.. فتاة هي اليوم نبض
قلبه وأنفاسه التي يحيا بها، وبالتأكيد لا يعرف طعما للحياة من غيرها.

وترددت في خياله كلمات في وصف حسنها:

«مستحيل أن يُضاهي بهاءك بهاء،

فإنّك شمسُ أفعم نُورها السّماء،

ربيعُ ملائكة الطُّيور غناء،

سحرُ لَيْسَ لَهُ دَوَاء».

تحركت شفتاه كما لو كان يريد أن يحدثها ويقول لها شيئا، بل أشياء وأشياء، لكن نوبات خوف امتلكتة فجأة، فانعقد لسانه، وشل ذهنه، وتلعثم ولم ينبس بكلمة.

أثار المشهد دهشة أنجلينا وحيرتها.

«ما بك حبيبي؟! ماذا جرى لك؟!» سألته في حيرة.

«لا.. لا.. لا شيء! لا تقلقي!»

«لا شيء؟! لا تقل لي ذلك أرجوك! هذه أول مرة أراك متوترا هكذا! كأنك تريد أن تقول شيئا لكنك متردد! ما المسألة؟! ماذا حصل؟! قل لي أرجوك!» قالت له وهي لا تفارقه بنظرها.

بدا لها مترددا مرتبكا على غير عادته منذ أن تعرفت عليه. مدت يديها نحوه وأمسكت يديه وقالت:

«لم لا تتحدث؟! ما الذي يقلقك؟»

هزّ برأسه.

«لا، لا، لا شيء أنجلينا! كنت أريد أن أقول لك..». قال ذلك وارتبك مرة أخرى وأمسك عن الحديث وهو يبدو في منتهى القلق والاضطراب.

أنجلينا لم تستسلم. راحت تشجّعه على الكلام.

«نعم! أتمم جملتك! ماذا كنت تريد أن تقول لي؟ تحدث ولا تخف!

كنت تريد أن تقول لي ماذا؟..». قالت له وهي تنظر إليه بفضول.

«كنت أريد أن أقول لك: أحبك أنجلينا، وأريد الزواج منك!»

سحبت أنجلينا يديها من على يديه على نحو مباغت وتلقائي، وتغيرت ملامح وجهها فجأة لتغمرها ظلال الصدمة والحيرة. شفيق من جهته استعاد شيئاً من الثقة في نفسه الآن وقد تخلّص من حمل عظيم أثقل كاهله، وشلّ عقله. فقال لها:

«أنا أعلم أنك لم تكوني تتوقعين هذا الكلام. أفهم ذلك، لكنني حقيقة فكرت في الأمر طويلاً قبل أن أتحدث معك! الوقت يمرّ ولا أرى لماذا نؤخر ذلك إذا كنا نؤمن بهذه العلاقة الوثيقة..».

أطرقت أنجلينا، وامتلاّت عيناها بالدموع فجأة. وسرعان ما تدفقت الدموع على خديها.

مد شفيق يديه ووضعهما على يديها وقال لها وعلامات الانشغال والخوف بادية عليه:

« ما بك أنجلينا؟! »

«لا شيء.. لا شيء.. ربما صدمة الخبر..».

«صدمة الخبر، تقولين؟! أنت تعلمين كم أحبك!»

« أعلم! المشكلة ليست فيك أنت.. المشكلة في أنا! » قالت له باكية ثم أمسكت عن الحديث فمسحت دموعها، ثم تابعت وقد علت وجهها ابتسامة باهتة حزينة:

«أنا الآن أشعر بالمسؤولية.. فالأمر يتعلق بارتباط دائم..».

«وأين المشكلة أنجلينا؟! نحن في علاقة دائمة منذ سنوات! لن يتغير شيء في الواقع، عدا وثيقة من مكتب التسجيل وأنت ستصبحين زوجتي بدلاً من صديقتي! لن يتغير أي شيء آخر. ستحتفظين بكامل حريتك بما في

ذلك حق الانفصال! أنت مع رجل متفتح يؤمن بحقوق المرأة وحريتها إلى أبعد حد! أنا يا أنجلينا تغيّرت ولم أعد أفكر مثلما كنتُ أفكر في مجتمعي! تفكيرى متفتح مثل تفكيرك تماما!» قال لها بإثارة وإلحاح.

«أفهم كل ذلك! نحن غريبان في هذا البلد ولم نحدد حتى أين نستقر ونعيش. أنت تعلم أنني هنا في لندن لأجلك ولولاك لما بقيت فيها يوما واحدا! أنا أسفة! لا أرغب في إمضاء بقية عمري في هذه المدينة المجهدة! لا أستطيع!»

«حتى أنا لا أرغب في البقاء في هذه المدينة للأبد! مع أنني منبهر بهذه الحضارة الراقية، هذا المناخ يقتلني كل يوم! لم أعد أحتمل هذه الغيوم وهذه الأمطار وهذه الأجواء الكثيبة! بالتأكيد نستطيع أن نجد حلا لكل ذلك معا! تأكدي أنني مرن وسأصغي إلى كل الاقتراحات بصدر رحب!»

«لا أشك في ذلك مطلقا! مثلما قلت لك، فالمشكلة في أنا! اعطني بعض الوقت لأفكر ثم أرد عليك!»

«خذي وقتك طبعاً أنجلينا! أعلم أنّ الأمر ليس سهلاً».

«على كل حال، سأرد عليك في مطلع السنة الجديدة بعد سفري إلى النمسا».

لم يكن شفيق في عجلة من أمره. كان مستعداً لانتظارها، والإصغاء إلى انشغالاتها، والنظر في كل مقترحاتها. وكان مستعداً لمحاولة أي شيء في سبيلها، بما في ذلك السفر معها! كان يؤمن بمبدأ التقدم ببطء وثبات. فذلك، في نظره، خير من التسرع والفشل.

«ما رأيك لو قلت لك إني سأسافر معك إلى النمسا؟!» قال لها معبراً عن رغبته في الاجتهاد لإرضائها. «أجل يا أنجلينا، سأسافر معك لقضاء عطلة نهاية السنة معك في النمسا! أريد أن أكتشف النمسا في فصل الشتاء بعدما اكتشفتها في فصل الصيف السنة الماضية وكم أعجبتني المنطقة الجميلة الهادئة! وكم أعجبنى الطقس الحار الذي ما فتئ يذكرني ببلدي!»

ابتسمت أنجلينا عند سماعها ذلك.

«كان ذلك في الصيف! تذكر ذلك!» قالت له. «لكن هذه المرة الأمر مختلف! فصل الشتاء في النمسا قار وصعب! في فصل الشتاء، يتوقف والدي عن العمل في المزرعة. نصرف أوقاتنا في البيوت ولا نخرج إلا عند الضرورة. إذا نظرت من النافذة لن ترى تلك المشاهد الخلابة! لن ترى إلا بساطاً أبيض في كل حين! لا أريدك أن تتعرض لخيبة أمل!»

«سأسافر إلى النمسا بعقل متفتح!» ردّ عليها في صوت وقور. «رغبتني في السفر إلى النمسا دليل على أنني مرن وإيجابي.. سأسافر إلى النمسا لأجلك أنجلينا! ولأجلك سأدرس كل الاحتمالات! بما في ذلك إمكانية العيش معك هناك!»

فكر شفيق في هذه الصورة التي رسمتها له أنجلينا عن بلدها في فصل الشتاء. الثلج الأبيض هذا، الذي ذكرته له، ربما أفضل من هذه السحب القاتمة الكثيفة وهذه الحلة الرمادية التي بدأت تخيم على الجزر البريطانية مع مطلع فصل الخريف.

ولون الثلج الأبيض الناصع، الذي ذكرته له، بلا ريب أرحم من هذا اللون الرمادي الذي يغلب على هذه اللوحة الزيتية الكثيرة التي لا تكاد تبرح أجواء لندن.

ولم يكن الطقس هو الوحيد الذي أتعبه نفسيا في تلك الفترة من السنة. فعمله في الترجمة الذي كان يعرف طلبا كبيرا رماه خلف قضبان روتين قاتل، وأضفى على نفسه أجواء كثيفة. في كل يوم، ومن خلال مقابلات اللجوء، يطرق سمعه أبشع قصص العنف والعذاب والموت والدمار. الحرب في الجزائر المتواصلة بغير رحمة منذ سنوات طويلة، والتي ميزتها عمليات القتل بالسلاح الأبيض والمجازر الجماعية، ما انفكت تحصد الأرواح وتشرد وتختطف ما لا يحصى من البشر، لا سيما خارج المدن الكبرى.

تطورات الأحداث في الجزائر في ذلك الوقت كانت سريعة ومفاجئة، كان آخرها إعلان الجنرال أمين زروال استقالته من رئاسة الجمهورية يوم ١١ سبتمبر ١٩٩٨.

وأيام قليلة بعد ذلك، في يوم ١٤ سبتمبر، وقع انشقاق داخل الجماعات الإسلامية المسلحة نتيجة خلافات بين قياداتها، ما أدى إلى تأسيس الجماعة السلفية للدعوة والقتال. وما برح العنف والفوضى يعصفان بجزائر المليون ونصف المليون شهيد.

لطالما سعى لوصد باب الجزائر، هذا الوطن الغارق في الحرب والفوضى، لكن هذا القفل لم يكن متينا. كسرتة أمه بكل سهولة بينما كانت

تزرور لندن. وكسره الإعلام البريطاني والعالمي الذي راعته صور المجازر
الرهيبية. وكسره كسرا متكررا اللاجئون المتدفقون على بريطانيا، وصلوا
يحملون في أنفسهم وزر ذكريات مؤلمة، وهم اليوم يرؤون أبشع قصص
العذاب والموت التي رأوها.

الأمانة من أسس الترجمة. كان يؤمن بمبدأ الأمانة هذا إيماننا راسخا.
كان ذلك يتطلب أن تبقى المعلومات داخل غرفة المقابلة. كان يترك أسماء
الأشخاص والأماكن وكل التفاصيل داخل غرفة المقابلة، ولا يحمل منها
شيئا بعد انصرافه من الشغل. ولم يكن يتقاسمها أو يتحدث عنها مع أحد.
لكنّ الأجواء الكثيبة التي كانت تخيم على تلك المقابلات كانت أقوى منه
ومن إرادته. كانت تلاحقه إلى محطة القطار، وإلى الأتوبيس، وإلى البيت
والفراش وكل مكان.

ففرصة السفر إلى النمسا هذه في أواخر شهر ديسمبر جاءت في وقت
مناسب، وكان لها أكثر من مبرر. فالفتى كان في أمس الحاجة إلى الهروب
من ظروف الطقوس المخيبة للأمل، وأجواء العمل الكثيبة والروتين القاتل
الذي ألفى نفسه فيه ولم يعد في وسعه الخلاص منه. السفر إلى النمسا
سيكون أيضا فرصة للتعرف على ظروف الحياة في فصل الشتاء في النمسا،
هذا البلد الذي من شأنه أن يصبح وطنه الجديد في يوم من الأيام.

كانت السماء ملبّدة بسحب كثيفة، تردُّ بغير انقطاع منذ الساعات الأولى للفجر من يوم الجمعة ١٨ ديسمبر عندما حلّ شقيق وأنجلينا في مطار هيثرو في طريقهما إلى النمسا. وفي حدود الساعة ١٠, ٥٠ أفلعت الطائرة وأخذت مسارها شرقا بين الغيوم الداكنة التي أضفت أجواء رمادية كثيبة على جنوب إنجلترا. وبعد أكثر من أربع ساعات في الجو، حطت طائرة الخطوط الجوية البريطانية أخيرا في مطار فينّا الدولي الذي كان مغطى بثوب أبيض من الثلوج. بدت الأرضية ناصعة البياض لامعة كالمرآة تنعكس عليها خيوط الشمس الذهبية الساطعة في سماء هذه المدينة. شعر بالارتياح والغبطة وهو يشاهد هذه الأجواء المشرقة الزاهية رغم برودة الطقس. فهذه الأجواء المشرقة، وإن كانت شديدة البرودة، فهي بالتأكيد أقل قساوة من تلك الأجواء المغيمة والممطرة التي تركها خلفه في مطار لندن.

من العاصمة فينّا سافرا على متن طائرة صغيرة تابعة للخطوط الجوية الداخلية إلى مدينة غراتس حيث كان والدا أنجلينا في انتظارهما. بدت النمسا مغطاة بالثلوج من عاصمتها إلى أقصى جنوبها. بدت الثلوج، من الأعلى، وكأنها بساط أبيض ناصع وثير يمتد على مدى البصر.

وفي الجنوب وبعد الخروج من الطريق العام، وجدت السيارة صعوبة في الصعود عبر الطريق الضيقة، ما اضطر والد أنجلينا إلى التوقف لوضع سلاسل الثلج على العجلات لحمايتها من الانزلاق نتيجة الثلوج الكثيفة. سارت السيارة بعد ذلك ببطء شديد عبر مسالك وعرة ارتاع لها شفيق الذي لم يكن متعودا على السفر في مثل هذه الظروف. واصلت السيارة زحفها رويدا رويدا إلى أن توقفت أخيرا عند مدخل المنزل.

كانت أجواء الاحتفالات بعيد الميلاد بادية في المنزل، بوجود شجرة عيد ميلاد كبيرة أحضرها والد أنجلينا من الغابة المشتركة القريبة. وكانت الشجرة الخضراء مزينة بزخرف ذهبي ونجوم لامعة تتخللها مصابيح صغيرة مختلفة الألوان، بثت في تلك الشجرة الميته حياة جديدة وأضفت عليها رونقا وجمالا.

في اليوم التالي خرج شفيق وأنجلينا للتجول قليلا خارج المنزل. بدت المزرعة وكل المنطقة غارقة في سكون غريب أثار انشغال شفيق الذي قال متعجبا: «لست أدري! هذه المزرعة اقترنت في خيالي على نحو ما بالنشاط والحياة. صورة. والدك وهو منشغل بعمله في المزرعة لم تبرح خيالي! الأمر يبدو مختلفا الآن!»

«هذا ما قلته لك في لندن. الحياة هنا في فصل الشتاء قاسية...».

«فماذا يفعل الناس هنا خلال فصل الشتاء الطويل؟»

«تقريبا لا شيء. الجميع هنا يجتهد ويتعب في فصل الصيف ولما يحين الشتاء يلزم البيت. حتى وإن رغبت في العمل، فالثلوج لا تدعك تفعل

شيئا. حتى الأبقار التي تخرج لتسرح في المزرعة والغابة في الصيف، تبقى بالداخل في فصل الشتاء حيث تقتات بالعلف الذي نجمعه لها في الصيف». قالت له ذلك وهما يقتربان من الاسطبل. كان شفيق يرغب في إلقاء نظرة على حيوانات المزرعة من باب الفضول.

«كم أحب رائحة الاسطبل! لا تضحكي مني أنجلينا أرجوك!» قال ذلك وهو ينظر إلى داخل الحظيرة من خلال نافذة الباب.

«كيف تستطيع أن تقول ذلك! كلنا يتقزز من هذه الرائحة الكريهة! ما دامت تعجبك، سأبلغ والديّ اللذين يعتنيان بالأسطبل يوميا، وسنعهده إليك بواجب تنظيف الحظيرة كل يوم!» صاحت أنجلينا ضاحكة «وعلى ذكر عملية التنظيف هذه، طبعا ثمة أعمال يومية روتينية يقوم بها والدي مثل إخراج الفضلات، والتنظيف، وتقديم العلف للحيوانات لكي تستمر الحياة. ومع أننا نصرف جل أوقاتنا في المنزل إلا أننا نخرج في بعض الأوقات للتسوق. الأسبوع الماضي، شاركت أُمي في إحدى رحلات عيد الميلاد المنظمة. انطلقت الرحلة بالحافلة من مدينة لايبنتز إلى إحدى القرى المجرية على الحدود حيث اشترت جبنا وسجقا وأشياء تقليدية. الحياة في المجر، مثل سلوفينيا، أرخص بكثير من النمسا!»

راقت فكرة الخروج للتسوق شفيقا الذي بدأ يشعر بالعزلة في هذه المنطقة المحاصرة بالثلوج الكثيفة. وكما لو أن تلك الثلوج الكثيرة لم تكن كافية، ترقب مرصاد الأحوال الجوية تساقط مزيد من الثلوج في الأيام التالية.

بعدها حدثته أنجلينا عن رحلة والدتها إلى المجر، امتلكته رغبة في القيام برحلة مماثلة رفقة أنجلينا.

«ستكون هذه الرحلة الطويلة في مثل هذه المناطق الجبلية الجميلة ممتعة بلا شك!» قال لها بشيء من الإثارة.

لكن القرى المجرية كانت بعيدة، ومثل هذه الرحلات يتطلب ترتيبا ويحتاج إلى وقت. وعكس ذلك تماما، كانت القرى السلوفينية قريبة على بعد دقائق قليلة، ولم تكن الرحلات إلى القرى السلوفينية المجاورة تخلو من المتعة. كانوا يتوقفون عند الأسواق الحرة على الحدود، وبعدها في محلات القرى للتسوق، وبعد ذلك يتوقفون عند المطاعم للاستراحة والأكل. كان شفيق يتطلع دوما إلى تجريب أطباق جديدة، استمتع ببعضها مثل الرز بالحبار والثوم المطبوخ على الطريقة السلوفينية. كان في بعض الأوقات يقترح المشاركة في دفع فاتورة الأكل ببطاقته البنكية حتى لا يثقل كاهل هذه الأسرة الكريمة، لكن السيد توماس كان دائما يمانع:

«أنت هنا في ضيافتنا.. إذا زرنا لندن في المستقبل، سندعك تدفع كل شيء...».

كان لشفيق أيضا فرصة الخروج مع أنجلينا وحدها في سيارة والدها إلى مدينة لايبنتز أيام قليلة قبل عيد الميلاد. كان ذلك للتجول والتسوق معا حيث اشترت أنجلينا لوازم أوصتها بها والدتها إضافة إلى إوزة كبيرة الحجم لم تستطع أن تحملها إلى داخل السيارة من غير مساعدة شفيق الذي كان يتطلع إلى ليلة عيد الميلاد للاستمتاع بلحمتها.

توقفا لاحقا عند مطعم (تشن يو هونغ)، المطعم الصيني الوحيد بوسط المدينة. بدا المكان فارغا في تلك الساعة ومع ذلك تأخر تقديم الأكل لأكثر من أربعين دقيقة حتى عيل صبرهما. وهما اللذان تعودا على خدمات المطاعم الصينية السريعة في لندن والتي تعكس طابع الحياة السريع في تلك المدينة المزدحمة، على عكس نمط الحياة البطيء في هذه المدينة الصغيرة الهادئة في جنوب النمسا. حتى الذوق لم يكن عند حسن ظنهما. لكن هذه الصالة الفسيحة والمريحة والخالية من الزبائن - كما لو كانت محجوزة خصيصا لهما - وهذا الديكور الصيني وصورة التنين العجيب على أحد الجدران، وهذه الموسيقى الصينية الهادئة وهذه الأجواء الرومانسية الجميلة.. كل ذلك عوضهما خيبة أملهما في نوعية الطعام والخدمة.

بعد خروجهما من المطعم، التقت أنجلينا بالمصادفة بفتاة ابتهجت للقاءها. قدمتها له على أنها إحدى صديقاتها من سنوات الدراسة، تدعى كارين. مدت كارين يدها لتصافحه وقالت له مبتسمة بإنجليزية جيدة ولكنها نمساوية: «سعيدة بلقائك..».

انشغلت بعد ذلك بالحديث مع أنجلينا ليقف هو عن بعد يختلس النظر إليها من باب الفضول. كانت الفتاة الغريبة طويلة القامة، رشيقة. كان شعرها بنيا متموجا، وعيناها خضراوين جميلتي، وكانت تبدو في سن أنجلينا.

أخبرته أنجلينا لاحقا أنّ كارين كانت متزوجة من شاب وسيم تعرفت عليه في المعهد وأحبته. لكن حبها للجنس كان أقوى من إرادتها وأقوى من حبها

لهذا الرجل. أحببت زوجها بقلبها، وأحبت آخر بغريزتها، فصارت تقابله في شقته خفية عن زوجها، فتنغمس معه في متعة بغير حدود.. متعة قوية تنسيها، ولو للحظات، زوجها وحبها لزوجها، وحياتها الزوجية الروتينية المملة. كان هذا الجنس المتوحش كالكهرباء يشحن بطايراتها سعادة وحيوية. فكانت تعود إلى زوجها مبتهجة، مستريحة الخاطر، لتستأنف بعد ذلك حياتها معه كما لو لم يحصل شيء. ولم تكن هذه الفتاة تتعب من الجنس أبداً كما لو كانت آلة. فحتى بعد ممارستها الجنس مع عشيقها السري، كانت في أوقات كثيرة تعود إلى البيت وهي ترغب في مزيد من المتعة، فكانت تنغمس في متعة أخرى مع زوجها، مفكرة في حبيبها الثاني وجسده ولمساته وسحره الجنسي الذي لم تجده مع شريك حياتها. وبينما كانت تمارس الجنس مع زوجها بجسدها، كانت تمارس الجنس مع عشيقها السري بخيالها حتى إنها في إحدى المرات ذكرت اسمه في نشوة المتعة وهي تصيح «بقوة أكثر! لا تتوقف! نعم! نعم!..». لم ينتبه زوجها إلى ذلك الاسم في نشوة اللذة!

كانت كارين امرأة لها شخصيتها الخاصة، تعيش مع رجل واحد مرتبطة به ارتباطاً أبدياً، وتنام مع اثنين.. في مكانين مختلفين، في يوم واحد في كثير من الأوقات!

أعياد الميلاد في النمسا بدت مختلفة عنها في بريطانيا. فبينما يتناول البريطانيون عشاء عيد الميلاد في يوم ٢٥ ديسمبر ويتمثل عادة في الديك الرومي محمر مع البطاطس والصلصة والتوت البري والجزر واللفت، فإن النمساويين يتناولون عشاءهم في ليلة الميلاد ويتمثل عادة في الإوز أو لحم الخنزير أو السمك.

والإوَّرة المحمرة التي طبختها السيدة إيرمغارد في ليلة عيد الميلاد كانت من أحلى وأطيب ما أكل منذ وقت طويل، مثلما أخبر أنجلينا. وكان طبق الإوَّرة في واقع الأمر من اقتراحه. قبل موعد السفر بأيام، اتصل والد أنجلينا يسألان ابنتهما عما ترغب في أكله في ليلة عيد الميلاد، لكنها فضّلت أن تستشير شفيق لأنه سيحل ضيفا على الأسرة، فاخترت الإوَّرة من غير تردد، وكانت في النهاية عند حسن ظنه، بل فاق ذوقها كل تصوراته!

في صباح اليوم التالي، يوم عيد الميلاد، استيقظت أنجلينا مبكرا على غير العادة وغيرت ملابسها وراحت تحضّر نفسها كما لو كانت تستعد للخروج. «ما الأمر أنجلينا؟ لماذا تستيقظين في هذا الوقت المبكر في يوم عطلة؟!» سألتها شفيق في صوت نعلان وهو يفرك عينيه بيديه.

«أنا آسفة! نسيت أن أخبرك أننا سنذهب اليوم إلى الكنيسة! لكني لست مرتاحة. لا تطاوعني نفسي على تركك وحدك في المنزل»
«لا عليك! تفضلي»

«ونتركك وحدك في البيت؟!»

«ولم لا، لست طفلا صغيرا»

«أقصد ألا تشعر بالملل وحدك؟!»

«قليلا ربما...». قال متثابرا. «أنا في غالب الأوقات وحدي في هذا المنزل لأنك غالبا رفقة أسرّتك.. لكن عادي! سأشغل نفسي بشيء.. ربما أتعلّم الألمانية قليلا! أو حتى أشاهد التلفزيون. تعجبني أفلام عيد الميلاد...».

بعد نحو نصف ساعة من ذلك، التحقت أنجلينا بوالديها اللذين كانا في السيارة خارج المنزل. كانت السيارة تستعد للانطلاق عندما شاهد والدها شفيق في مرآة الرؤية الخلفية وهو يركض نحوهم.

للوهلة الأولى، اعتقد جميعهم أنه نسي شيئاً ما أو ربما أراد أن يستفسر عن شيء ما قبل مغادرتهم، لكنه فاجأهم جميعاً عندما توقف بجانب السيارة وصاح لاهثاً باتجاه أنجلينا:

«سأتي معكم!»

«ماذا؟! إلى الكنيسة؟!» صاحت أنجلينا في دهشة وكأنها لا تصدق ما تسمع. «نحن ذاهبون إلى الكنيسة للصلاة! أتدرك ذلك؟!»

«أعلم ذلك! لا أرى مشكلة في ذلك. أنتم تذهبون للصلاة، وأنا أرافقكم للاكتشاف والاستطلاع! أنسيّت أنني سائح؟!»

تلفّظ شفيق بكلمة «سائح» من باب المزاح، لكن ما إن وقف أمام مبنى الكنيسة الشاهق حتى شعر بذلك حقيقة. انتابته فجأة رغبة جارفة في الاكتشاف واكتساب المعرفة مثلما يفعل السياح تماماً. أنجلينا التي لمحت الدهشة في عينيه، حاولت إفادته ببعض المعلومات عن هذه الكنيسة المعروفة في المدينة وخارجها وهي مكان العبادة الوحيد الذي يتردد عليه والداها في مثل هذه المناسبات منذ أن كانت صغيرة. قالت له اسم الكنيسة باللغة الألمانية ولم تحسن ترجمة ذلك إلى الإنجليزية حيث ترددت وتعثرت وغيرت ترجمتها غير مرة. لكن قاموس الجيب الألماني - إنجليزي الذي لم

يعد يفارقه منحه المقابل الصحيح وهو (كنيسة قلب يسوع الأقدس) والذي لم يعن له الكثير. أنجلينا أبلغته أنه تم تشييد الكنيسة في أواخر القرن التاسع عشر، وأنّ برجها يعد ثالث أعلى برج كنيسة في النمسا.

كانت هذه الكنيسة حقاً تحفة أثرية فاخرة في قلب مدينة غراتس. كانت هذه أول مرة تطلّ فيها قدمه كنيسة. لم يصدق عينيه وهو يشاهد القاعة الفسيحة التي كانت تحتوي على كراسي خشبية مزخرفة توفر الراحة للمؤمنين في هذا الفضاء الذي بدا منظماً هادئاً مريحاً. الجدران العالية كان بها طلاء فاتح اللون تتخلله خيوط ذهبية وفضية أضفت عليها لمعاناً ونوراً. وكان بالجدران نوافذ طويلة عالية مزخرفة بها زجاج ملون لامع يجذب الأنظار.

في يوم الميلاد، بعد مغادرة كنيسة قلب يسوع الأقدس، كانت أنجلينا ما تزال تحت تأثير الدهشة من قراره مصاحبته إلى غراتس ودخوله الكنيسة رغم اختلاف المعتقد. قالت له آنذاك ضاحكة وهي تهزّ رأسها يمينا وشمالا متعجّبة وهما يغادران مبنى الكنيسة باتجاه موقف السيارة:

«أنا آسفة! لكني ما زلت لم أصدق أنك أتيت معنا إلى الكنيسة!»

«ولا أنا!» رد ضاحكا. «لكن لا تنسي يا أنجلينا أنني أحب السلوك الطبيعي والعفوي وأكره الروتين.. تذكرني ما قلته لك يوما:

«BE SPONTANEOUS,

NEVER BE AFRAID TO TRY NEW THINGS

OR FIND NEW WAYS.

DON'T LET OVERPLANNING AND ROUTINE POISON

YOUR LIFE».

(كن عفويا، لا تخشى أبدا تجريب أشياء جديدة، وإيجاد سبل جديدة.

ولا تدع الإسراف في التخطيط والنظام الروتيني يسممان حياتك.)»

«لكن، قل لي بصراحة! كيف كان إحساسك وأنت في الكنيسة؟!» سألتها
بفضول. «بلا شك شعرت بالملل وانتظرت بفاغ الصبر نهاية الصلاة!»
«بالعكس يا أنجلينا فقد وجدت كل شيء من حولي مثيرا للانتباه
والفضول! أذهلني الفن العمراني والألوان والأنوار والقاعة الفسيحة
وكل شيء!»

وأكثر من ذلك، أذهلني النظام واحترام الآخر! لا أحد هنا يهتم بالآخر
أو يحاول أن يتدخل في شؤونه أو أن يقدم له محاضرة في الدين والأخلاق
والأدب! لم يسألني أحد لماذا أنا واقف لا أصلي مثل الآخرين! أذهلني أيضا
حضور الأسر واجتماعها في مكان واحد معا، والصلاة معا، والخروج معا!
فلا أرى والدا يبحث عن ابنته خارج الكنيسة، ولا ابنا ينتظر والدته، ولا زوجا
يفتش عن زوجته خارج أبواب المبنى لأنهم تفرقوا لأداء الصلاة! لا جدران
بين الرجال والنساء! ولا فرق بين الذكر والأنثى إلا بالقوى!

أذهلني أيضا لباسهم يا أنجلينا! رأيت فيهم وفي لباسهم وفي مكان
عبادتهم أسمى معاني الجمال! جميعهم يرتدي أفضل ما عنده من موضة
عصره، ولا أحد يقلد غيره في لبعه!

ما أذهلني أيضا يا أنجلينا الهدوء والسلام في هذا المكان! رأيت فيهم
وفي سلوكهم أسمى معاني المحبة والإنسانية! لا أحد يصرخ، ولا أحد
يشتم، ولا أحد يتوعد أحدا، ولا أحد يأمر أحدا بمعادة أحد، ولا أحد
يحرّض أحدا، ولا أحد ينشر الكراهية أو التفرقة بين خلق الله!!..».

كانت هذه الزيارة قصيرة، لكنّ شفيق تعلّم منها الكثير عن هذه الديانة التي لم يكن يعرف عنها شيئاً يذكر، ببساطة لأن الديانات الأخرى لم تكن تدرس في مجتمعه الذي لا مكان فيه لأديان أخرى. فالمادة الدينية الوحيدة المتوفرة، والتي كان مطالباً بدراستها، التربية الإسلامية التي كانت تلزمه بالحفظ، فكان في كثير من الأوقات يحفظ وهو لم يفهم. وكانت تنتابه أسئلة أثناء الحفظ، لم يكن في وسعه طرحها خوفاً من سخرية زملاء وعقاب المدرّس. لم يكن بمقدوره التعبير عن خيبة أمله في ذلك النظام بلسانه، فعبر عنه بقلمه، محتفظاً به لنفسه:

«The greatest mistake we make in the East is
teaching our children to memorize things without
even understanding,

Instead of teaching them problem solving and critical thinking».

(إنّ أكبر خطأ نرتكبه في الشرق هو أننا نعلّم أطفالنا حفظ الأشياء دون فهم. بدلاً من تعليمهم حلّ المسائل والتفكير النقدي)

تجربة كنيسة مدينة غراتس علّمته أيضاً أنّ أوقات الصلاة ليست محددة بأزمة معينة. فالمؤمن يستطيع أن يصلي في أي وقت يشاء لأن الإله حاضر

في كل وقت وليس في أوقات محددة. وتعلم أن الصلاة تؤدي في كل الاتجاهات لأنها لقاء مع الإله، وهذا اللقاء لا يقيد بمكان أو جهة. وهذه الصلاة لا تخضع لشروط مثل الوضوء والركوع والسجود، لأن الإله لا ينظر إلى الإشارات والأعمال الروتينية. ولا تُحسب بعدد الركعات لأن الإله لا ينظر إلى الظاهر والمظاهر والكم، وإنما إلى الباطن والروح والنوايا الطاهرة الحسنة.

في ذلك اليوم، خرج شفيق من دفء الكنيسة إلى الطقس البارد المخيم على أجواء المدينة. لم يجد بدا من التفكير في هذا الطقس القاسي في رحلة العودة بينما كانت السيارة تشق طريقها عبر الطريق السريع حيث غفلت عنه أنجلينا مجدداً لتتشتغل بالحديث مع والديها كما لو لم يكن موجودا.

كانت تتراءى له برودة فصل الشتاء في تلك الثلوج الكثيفة المتراكمة على الأرض وشفاف البحيرات وأغصان الأشجار والمنازل وكل الدنيا من حوله. يضاف إلى كل ذلك برودة هذه الفتاة الجالسة بجانبه بجسدها، والغائبة عنه بفكرها. لم تكن هذه أول مرة يلمح فيها برودة هذه الفتاة. صار يشعر بذلك في تقريبا كل الرحلات بداية من رحلة مطار غراتس بعد وصولهما إلى النمسا. وكان يشعر بذلك في منزل والديها حيث كانت تتركه وتنصرف إلى أهلها ولا تكلف نفسها حتى السؤال عنه أو التأكد أنه لا يحتاج شيئا وهو ضيف وغريب في هذا البيت.

صار محكوما عليه بامضاء ساعات طويلة من وقته في سجون الوحدة والضجر تائها في فيافي التفكير والحيرة. لم يكن يؤنسه في وحدته ويواسيه

في غربته إلا ملاك، رمز الحب الذي يجمعه بهذه الفتاة. ملاك كان يتبعهما في كل مكان، مثل الطفل الصغير الذي لا يحتمل فراق والديه. كان يفرح لفرحهما، ويحزن لحزنهما، ويبكي لبكائهما. وفي هذه الساعات الصعبة، هاهي ظلال الحيرة والنعاسة والألم تنعكس على وجهه الصغير الوسيم. في هذه الساعات الطويلة المرة، شعر شفيق كما لو أنه وقع تحت انهيار ثلجي لا يعرف الخروج منه.

لم يعد في وسعه إخفاء مشاعر الاستياء عن هذه الفتاة بعد احتفالات عيد الميلاد. لقد قطع كل هذه المسافة في سبيلها، ولأجل التعبير عن رغبته في التضحية لأجلها، ولأجل الاجتهاد للتأقلم مع الحياة في بلدها، وربما العيش معها في هذه الديار البعيدة. لكن، كيف يرضى بالعيش معها في بلد كهذا لم يعد يرى فيه غير الثلج والبرد؟! بلد امتزجت فيه برودة الطقس ببرودة مشاعرها، وقساوة الحياة بقساوة قلبها! وهل ثمة شعور بالوحدة أقسى من شعور المرء بالوحدة رفقة الأحبة؟!

أنجلينا انتبعت إلى استيائه لكنها لم تنبس. صمتٌ غريب ومؤلم خيم على حياتهما لأيام، قطعه شفيق ذات صباح عندما أمسك أنجلينا من ذراعها وهي تمر بالقرب منه في غرفة النوم في صمتها المعتاد:

«أنجلينا! لا أفهم ما يحدث؟ لا بد أن نتحدث!»

«نتحدث عن ماذا؟» سألت وهي تشيح بوجهها عنه.

«أنت غائبة عني كلية! لم أعد أستطيع الجلوس معك، أو التحدث معك، أو المرح!... ما الذي يحدث بالضبط؟! اليوم يمر علي وكأنه سنة! لم آت إلى هنا لأسجن! نحتاج إلى الجلوس والحديث!»

«ليس الآن، والذي في انتظاري الآن». قالت وهي تتأهب للانصراف.

«إذا متى نتحدث؟! متى؟!» صاح في حيرة وقلق.

نظرت إليه أنجلينا وهي تبدو مضطربة مترددة وكأنها لا تدري ما تقول ثم قالت بصوت خافت:

«خلاص، الليلة! الليلة نخرج ونتحدث!»...

بعد العشاء خرج معها في سيارة والدها. كان البرد شديدا للغاية في تلك الليلة وكانت مصالح الرصد الجوي في القناة النمساوية الثانية (أو أف ٢) قد أذرت باجتياح موجة برد غير عادية جنوب النمسا تلك الليلة. لكن عكس الأجواء المعجدة خارج السيارة، كان الهواء الساخن المنبعث من منافذ الهواء يضيء على المكان دفئا جميلا، يمتزج به دفء أنعام أغنية Cherish (اعتزّ) للفرقة الأمريكية (كول أند ذا غانغ) من إحدى المحطات الإذاعية المحلية، تذيع موسيقى محلية وأخرى إنجليزية.

تتعالى كلمات Cherish:

«دعنا نتمشى معا

بالقرب من شاطئ المحيط،

يدك في يدي أنت وأنا،

دعنا نعتزّ بكل لحظة مُنحنا،

فالوقت يمرّ..».

ويمرّ الوقت أيضا في السيارة وأنجلينا لم تنبس بكلمة وهو لا يدري أين يذهب.
«إلى أين نذهب أنجلينا؟» سألتها بينما أخذت السيارة تشق طريقها ببطء
وسط الثلوج المتراكمة على الطريق الغارق في الظلام الدامس، المنحدر
باتجاه الطريق السريع.

«لا تقلق، سأخذك إلى المدينة! وإلى أجمل مكان في المدينة لأعوضك
عن الوحدة التي رميته فيها! ردت بمرارة. «ألست ترغب في الخروج من
الملل الذي تشعر به؟!»

«أنا أسف أنجلينا، لم أقصد إزعاجك! لكني لم أجد بدا من الشعور
بوحدة في غيابك! كان لابد أن نتحدث!»

«أنت لا تحب إلا نفسك! أنا أصرف سنوات من عمري معك بعيدة عن
أهلي، وعندما أزورهم مرة في السنة لا تحاول أن تفهم وتقدر!» صاحت
والدموع تنهمر على خديها. «أنت إنسان تحب التملك! تريدني أن أكون
معك على مدار الساعة!»

والتفت نحوه وصاحت والعبرات تخنق صوتها:

«مثل الطفل الصغير الذي يبحث عن اهتمام أمه!»

حاول شفيق أن يهدئ من روعها.

«أنا أحبك أنجلينا، وفي تصوري، يمكننا دائما التوفيق بين الأسرة
والحبيب. وددت لو أنفقت قليلا من وقتك رفقتي..».

«أنت لا تكتفي أبدا بالقليل!» قالت بضجر. كل ما تريده هو كثير من
الاهتمام والجنس.. وفي كل الأوقات! لا تهملك أبدا مشاعري!»

تملكه شعور بالأسى وهو يسمع تلك الكلمات اللاذعة.. كلمات جارحة
نزلت عليه كأنها سهام قاتلة مزقت فؤاده. شعر بضعف ودمار وهو يشاهد
بريق الدموع الحزينة المتدفقة على خديها في عتمة السيارة. مديده ووضعها
على كتفها وقال في صوت خافت حزين:

«أنا آسف أنجلينا! لم أكن أقصد إزعاجك! لا تحزني أرجوك!»

كان شفيق في بداية الأمر متحمسا لفتح هذا الموضوع مع أنجلينا. وما إن
فتحه حتى سارع إلى إنهائه حتى لا يسبب مزيدا من الازعاج والحزن لحبيبته،
والضرر والدمار لعلاقته. فقد علمته الحياة أن الانفعال فيروس قاتل يستطيع
أن يفتك بالإنسان وبأي علاقة في الدنيا مهما كانت قوتها، ومع خطورته،
يوجد لحسن الحظ مضاد فعال لعلاجها والقضاء عليه: حقنة الصمت.

صمت حزين خيم على الأجواء في تلك الرحلة الطويلة إلى مدينة
غراتس، لا يضاهيه كآبة وقساوة إلا ذلك السكون الرهيب المحيط بالطريق
التي بدت خالية في تلك الليلة الحالكة الباردة.

وفي تلك المدينة، دخلا أول ملهى ليلي يصلان إليه في وسط المدينة كما
لو كانا يبحثان عن شيء ما مسلي يلهيهما عن التفكير في مشاكلهما، ويرفع
معنوياتهما. وبالتأكيد كانا يبحثان عن شيء فيه إثارة وحيوية يخرجهما من
ذلك السكون الحزين الذي أحاط بهما أثناء الرحلة وقبلها.

كان هذا الملهى أفضل مكان لذلك، فقد استقبلهما بالأضواء الملونة
الراقصة والموسيقى الصاخبة. لم يعد بمقدوره الانتظار مع انطلاق أغنية

What is Love المثيرة للموسيقار هادأواي، فسحب أنجلينا من ذراعها وقادتها إلى أرضية الرقص التي بدت ممتلئة بالراقصين. وتعالى حولهما الأنغام الصاخبة والكلمات المعبرة:

What is Love

«ما هو الحب؟»

حبيبي لا تجرحني..

لا تجرحني ثانية..

لست أدري لماذا لست عادلاً..

أمنحك حبي، ولكنك لا تهتم..

إذا، ما هو الصواب وما هو الخطأ؟..».

ومثل كلمات هذه الأغنية تماماً، لطالما تساءل شفيق عن الصواب والخطأ في علاقته بهذه الفتاة الفاتنة، وكان في كل مرة يسارع إلى صرف اهتمامه عن الموضوع أو ربما إيهاً نفسه أنه قد وقع في حب ملاك والملاك لا يعرف الخطأ ولا يقرن إلا بالصواب والثواب واليمن. وكان ينزع دوماً إلى فعل ذلك خوفاً على علاقته التي أصبحت جزءاً من حياته.

أرسل نظره إلى هذا الملاك أمامه. وما إن التقت عيناه بعينيها حتى أشرقت ابتسامة واهنة على شفثيها تحت الأضواء الملونة، لم تستطع أن تحجب عن وجهها ملامح تعب من البكاء ممزوج بالتعاسة والخوف.

امتلكه إحساس مفاجئ بالراحة والسرور عندما أدرك أنه استطاع أن يتمالك نفسه في تلك اللحظات الصعبة، فاستطاع بذلك أن يحمي علاقته بهذه الفتاة، مع أن مشاكله معها تبقى عالقة. لقد أدرك الآن أن الانتصار لا يعني بالضرورة قدرة المرء على كسب معارك وحروب وغنائم وممتلكات. فمجرد التمكن من الاحتفاظ بما بين يديه يعدُّ أحياناً من أكبر الإنجازات والانتصارات.

وأدرك أيضاً أن الإنسان الذي تعبت به عواطفه وأفكاره، يحتاج أحياناً إلى ترك كل المشاغل والمشاكل والهموم، جانباً، والاستمتاع بالحاضر وما في الحاضر من أشياء جميلة ممتعة، والنظر إلى الجانب المشرق بدلاً من الجانب المظلم للحياة. فالإنسان يهدر أوقاتاً طويلة من عمره في التفكير السلبي والحيرة والخوف، وقد لا يعي ذلك! وتلوح في وجدانه كلمات بالإنجليزية التي صارت اليوم لغة تفكيره وأحلامه وشيئاً من ذاته ووجوده:

For every minute you spend worrying about things in life,

You lose a precious minute of your life.

(لكل دقيقة تصرفها قلقاً على أشياء في الحياة،

فإنك تفقد دقيقة ثمينة من حياتك)

في عالم غربي يتسم بالحياة السريعة، والإقبال المتزايد على الأطعمة المصنعة، والأمراض الناتجة عن الإسراف في الأكل والشراب؛ وفي أسرة تعاني من مرض السكري، لطالما آمن شفيق بأهمية تناول غذاء صحي، واتباع نظام غذائي متوازن، وممارسة الرياضة للحفاظ على الصحة. كان ذلك شعاره وحلمه إلى أن سافر إلى النمسا هذه المرة حيث تبخر حلمه وضاع أمله في مهب الرياح الثلجية. الثلوج المحيطة بالطبيعة لم تعد تسمح له بالخروج وممارسة الرياضة كما كان يفعل بانتظام في انجلترا وكما فعل في النمسا نفسها في عطلة فصل الصيف. وما تبع هذه الثلوج من شعور بالعزلة والملل جعله يقبل على الأكل بشراهة، غير مكترث بشيء. كان في البداية، كلما أثب ضميره، حاول إقناع نفسه، أو بالأحرى مخادعة نفسه، أنه الآن في عطلة والعطلة تعني العطلة والاستراحة والهروب ليس فقط من روتين الشغل والتنقل والحياة اليومية بل أيضا من روتين نظام الأكل وروتين الرياضة وكل ما تعود على فعله لأجل الحياة. ومع مرور الوقت، وبزيادة شعوره بانشغال أنجلينا عنه وإحساسه بالوحدة، صار موضوع العناية بصحته آخر ما يفكر فيه. صار اليوم يردد:

Time is precious,
Don't waste it worrying about the future,
Just focus your mind on the present,
And enjoy every moment!

(الوقت ثمين. فلا تهدره في القلق على المستقبل. ركّز ذهنك على
الحاضر. واستمتع بكل لحظة)

لقد اقتنع مرة أخرى أنّ الحاضر هو الزمن الحقيقي الوحيد الجدير
بالاهتمام. أما الماضي فهو مجرد خيال ووهم، فالماضي لم يعد موجودا.
والمستقبل لم يوجد بعد، وقد لا يوجد أبدا. ولا يوجد المستقبل في
الواقع إلّا من خلال مخططاتنا وفي طموحاتنا وأحلامنا وتصوراتنا. وهو
بذلك ربما يشبه البذرة التي نغرسها ونسقيها بأيدينا في حاضرنّا، ونتطلع
إلى خروجها من التربة ونموها وإخراج ثمارها لقطفها. لكن هذه البذرة
قد لا تحيا أبعد من هذه اللحظات التي هي فيها بين أيدينا، وقد لا تخرج
أبدا من التربة. المستقبل بذلك يبقى بعيدا عنا، وفوق إرادتنا، وخارج إطار
زماننا، زمن الحاضر. فالحاضر الذي يراه الإنسان ويعيشه أولى باهتمامه من
الماضي المنتهي، أو المستقبل الذي قد لا يأتي.

صارت كيكة بذور الخشخاش، التي كانت السيدة إيرمغارد تبدع في
صنعها، أكلته المفضلة إضافة إلى زبدة البقر والمربي والبيض المقلي.

كان هذا التغير في نظامه الغذائي مفاجأة كبيرة لأنجلينا التي سمعته أكثر من مرة يردد عزمه على احترام نظام غذائي صحي صارم، وها هو اليوم يحيد عنه كلية! لكن المفاجأة الأكبر لأنجلينا وشقيقها ووالديها كانت بالتأكيد يوم ٣٠ ديسمبر عندما رجعوا إلى البيت بعدما خرجوا دون أخذه معهم للتسوق لأجل احتفالات ليلة رأس السنة ودخول العام الجديد ١٩٩٩. كانوا مجتمعين في الصالون عندما نزل السلم ودخل عليهم يترنح مسندا نفسه على الباب ثم على المائدة مرددا بصوت مضحك غير مفهوم إحدى الأغنيات الإنجليزية.

لم يصدّق ذلك أحد. حتى شقيق نفسه لم يصدق أنه فعل ذلك. فأناء التحضير لاحتفالات حلول السنة الجديدة يوم ٣١ ديسمبر، قال لأنجلينا ضاحكا وهما يرتبان زجاجات نبيذ وكؤوسا على المائدة:

«عندما شاهدت هذه الزجاجات، شعرت فجأة برغبة في فتح واحدة وتذوقها مرة واحدة في الحياة. وبمجرد أن تذوقتها لم أستطع أن أتوقف!»
أنجلينا المتعجبة من أمره، سألته باسمه والفضول يغمر عينيها:

«لكن كيف استطعت؟! لا زلت لا أصدق أنك فعلت ذلك؟! هل وجدت الخمر كما كنت تتصوّره من قبل؟!»

«لابد أن أقول إنني في تلك اللحظة لم أفكر في شيء وإلا لما تمكنت». قال لها وهو يلمّع أحد الكؤوس. «وبعدما تذوقت، لم أستطع المقاومة! المشكلة أنني كلما شربت، شعرت بمزيد من المتعة حتى أنني لم أعرف التوقف!»

«وهذا بالضبط ما يجعل بعض الأشخاص يقع في فخ الإدمان...». قالت أنجلينا موافقة. «لكن ردود أفعال الناس تختلف عندما يشربون. بعضهم يبدي سلوكا عدوانيا. أما أنت فكانت تبدو لطيفا!»

«لا أذكر الكثير! لكن، لست أدري لماذا، عندما بدأت أشعر بلذة الشرب وأنا لا زلت واعيا إلى حد ما، ترددت في ذهني فجأة كلمات أغنية «تخيّل» ل جون لينون. شعرت فجأة برغبة جامحة في سماع نغماتها، وترديد كلماتها حتى أنني في وقت من الأوقات، أذكر أنني رفعت صوتي مرددا معها: «تخيّل أنّ كل البشر يعيشون لأجل اليوم...»!.. أجل يا أنجلينا، لم أكن آنذاك أفكر إلّا في شيء واحد وهو اليوم، وهو ذلك اليوم الذي كنت أحيّا فيه منفصل عن كل الأيام الماضية والأيام القادمة! ولم أكن أفكر إلّا في زمن واحد وهو الحاضر، وهو ذلك الزمن الذي كنت أحيّا فيه، مستقل عن كل الأزمنة! وإني سأكذب عليك إن قلت إنني فكرت في شيء آخر عدا ذلك!»

عاد شفيق إلى لندن وهو لا يفكر في شيء آخر عدا هذا الحاضر الذي يعيشه محاولا الاستفادة منه إلى أقصى حد. فالعمر قصير، وهذه اللحظات التي نعيشها ثمينة، وإن أفلتت من أيدينا وتلاشت، لن تعود. شفيق لم يكتف بفصل الحاضر عن الماضي والمستقبل، بل ذهب في تفكيره الجنوني إلى حد محاولة عزل المكان الذي يحيا فيه عن بقية العالم وتركيز اهتمامه على ذلك المكان، محاولا إقناع نفسه أنّ الانشغال بالتفكير في أماكن أخرى بعيدة متفرقة قد يصرفه عن التفكير في هذه البيئة التي يحيا فيها وما فيها من مزايا، وقد يشتت فكره، فلا يستمتع في النهاية بأي مكان! قد يحيا الإنسان

في بيئة جميلة، ومع ذلك قد لا ينتبه إلى العناصر الجميلة والتفاصيل الدقيقة المحيطة به، لأن ذهنه المشتت، المرتبط بأماكن أخرى في العالم، يرحل إليها، ويغيب فيها، ولا يعرف التحرر منها!

لكن سعيه لحصر تفكيره في البيئة التي يحيا فيها لم يكن موفقا، فمتابعته الأخبار على القنوات البريطانية والألمانية كانت ترغمه أحيانا على الخروج من هذا «المكان» الذي يحيا فيه والرحيل إلى وطنه. فها هي قناة التلفزيون الألمانية (أي آر دي) تبث خبر التحضير لانتخابات رئاسية جديدة في الجزائر بعد استقالة أمين زروال المفاجئة في سبتمبر العام الماضي. وها هي البي بي سي البريطانية تعلن فيما بعد فوز المجاهد المعروف عبد العزيز بوتفليقة بكرسي الرئاسة في يوم ١٥ أبريل ١٩٩٩ بعد انسحاب منافسيه من السباق. لاح نجم الرئيس الجديد في الأفق، ولاح معه بريق أمل في إخراج الجزائر من غياهب عشرية سوداء ميّزها العنف والإبادة الجماعية والرعب والدمار.. بواذر السلام هذه تجسدت بموافقة الجيش الإسلامي للإنقاذ الاستسلام في ٥ يونيو وإعلان استفتاء الوفاق الوطني.. تأثير خبر بداية نهاية الحرب الأهلية الجزائرية بدا أشد مما كان يتصور شفيق الذي لم يستطع أن يحبس دموعه وهو أخيرا يشاهد الجماهير تستقبل رئيسها الجديد، الذي أتى لإنقاذها، بالورود والأهازيج والزغاريد والأفراح. ولأول مرة، منذ رحيله عن بلاده، يشاهد الأفراح ترسم على وجوه مواطنيه الذين أنهكتهم الحرب، مع أنه في أعماق نفسه لم يكن مطمئنا. كان يشعر أن الحساسية العرقية والجهوية في هذا البلد الواحد والموحد تستطيع أن تهدد أمنه واستقراره.

وتوالت عليه الأفراح في هذا العام الجديد بمفاجأة سارة من أنجلينا التي أبلغته أخيراً، وبعد تفكير طويل، بمرافقتها الزواج منه. قرار أنجلينا أفعمه مسرة وإثارة. لكن هذا القرار كان يعني أيضاً إزاحته من هذا «الحاضر» الذي حاول أن يتخندق فيه! كان عليه الآن أن يتشاور مع شريكة حياته في الأمر، ويتفق معها على التفاصيل، ويضع معها كل الترتيبات. كان أولها تحديد موعد حفل الزواج بحضور أهلها من النمسا وشقيقته من فرنسا، فوقع اختيارهما أخيراً على يوم الأحد ٢٢ أغسطس.

بعد نحو أسبوعين من ذلك، عاد شقيق إلى البيت والفرح يغمر وجهه. كانت حبيبته جالسة في الصالون تقرأ على أنغام موسيقى كلاسيكية متعالية من محطة (كلاسيك أف أم). هرع إليها وصاح بإثارة:

«لدي مفاجأة سارة لك أنجلينا!»

«ماذا؟»

«حجزت تذكار شهر العسل!»

«ماذا! لم نتحدث بعد في هذا الموضوع!»

«كنت أرغب في مفاجأتك!»

«وأين سنذهب يا ترى؟!»

«بعيداً!» ردّ بإثارة ثم أخرج وصلاً من شركة (توماس كوك السياحية)

ليتابع: «سنذهب إلى بانكوك!»

«واو! بانكوك!» صاحت أنجلينا وعيناها تسطعان فرحا. «لم أكن أتصور ذلك! تايلاند! عظيم! لكن ذلك سيكون مكلفا بالتأكيد!»

«لا تهتمي بذلك الآن أرجوك! أنا الذي أتكفل بكل المصاريف! هذه هديتي لك! إنها فرصة واحدة في العمر يا حبيبتى!»

«شكرا جزيلا حبيبي! واو، واو، واو!» قالت وهي تكاد تطير فرحا.

«حقيقة، لا أصدق أننا سنسافر إلى بانكوك!»

«أنت لن تسافري إلى بانكوك فحسب! سنقضي أربعة أيام في بانكوك، بعدها سنسافر إلى بوكي، الوجهة السياحية الشهيرة في تايلاند!»

«ماذا؟! هل أنت جاد؟! صاحت والدهشة تغمر عينيها.

«أجل، حبيبتى! بعدها سنسافر إلى بالي باندونيسيا، ثم نطير إلى جزيرة هونغ كونغ، وننهي شهر العسل في جزيرة فيجي البعيدة!»

«يا إلهي!! لا أصدق! كل هذا! هذا كثير!»

«تستحقين أكثر من هذا أنجلينا! أريدها أن تكون أجمل هدية لك! وأريدها أن تكون أمتع لحظات حياتنا!»

وقفت أنجلينا مذهولة أمامه، عاجزة عن الكلام، لا تدري إن كانت في حلم أم في واقع.

بالنسبة لشقيق الشرخ بين الحاضر والمستقبل لا جدال فيه. فالحاضر الذي يعيشه هو الواقع، أما المستقبل فيبقى حلما لا محالة إلى أن يتجسد أمامه في الواقع. لكنه كان يشعر بإصرار شديد على الاجتهاد لتحقيق هذا الحلم.

بعد أيام قليلة، عاد إلى وكالة سفر توماس كوك في وسط لندن حيث دفع عربونا قدره ١٢٠٠ جنيه استرليني. وبدأ شيئاً فشيئاً يتصل بالأصدقاء وزملاء العمل لإبلاغهم بموعد حفل الزواج. أنجلينا من جهتها اختارت الانتظار، فلم تبلغ أحداً مع أنها كانت في تواصل منتظم مع أهلها بالهاتف، تقريباً مرة في الأسبوع، لا سيما مع والدتها التي كانت تربطها بها صلة وثيقة.

بعدما حجز شفيق رحلة شهر العسل مباشرة، قامت أنجلينا بحجز تذكرة سفر إلى النمسا في شهر أبريل لقضاء عطلة عيد الفصح رفقة أهلها. كانت تنوي استغلال هذه الفرصة لإبلاغهم بالخبر.

على عكس المرات السابقة، لم يشعر شفيق هذه المرة بعزلة كبيرة بعد سفر أنجلينا في الفاتح من شهر أبريل، مثلما كان يفعل في المرات الماضية. انشغل بعمله في الترجمة في النهار، وبإعداد العدة للزواج في أيام عطلة عيد الفصح، فقام بدهن الجدران وتغيير الفرش وترتيب الأثاث، فأضفى على المنزل أناقة ورونقا. وفي عتمة الليل وسكونه، وقبل نومه، كان يستغرق في الكتابة تارة والقراءة تارة أخرى مستأنساً بطيف صبي وسيم، هادئ، في الرابعة من عمره، لم ينبس بكلمة في حياته. في ركن من أركان الغرفة، كان ملاك جالسا في هدوئه المعتاد، يرسل نظره إليه في صمت، والابتسامة لا تفارق شفتيه الصغيرتين. يشع وجهه براءة ونورا وخيرا. كأنه ملاك نزل من السماء في تلك الليلة الأولى المباركة التي بزغ فيها فجر حبٍّ سرمدى مع فتاة من النمسا.

«السفر وتغيير المكان يضفيان حيوية جديدة على العقل»، مثلما قال الفيلسوف الروماني سينيكا. والعطلة بكل تأكيد أفضل فرصة للراحة والمتعة والهناء. لكن ذلك لم ينطبق مطلقاً على أنجلينا التي رجعت إلى لندن بعد عطلة تجاوزت ثلاثة أسابيع في أسوأ حال. على غير عاداتها عند رجوعها من أسفارها إلى النمسا، بدت هذه المرة كاسفة الوجه، مكسورة الخاطر، واهنة القوى، وكأنها تجر خلفها كل هموم الدنيا!

في مبنى المطار، لما سألها شفيق عن حالها وهو يبدو قلقاً عليها، ابتسمت نصف ابتسامة لم تحجب الحزن الذي كان يملأ عينها:

«لا تقلق. كل ما في الأمر أنني مرضت في الفترة الأخيرة ولم أكن أنام جيداً... أشعر أنني أفضل الآن...».

لكنّ حالها لم يكن أفضل على الإطلاق. ظل الوضع مستقراً مع مرور الأيام والأسابيع. كانت في جل الأوقات تبدو مكروبة، مشغولة البال، تائهة بين أمواج التفكير المتلاطمة كما لو أنّ أبواب الدنيا كلها انسدت في وجهها. كان يرغب في الاقتراب منها والإصغاء إليها ومواساتها والترفيه عنها. لكن كيف السبيل إلى ذلك وهي منغلقة على نفسها؟!

بدت طول الوقت قريبة منه بجسدها، بعيدة عنه بعقلها، بعد النجوم بعضها عن بعض. ما زاد شفيق قلقاً وحيرة صمتها المبهم الرهيب. حتى عندما حدثها عن ديكور المنزل الجديد والفرش الأنيق واتصاله بمكتب التسجيل المحلي للاستفسار عن إجراءات عقد الزواج في المكتب القانوني، مباشرة

بعد عودتها من سفرها، فإنها بدت باردة برودة المناخ النمساوي في فصل الشتاء، ولم تبد اهتماما أو إثارة يليقان بمثل هذه المناسبة العظيمة.

صار هو أيضا يشعر بالوحدة والغم في غمرة هذا الصمت الغريب ولم يكن يدري ما يفعل. ها قد اكتسب «الشعور بالوحدة» معنى جديدا في قاموسه الشخصي. صار يرى أنّ الوحدة لا تعني بالضرورة أن يجد الإنسان نفسه وحيدا في حياته، بل تعني أن يجد الإنسان نفسه مع بشر لا يعرف التواصل معهم، ولا يشعر بالألفة والراحة والأمان بجوارهم.

لطالما عشق الصمت و زاد عنه في ظل الحياة السريعة في المجتمع البريطاني وصخب المدينة. ولطالما آمن بأن الصمت من الخصال النبيلة، والمواقف الجميلة. فما أجمل صمت الإنسان في لحظة الغضب! ولطالما آمن بأن الصمت أفضل جواب لكثير من الأسئلة التي تخطر على البال. لكن هذا الصمت الطويل أمامه والذي تجاوز حده لم يقدم له جوابا مقنعا عن سؤال يشغل باله منذ عودة أنجلينا من النمسا: ترى هل لا زالت سعيدة بالزواج الذي لم يعد يفصلها عنه إلا أسابيع؟! مجرد التفكير في ذلك كان يشعره بالضغط والتوتر.

كان لا بد أن يذوب هذا الجليد الذي تبع أنجلينا من النمسا وجمّد لسانها إلى هذا الحد.

وإذا بجليد الصمت أخيرا يذوب بحرارة نقاش نشب بينهما ذات مساء في بداية أواخر شهر يوليو، بعد عودة أنجلينا من العمل. كان شقيق في انتظارها في الصالون حيث تشجّع هذه المرة وعبر لها عن تعبه من هذا الصمت الذي لا معنى له ولا يخدم العلاقة والوقت يمر.

فانفجر أخيرا البركان الذي كان يتقد بصمت في أعماقها، تتقاذف من فوهته حمم التعاسة والغم والألم. قالت له والدموع تنهال على خديها:

«أنا آسفة! لا أتصور أنني أستطيع الزواج منك مع أنني أحبك!»

ابتسر وجهه فجأة وبدا كما لو أنه تعرّض لنوبة حادة. صاح بفزع وهو عاجز عن تصديق الخبر:

«ماذا؟! مستحيل! أنت تمزحين! تمزحين أليس كذلك؟!»

وحدّق ببصره فيها وهو يبدو مصدوما، فتبيّن ردّها في نظرتها الحزينة قبل تفوهها بأية كلمة. ثارت ثائرتة، ولم يتمالك نفسه، فدفع المائدة القريبة منه جانبا بما كان يملكه من قوة و طاقة، غير منتبه إلى ما كان عليها من أوان ومشروبات، أو في أي اتجاه ستقع، أو ما تخلّفه من ضرر.

«هذا غير ممكن! بعد كل هذه السنوات! بعد أن أبلغنا كل العالم! ولماذا؟! ماذا فعلت لك أنجلينا حتى ألقى منك هذا العقاب العسير؟!»

«لا، ليس كذلك!» صاحت الفتاة باكية في صوت مرتعش. «لست أنت السبب! أنا السبب! أو ربما لا أنا ولا أنت، بل الظروف! أنا باردة وأنت حار! لا يمكن!»

اقترب منها وأمسكها من ذراعيها وقال في صوت خافت متوسلا:

«أنجلينا أرجوك! إذا كان الجنس هو السبب، تذكرني أنني وافقت على تقليل الجنس! وفعلت ذلك لأجلك! ليذهب الجنس إلى الجحيم! لن أدع ذلك يحطم حبنا! مستعد للتنازل أكثر أنجلينا!»

نظرت إليه أنجلينا بعينين دامعتين وصاحت بمرارة:

«ولماذا؟! لماذا تتنازل براحتك وسعادتك؟! لماذا تعذب نفسك؟! لماذا ترضى بحياة قاسية إذا كنت تستطيع أن تحيا حياة سهلة؟! أنا آسفة! حتى وإن كنت ترضى بذلك لنفسك فأني لن أرضى!»
شفيق لم يكن يبدو مقتنعاً. صاح بتأثر:

«هل فكرت في السنوات الطويلة التي أمضيها معا؟! هل فكرت في كل ما حققناه معا؟! هل فكرت في هذا المنزل الكبير المسجل باسمي وباسمك؟ وفي الحساب البنكي المشترك؟! حياتي اليوم مرتبطة بحياتك! لا يمكن!»
فقال في صوت مخنوق من شدة البكاء:

«أنا آسفة! لكن صدقني فكرت طويلاً في كل ذلك!»

«وهل فكرت في شهر العسل ورحلة شهر العسل الشهر المقبل التي كنا نتطلع إليها؟! وهل فكرت في المبلغ الذي سأخسره الآن! وهل فكرت في ملاك، هذا الصبي، الذي تجاوز سنه اليوم الرابعة وهو الآن يحيا معنا؟!»

«لا! لم أفكر في هذا الصبي الذي تحدث عنه دائماً والذي لا يعيش إلاً في خيالك! ولا أريد أن أفكر فيه!» ردت في صوت متهدج. «لكن، ثق أنني فكرت ملياً في كل شيء آخر! وكان هذا التفكير يقتلني كل يوم!»

امتلات عيناه الحزيتان بالدموع وسرعان ما فاضت عبراته على خديه سيولاً جارفة لا يعرف إيقافها.

«هل أنت حقاً جادة؟! هل تعنين حقاً ما تقولين؟! قال ذلك في صوت يخنقه البكاء. ثم مسح عينيه بكفه. «لا، لا! لا أستطيع أن أصدق ذلك!»

«أنا آسفة شفيق! آسفة!» قالت بصوت منتحب تتخلله تنهّادات وآهات مزقت فؤاده. «أنا آسفة حقا! لم أقصد أبدا أن أجرحك!»

وماذا عسى الجندي الجريح المنهزم في ساحة المعركة غير الاستسلام للأمر الواقع! لم يعد أمامه غير السعي للتفهم وتقبل هذا الواقع الجديد الذي بدأ يُرسم أمام عينيه الدامعتين بألوان قاتمة. حتى هذا المنزل الجميل والهادئ الذي جدّ وكدّ في سبيل الحصول عليه، وأمضى زمنا طويلا في صيانته وتجديده؛ وقام بدهنه بأحلى الألوان، وتزويده بأجمل فرش، ونظر إليه طويلا على أنه فردوس له ولحبيبته وقلعة متينة لحماية حبه، صار الآن أشبه بمنزل مهجور حطمه قصف الطيران ونيران المدفعية في حرب ضارية! شفيق لم يحصر تفكيره في نفسه فحسب. ففي ديجور الألم والدمار والضياع واليأس، كان عليه أن يفهم موقف هذه الفتاة الجريحة والمدمّرة هي أيضا في هذه المعارك. فمع أنّها كانت، في نظره، شريكة حياته وجزء من ذاته، إلّا أنّها في الواقع تبقى شخصا مستقلا عنه وعن إرادته، له كيانه وسيادته وشخصيته، يملك حرية اتخاذ قرارات تخص حياته ومستقبله، وتخص علاقته به، بما في ذلك حق الانسحاب من هذه العلاقة وإنهائها، وهو ما ناقشه واتفق عليه معها منذ البداية. وها هي أنجلينا تمارس ذلك الحق. وما ذنبها في ذلك إن لم تكن سعيدة؟!

قال لها بصوت بائس يائس:

«أوكي! أوكي! افعلي ما تحتاجين إلى فعله! سأقبل قرارك أنجلينا! لكن تأكدي أنك لن تجدي أبدا في حياتك رجلا يحبك بقدر ما أحبك!»

أنجلينا ردت باكية مشتكية:

«أنا واثقة من ذلك! وهذا ما يعذبني أكثر! لا أريد أن يطول عذابي وعذابك! لهذا، لابد أن أرحل في أقرب وقت ممكن! ربما الجمعة ٣٠..». لم يعجب هذا الاقتراح شفيق، فصاح مقاطعا:

«لا! لا! أرجوك أنجلينا! اختاري يوما آخر، لكن ليس نهاية الأسبوع!» لم يتمالك نفسه وهو يفكر في رحيلها، فأمسك عن الحديث، وامتثلت عيناه بالدموع مجددا.

«أنا أعمل طيلة أيام هذا الأسبوع ولا أشتغل السبت والأحد». قال في صوت متهدج متكسر. «تعودت أن أصرف نهاية الأسبوع معك.. نسهر في مشاهدة الأفلام، نطبخ معا.. نخرج معا ونتحدث ونلعب ونمرح... سأشعر بالدمار إن عدت إلى البيت مساء يوم الجمعة ولم أجذك! وسيقتلني الفراغ يومي السبت والأحد! ليكن رحيلك أثناء الأسبوع حيث أكون منشغلا بالعمل! أعود إلى البيت وأنا أعلم أنني أشتغل في اليوم التالي أرحم!.. إلى أن أعود قليلا!»

«أنفهم وأقدر! حسنا! إذا أؤجله إلى ما بعد نهاية الأسبوع». ردت أنجلينا والدموع تنهمر على خديها.

أنجلينا بهدوئها ورزانتها وحكمتها، لم تكتف بالتفكير في ترتيب السفر، فقد انشغل بالها بترتيبات أخرى أملاها عليها قرارها لا سيما ترتيبات النوم مع هذا الفتى الذي لم يعد الآن قريبا وإنما غريبا.

«ماذا عن النوم؟ أستطيع أن أنام في الغرفة المجاورة أو الصالون في انتظار موعد السفر».

اقترب منها شفيق وأمسكها من ذراعيها وقال لها والدموع تنهال على خديه:
«لا! لا يا أنجلينا! لماذا تفكرين في ذلك؟! لماذا تستعجلين قتل هذه الصلة الموجودة بيننا؟! لا يفصلنا عن موعد الفراق إلا أيام معدودة! دعينا نحيا هذه الأيام كما لو أننا لم نقرر شيئا! أرجوك! سفرك جزء من المستقبل وليس الحاضر! ما زلنا معا في الحاضر! وما زلنا تحت سقف واحد! فأرجوك، أنجلينا، دعينا نحيا آخر اللحظات من عمر علاقتنا معا بشكل عادي! دعينا ننسى الماضي والمستقبل معا ونحيا الحاضر بما أمكننا من متعة وسعادة، كما لو كنا سنبقى في هذا الحاضر للأبد!»

وأضاف في صوت متقطع من شدة البكاء:

«كل يوم نمضيه معا هذا الأسبوع لن يتكرر! تصوري أن هذا اليوم سيكون آخر يوم ثلاثاء نقضيه معا!»

حاول شفيق أن يكون إيجابيا وبناء حتى في لحظة انهيار علاقته. لتبديد تلك العتمة التي خلّفها قرار أنجلينا الرحيل عنه، قام بتحضير حمام ساخن رومانسي، نشر على سطحه بتلات ورود كان قد اشتراها لها قبل أيام قليلة تعبيرا عن حبه الصادق لها.. حمام معطر ببتلات ورود حمراء، ومحاط بشموع وردية معطرة، تتعالى في أجوائه رائحة «بحيرة البجع»، أعدده خصيصا لها، لعله يغسل عينيها من تلك الدموع الحزينة، ويظهر نفسها البريئة من رواسب الأسى الذي ألمّ بها.

بقي هو في انتظارها في غرفة نوم هادئة معتمة تنيرها أيضا شموع معطرة، لا يقطع سكونها إلا ظلال الشموع المترافضة على الجدران على وقع صوت احتراق الشمع من حين إلى آخر.

أنجلينا التي كانت قبل قليل تتحدث عن ترتيبات النوم وتقتترح النوم في غرفة أخرى بعيدة عنه، التحقت به في غرفة النوم وهي ترتدي أجمل ما لديها من ملابس داخلية مثيرة، وارتمت في حضنه، ثم راحت تقبله على شفتيه ثم عنقه ثم إلى حيث نقطة ضعفه لتوقظ بعد ذلك وحشا شرسا ليس بمقدوره مقاومة لمسات ساخنة مثيرة كلمسات شفتيها المبللتين باللعب. أنجلينا هذه المرة لم تدع هذا الوحش يبادر ويتحكم في الأمور كما كان يفعل. اختارت هذه المرة أن تسيّر الأمور بنفسها وأن تكون هي السيدة والملكة، كيف لا وقد ارتقت الآن فوقه، معتلية عرشه، سابحة معه في فضاء عالم آخر كله راحة ومتعة وسعادة، بعيدا عن هذا الواقع المؤلم. وكانت تتردد في أجواء ذلك العالم البعيد السعيد أنغام (كيني روجرز وشينا إستون)

We've Got Tonight

«أنا أعلم أنّ الوقت متأخر،
وأنت متعبة،
وأعلم أيضا أنّ خططك لا تحتوي،
لكننا ما زلنا هنا،
كلانا وحيد،

يبحث عن ملجأ يختبئ فيه من كل ما نشاهده.

لماذا نشغل بالنا؟

لا أحد يبالي أيتها الفتاة. أنظري إلى النجوم،

كم هي بعيدة.

لدينا هذه الليلة،

ومن يحتاج إلى الغد؟

لدينا هذه الليلة حبستي،

فلماذا لا تبقين؟..».

لكن هذه المعنويات المرتفعة لم تستمر طويلا، ففي اليوم التالي دخل المنزل، فانفجر بركان الأسى بداخله وهو يشاهد أنجلينا تعد حقائبها والتهب سعيير الأسى لما التقت عينيه بعينيها ولمح آثار الدموع والحزن فيهما.

أخرجت أنجلينا ألبومات الصور التذكارية الممتدة عبر أكثر من أربع سنوات ونصف، فوقعت من أحدها على الأرض صورة ملتقطة خلال سفرهما التاريخي إلى جزر الكناري. قسمت أنجلينا صور الألبومات بينهما ووضعت الجزء الخاص بها في حقيبتها. لطالما استمتع شفيق بمشاهدة صور هذه الألبومات، لكن هذه المرة، ولأول مرة، تنقبض نفسه ويتملّكه الوجل وهو يشاهدها من بعيد!

في يوم السبت، ذهبت أنجلينا إلى مكان عملها لآخر مرة لحضور حفل وداع حضره المدير وكل الزملاء والزميلات. كانت استقالتها من عملها

خسارة بالنسبة لهؤلاء أيضا. فأنجلينا كانت محترفة، ومؤدبة، تؤدي واجبها بإتقان، وكانت تصل العمل في الموعد رغم المسافة البعيدة ومشقة السفر الذي كانت تستقلّ خلاله أكثر من قطار واحد. أثناء غيابها، بقي شفيق في المنزل، يؤنسّه في وحدته صبي يعيش الأيام الأخيرة من عمره. صبي في مقتبل العمر، بدأت أعراض المرض والموت البطيء تظهر عليه. بدا نحيفا، متألما، بائسا، تفيض دموع الحسرة والأسى من عينيه. هرع إليه وقلبه يتمزّق ألما، وحمله بين ذراعيه، وراح يحضنه بعطف ويقبله بحرارة وهو يردد في صوت تخنقه العبرات:

«أنا آسف! آسف! أنا عديم الفائدة! أراك تنهار أمامي ولا أستطيع أن أنقذك!»

وفي لحظات الألم والقنوط هذه، تتردد في خياله أنغام

A Different Corner

ل(جورج مايكل):

«ارجع بي إلى الماضي..

لعلي أستطيع أن أنسى..

ألثقت إلى زاوية أخرى..

فلا نكون قد التقينا..».

لكن، هذا الماضي الذي شعر فجأة برغبة جارفة في العودة إليه لأجل تحقيق مراد واحد فقط وهو السير في طريق أخرى مختلفة تجنّب لقاء هذه

الفتاة التي وقع في حبها وسترحل عنه، لن يعود! وهذا الصبي الواهن أمامه، الذي أئخنه الداء، لن يستطيع تحقيق أمنيته والسفر به إلى الماضي، ولم يبق لهذا الصبي في الواقع إلاّ سفر واحد أخير مؤلم وهو السفر خارج الحياة خلال أيام معدودة! يتساءل في يأس وجنون: أي عدل هذا في الدنيا حتى يفارق الحياة صبي بريء في مستقبل العمر، ويحيا آخر حتى يهرم ويسأم من حياته أو ربما تسأمه الحياة؟!

تتلاطم أمواج الهواجس العاتية في وجدانه فتسافر به إلى حبيبته المقبلة على الرحيل، فيتساءل عن جدوى الحياة في هذا المنزل الفسيح والريح في غياب ملكة قلبه! وتتلاعب به الأمواج فتقذفه ثانية بجوار ملاك، الصبي الجريح، فيتساءل في جنون: أي طعم للحياة بعد رحيل هذا الصبي البريء؟! وتتأبه رغبة في مرافقته في سفره البعيد إلى عوالم أخرى بعيدة قد تكون أكثر راحة وسعادة وعدلا من هذا العالم الذي يُحكّم فيه على صبي بالموت ويحظى آخر بالبقاء!

أجواء كثيبة خيَّمت على ليلة الوداع، تبادل فيها الحبيبان نظرات تعبر عن حزن عميق وأسف شديد لفراقٍ على بعد ساعات قليلة. آنذاك شعر شفيق كما لو كان سجيناً محكوماً عليه بالإعدام في الساعات الأولى من الصباح. ولم يكن لهذا السجين قبل تنفيذ الحكم إلاّ أمنية واحدة.

«أود أن أطلب منك خدمة واحدة لآخر مرة يا أنجلينا!» قال لها ذلك محاولاً تجنب النظر إلى عينيها الحزبتين. «سأنهض مبكراً للذهاب إلى العمل. فلا تستفيقي معي أرجوك! أنا لا أحب أن أقول وداعاً يا أنجلينا! الموقف سيكون صعباً عليّ وعليك! نحن في غنى عن ذلك بعد كل العذاب الذي عشناه في الأيام الماضية!»...

فردت أنجلينا في صوت خفيت:

«أوكي. أنا على كل حال أشعر بالإرهاق ورحلتي ستكون في المساء. لست في حاجة إلى الاستفاقة مبكراً. بالمناسبة، سأترك لك مفاتيح البيت على المائدة في الصالون».

أحسّ شفيق بجفاف في حلقه عندما سمع ذلك ولم ينبس بكلمة. فمدّت أنجلينا يدها في عتبة الغرفة ووضعتها على يده وقالت:

«أعترف لك بشيء.. بعدما أبلغتك بقرار الرحيل، تمنيت حقيقة لو
تغير سلوكك تجاهي! تمنيت لو حاولت معاقبتني والانتقام مني! تمنيت
لو صرخت في وجهي وشتمتني وشتمت أسرتي ولعنت أصلي وفصلي.
وتمنيت لو ضربتني!...».

«ما هذا الذي أسمعه أنجلينا؟!» قال مستغرباً كلامها. «وماذا كنتِ
ستجنين من الشتم والإهانة وكل ما ذكرتِ؟!»
«لو كنتِ قاسياً معي لأوهمتُ نفسي أنك لا تستحق دموعي!» قالت في
صوت حزين. «لطفك زادني ألماً وشعوراً بالذنب!»
وأمسكت عن الحديث قليلاً ثم تابعت:

«لا أريدك أن تنظر إلى هذه السنوات التي أمضيناها معا على أنها وقت
ضائع من حياتنا! أريدك أن تنظر إليها على أنها صفحة جميلة في حياتنا شاء
القدر أن تطوى. أنا أيضاً سأفعل ذلك وسأذكرك!»
فقال مبتسماً ابتسامة تخفي وراءها ألماً عميقاً يمزق فؤاده:

«أنا أيضاً سأذكرك أنجلينا! ومن يدري؟! قد أكتب عنك رواية تحمل
اسمك، في يوم ما! ستحمل ربما عنوان 'فتاة من النمسا'!»
بدت ملامح وجهها تتأرجح بين الانبساط والانقباض وهي تسمع ذلك.
«أنا واثقة أنك ستحملني مسؤولية نهاية هذه العلاقة، لكنني لا ألوّمك
على ذلك لأنني أنا التي قررت الانسحاب!»

«لا، لا، أبدا!» صاح في صوت وقور. «أعدك أنني سأكون عادلا تجاهك! سأضع نفسي في مكانك، وأعبر عن مشاعرك، وأصورّ مواقفك بدقة وأمانة! ولن ألوّمك! فقد علمتني الحياة، يا أنجلينا، أن أصغي إلى البشر وأن أقدر ظروف البشر، وأن أنظر إلى المسائل من زوايا مختلفة، وأن أسعى لمشاهدة الحياة والكون وكل شيء بأعين الآخرين! وإني عندما نظرت إلى ظروفنا بعينيك فهمتُ قرارك. لقد تعلمت في هذا المجتمع متعدد الشعوب والأعراق والألوان والديانات والثقافات أنّ لا أحد في الدنيا يملك الحقيقة، ففي كل موضوع قولان، وفي كل قضية رأيان، وفي كل قصة وجهان، وليس في الكون لون بل ألوان، فالحقيقة شيء لا يملكه الإنسان».

حديثه الإيجابي والبناء مع أنجلينا هذه الليلة - ليلة الوداع - أضفى معنى جديدا على مفهوم «لحظة الوداع» التي كان في تلك الأثناء يعيشها مع هذه الفتاة. فلحظة الوداع ليست فقط لحظة للتصافح والعناق والدموع والتعبير عن الأسف لرحيل الأحبة، وإنما هي أيضا لحظة للتعبير عن الشكر والعرفان للأوقات الجميلة الممتعة التي تقاسمها الأحبة معنا وكل ما فعلوه لأجل راحتنا وسعادتنا.

في الصباح الباكر، صحا من كوابيس نومه على كابوس الواقع المتمثل في رحيل حبيبته. استفاق من نومه هذه المرة على غير العادة، على وقع منبه حدسه، دقائق قبل انطلاق صوت المنبه. الضوء الخافت المتسرب من خلف ستائر النافذة المقابلة للحديقة أتاح له فرصة اختلاس نظرة شاملة إلى

هذا الجمال الساحر النائم بجانبه في آخر ليلة لهما معا. انقبض وجهه وهو يفكر في أنها آخر نظرة وآخر مرة. تسلل خارج الغرفة بهدوء غير معهود وهو يمشي على رؤوس أصابع رجله حتى لا يوقظها.

وفي الصالون، جلس يشرب فنجان قهوة وهو يتابع الأخبار على شاشة (سكاي نيوز) البريطانية من دون صوت، من خلال النص التلفزيوني حتى لا يوقظها، قبيل مغادرته البيت.

سمع فجأة وقع أقدام في الأعلى. التفت نحو الباب المقابل للسلم المؤدي إلى الطابق الأول، فتفاجأ بمشاهدة أنجلينا تنزل السلم بخطى بطيئة وهي ترتدي فستان النوم. كانت تنظر إليه بحزن وألم وعيناها محمرتين من آثار بكاء بالليل. بدت كالوردة الذابلة من الحزن. قرأ في عينيها الحزبتين أنغام المغنية الأمريكية ويتني هيوستن

I Will Always Love You

«سأحبك دائماً»

قام من مكانه وصاح في صوت ينم عن دهشة وحسرة:

«لماذا نهضت أنجلينا؟!»

سارت أنجلينا نحوه بخطى سريعة وصاحت والدموع تنهمر من عينيها:

«كان الأمر فوق طاقتي!»

«لكنك بذلك تضعيننا في موقف صعب حاولت تجنبه!»

«أنا آسفة! أعلم أنني وعدتك بأن لا أفعل! لكنني لم أستطع! أردت أن أراك آخر مرة!»

لم يستطع شفيق الرد عليها بعدما خنقت الدموع صوته، واكتفى بمعانقتها عناقا طويلا مريرا تتردد في خاطره كلمات أغنية اقترنت في ذاكرته بأول لقاء مع هذه الفتاة في ميدان ليستر. وها هي اليوم حاضرة في آخر لقاء بينهما! في ذلك اليوم السعيد الذي رآها فيه واستمع رفقتها إلى هذه الأنغام، يغمره الحنين والسعادة، لم يكن يتصور أبدا أن كلمات هذه الأغنية ستنبثق عليه وستعكس مصيره في يوم من الأيام! وتتردد الأنغام الحزينة في وجدانه، فتزيد دموعه حرارة، وقلبه ألما، ونفسه دمارا:

«إذا بقيتُ،

فإنني سأعترض فقط طريقك.

لذلك سأرحل ولكني أعلم،

أنني سأفكر فيك

في كل خطوة في الطريق،

وأنني سأحبك دوماً،

سأحبك دائما،

أنت، حبيبي..

ذكريات حلوة ومرة،

هذا كل ما أخذه معي.

إذا، إلى اللقاء.

فأرجوك لا تبكي،

كلانا يعلم أنني لا ألبى حاجتك...».

كانت هذه آخر لمسات وآخر لحظات قضاها شفيق مع الفتاة قبل الفراق الأليم. غادر البيت ودموعه تنهل انهلال القطر. ولم يكد يقفل الباب خلفه حتى تراءى له ملاك، رمز حبه، الذي صار له هو أيضا مكان في قلبه. كان شفيق قد سها عنه تماما في غمرة الألم والحزن وانشغاله بأنجلينا. رآه عبر غشاء الدموع واقفا على بعد أمتار من عتبة الباب متكئا على الحائط وهو يرتجف ويتألم والدموع تبلل وجهه. بدا له اليوم في أسوأ حال. ركض نحوه وأخذه في حضنه وهو يلجّج في الاستعبار.

«أنا آسف! تمنيت لو كنت أستطيع مساعدتك! لو كان الأمر بيدي لمنحتك عمري! لكني لا أستطيع! أنا آسف! أنا عديم الفائدة!» ردّد ذلك ونفسه تتساقط حزنا وغما. ثم، تركه ومضى. وفي طريقه، التفت خلفه ونظر فوق كتفه، فرآه يمد ذراعه نحوه وهو يبكي. بدا كما لو كان يدعوه إلى العودة إليه والبقاء بجواره ورعايته، كالطفل الصغير الذي يتوسل إلى أمه كي تعود وترأف بحاله ساعة رحيلها عنه!

في ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم، ركبت أنجلينا طائرة تابعة للخطوط الجوية النمساوية في مطار هيثرو الدولي في طريقها إلى النمسا،

بعد أن حجزت تذكرة ذهاب دون عودة لأول مرة منذ حلولها في بريطانيا. جلست في مقعد نافذة في الجزء الخلفي للطائرة العملاقة. وكان المقعد الأوسط بجانبها فارغا ذكّرَها برحلاتها السابقة رفقة شفيق الذي كان يجلس بجانبها. شعرت بوحدة وبرودة وخوف وهي ترى أنها تسافر من غيره، وأنها من اليوم فصاعدا لن تراه.

سارت الطائرة على أرض المطار باتجاه مدرج الإقلاع منتظرة دورها للإقلاع في هذا المطار الكبير والمزدحم. نظرت أنجلينا من النافذة عندما أخذت الطائرة تتحول شيئا فشيئا إلى اليمين حيث مدرج الإقلاع المنفتح على الفضاء والعالم. كانت نفسها آنذاك تتقطع حزنا وأسى لفراقها حبيبها. شعرت فجأة أنها تفتقده ولم ترحل بعد عن مدينة لندن!

كان أمام الطائرة النمساوية طائرة تابعة للخطوط الجوية الفلبينية، متبوعة بطائرة الخطوط الجوية الأمريكية (أميركان إيرلاينز).

ما أعظم العقل البشري الذي صمم هذه الوسيلة العجيبة! فمع أنها تزن مئات الأطنان، تستطيع هذه المركبة العملاقة أن ترتفع في السماء، وتقطع مسافات شاسعة في أنحاء العالم، بسرعة مذهلة وهي تحمل على متنها مئات الأشخاص وتنقل ما لا يعد ولا يحصى من الأمتعة! هذه الطائرات التي هي الآن تتابع على أرض المطار في خط واحد، وتمضي في طريقها باتجاه واحد هو مدرج الإقلاع قبل افتراقها، وتسير سير السلاحف، سترتقي جميعا في الأجواء خلال لحظات من إقلاعها، وخلال لحظات أخرى ستمضي في اتجاهات مختلفة، فوق بلدان وقارات وبحار وتضاريس مختلفة!

وهذه الطائرة النمساوية بالذات، وإن كانت تسير سيرا بطيئاً على أرض المطار في هذه اللحظات، فهي بعد لحظات من الآن ستحلّق في الأجواء. وستزداد سرعتها. وفي ظرف دقائق، ستكون قد ابتعدت عن الجزر البريطانية بمئات الأميال!

فاضت الدموع من عينيها وهي تفكر في ذلك وتذكر أنها بعد قليل ستكون هنالك في الأجواء، بعيدة عن هذه الأرض التي صرفت فيها سنوات من عمرها، بجوار حبيبها! وستكون بعيدة عنه بعد السماء العالية عن الأرض! بعد مغادرة طائرة الخطوط الفلبينية وطائرة الخطوط الجوية الأمريكية، حان أخيراً دور الطائرة النمساوية، فاستقامت شيئاً فشيئاً في مدرج الإقلاع منتظرة الإشارة. وتعالى صوت قائد الرحلة يأمر طاقم الطائرة بالجلوس للإقلاع.

فاضت الدموع من عينيها في هذه اللحظات الأخيرة قبل الرحيل عن بريطانيا. صور كثيرة من الماضي الذي جمعها مع حبيبها تراجعت في مخيلتها على أنغام أغنية

Must Have Been Love

(كان ذلك حبا بالتأكيد)

وعبر غشاء الدموع المتدفقة من عينيها، تراءى لها شفيق وهو يجلس بجانبها الآن في ذلك المقعد الأوسط، تماماً مثلما جلس بجانبها في أول رحلة له معها إلى النمسا. كان بأشّ الوجه، باسم الثَّغر، يفيض بهجة وإثارة. تراءى لها أيضاً وهو يسير معها في ميدان ليستر سكوير خلال أول لقاء لهما. وتراءى لها وهو يختلس نظرة إليها، لتلتقي عيناها على أنغام ويتني

هيوستن المتعالية من تلك الساحة الممتلئة بالمارة والحيوية في تلك الليلة
المجيدة. ورأته وهو يكسر القواعد ويتسلل رفقتها إلى داخل حديقة ريجنت
بارك المقفلة ليلاً. وشاهدته وهو يمارس الرياضة معها في الحديقة والمنزل.
وشاهدته وهو ينتظرها في مكان العمل. وشاهدته وهو يعرض عليها الزواج
في المطعم. وشاهدته وهو يعرض عليها وصل وكالة توماس كوك السياحية
ووجهه يفيض سعادة وإثارة... مسلسل واقعي درامي طويل توالى أمام
عينها الدامعتين، على أنغام (روكست) الحزينة.

في تلك الأثناء، كان شقيق في طريقه إلى البيت بعد خروجه من العمل
وتسكعه في شوارع المدينة بغير هدف، قتلاً للوقت. كان يدرك مسبقاً أن
ذلك المنزل الجميل والمنعش، إن غادرته تلك الفتاة، تكون الحياة قد
غادرته للأبد، ليكون بعد ذلك في صورة قبر موحش. وبعدما كان متحمساً
لتشييده وبناء حياته فيه، ها هو اليوم يفقد الرغبة في العيش فيه، ولا يحتمل
حتى العودة إليه!

على بعد أمتار من المنزل، كانت الصدمة شديدة. لمح ملاكا واقفاً
بالقرب من الباب يرتعش وقد ابتل وجهه بالدموع. هرع إليه، وقبل أن يصل
إليه، انهيار الصبي على ركبتيه وهو يبدو واهنا ويجد صعوبة في التنفس. حمله
بين ذراعيه، وراح يحرك وجهه وهو يصرخ بفزع والدمع ينهمر من عينيه:
«ابق يقظاً أرجوك! لا ترحل أرجوك! لا تتركني!..».

فتح ملاك عينيه وابتسم ابتسامة رقيقة ختم بها آخر لحظة من لحظات عمره القصير. وكأنه أبى إلا أن ينتظر عودته من العمل ليفارق الدنيا في حضنه! حمله شفيق بين ذراعيه وراح يحضنه ويقبله وهو ينتحب مرددا:

«لا! أرجوك! أرجوك! لا ترحل! لا تتركني وحدي هنا.. في هذه الحياة!»

وعلى مدرج الإقلاع بمطار هيثرو الدولي، في هذه اللحظات، ازدادت محركات طائرة الخطوط النمساوية صخبا، وازدادت معها دموع أنجلينا غزارةً، ونفْسُها مرارةً.

وانطلقت المركبة بأقصى سرعتها ثم ارتقت فوق سماء المدينة وأخذت شيئا فشيئا مسارها شرقا، باتجاه النمسا، بعد أن حكمت الظروف على جها بأن يتعثّر ويذهب في مهب الريح، تتردد في خيالها كلمات (كان ذلك جبا بالتأكيد):

«ضع همسك على وسادتي،

واترك الشتاء على الأرض.

استيقظُ وحيدة،

هناك جو من الصمت يخيم

على أرجاء غرفة النوم وفي كل مكان.

ألمسني الآن،

سأغلق عيني وأصبح بعيدا في دنيا الأحلام.

كان ذلك حبا بالتأكيد ولكنه انتهى الآن،
وكان جميلا بالتأكيد ولكنني فقدته بشكل ما.
كان ذلك حبا بالتأكيد
من أول لمسة إلى أن انقضى الوقت..».

- انتهى -

مقتبسة من قصة حقيقية

النهاية السعيدة التي لم يشأ القدر أن تتحقق:

يلتقي أبطال الرواية، بما في ذلك ريتشارد وزوجته ديان وزميلات
أنجلينا وأسرتهما وكل الأحبة والأصدقاء، في مطار هيثرو الدولي لتوديع
أنجلينا وشفيق مباشرة بعد حفل زواجهما. أنجلينا ترتدي فستان الزفاف،
وشفيق بدلة أنيقة وربطة عنق، ومعهما ملاك، يرتدي بدلة أنيقة، وهم الآن
في طريقهم إلى بانكوك تايلاند كأول محطة في رحلة شهر العسل، مثلما
كان مقرراً...

ما بعد القصة:

- بعد عودتها إلى النمسا، بقيت أنجلينا في اتصال مع شفيق لعدة أشهر ثم انقطع الاتصال.

- أبلغت أنجلينا شفيق في اتصال هاتفي بعد عودتها إلى النمسا بقليل أنّ ساعة اليد من نوع رولكس مصنوعة من الفولاذ والذهب الأصفر التي أهداها لها احتفالاً بمرور سنة على علاقتها لتكون رمزا لحبهما، تعطلت بعد عودتها إلى النمسا.

- شفيق تزوج لاحقاً من امرأة أخرى ورحل عن المنزل الذي اشتراه رفقة أنجلينا في كينت، والذي بقي يذكره بتلك التجربة.

- بعد سنوات من الفراق، تمكّن شفيق من الاتصال بأنجلينا عن طريق السفارة البريطانية في النمسا، فأبلغته في رسالة (كانت الأخيرة) أنها ارتبطت برجل آخر في النمسا ورحلت عن منزل والديها.

- قام أحد الأقارب بتمزيق كل الصور التذكارية التي تركتها أنجلينا لشفيق.
ولم تبق إلاّ صور قليلة أخذتها والدته معها بعد زيارة لندن وصورة واحدة
احتفظت بها شقيقته في فرنسا.

- عارض بعض أفراد الأسرة كتابة هذه القصة، وبعد تردد لعدة سنوات،
ورغم شعوره بالضغط، قرر المؤلف كتابتها تخليدا لها.

المنزل الذي عاش فيه شقيق وأنجلينا في منطقة (كينت) إنجلترا



القطار المصغر المحيط بحديقة كينت القريبة من المنزل



عن الكاتب:

مولود بن زادي كاتب و مترجم مقيم في بريطانيا، له عدد من المؤلفات منها:

- سنة ٢٠٠٠ كتاب الأفعال المركبة الإنجليزية باللغة العربية
- سنة ٢٠١١ رواية (عَبْرَاتٌ وَعِبَر) قصّة اجتماعية تاريخية درامية.
- سنة ٢٠١٣ (معجم الزاد للمترادفات والمتجانسات العربية) ما يزيد عن ٦٠٠ صفحة وهو الأول من نوعه في بلدان المغرب العربي، نفذت منه طبعتان وبيع منه أكثر من ٣٠٠٠ نسخة في أقل من عامين.
- سنة ٢٠١٤ (رواية رياح القدر) عاطفية اجتماعية.
- سنة ٢٠١٧ (رواية ما وراء الأفق الأزرق) سيرة.
- مولود بن زادي أيضا كاتب مقالات اعتمد على بعضها مرجعاً في دراسات جامعية. من مقالاته:
- . الأدب في مواجهة التابوهات
- . في ذكرى اكتشاف الحمض النووي: هل تستطيع البصمات الوراثية تحديد أصول البشر العرقية؟
- . جيفري تشوسر: رائد النزعة الإنسانية في الأدب الإنجليزي
- . في ذكرى ميلادها: الكاتبة الأمريكية سوزان كولنز، ذلك اللغز المحير!

رقم الإيداع: 8223 / 2019

الترقيم الدولي: 9 - 296 - 838 - 977 - 978
